عدد ممتاز

أيام الإنسان السبعة

عبد الحكيم قاسم

مختارات فصول

٥٢

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٥٢)

عدد ممتاز

مايو ١٩٨٨

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية

العامة للكتاب

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

أيام الإنسان السبعة

رواية

عبد الحكيم قاسم

حـــلم حياتى

كـــل امـــلى

مراكبى مشتاقه القلاع

تهفو الى المرافىء البعيده

الحضــــرة

طول عمر الولد عبد العزيز وهو يحب صـــلاة المغرب ، فهى تأتى فى وقت يكون فيه النهار رقيقا ، الشـــمس غاربة والأضواء لينة ، وربما حزينة قليلا ، والأب الحـــاج كريم يقول فى وقار وترتيل :

ـ المغرب جوهرة فالتقطوها ..

فاذا لم تبادر بالصلاة ضاعت مسحة الضوء الشفيفة النـدية من الأفق وكبس الظلام ..

ويفرغ الأب من صلاة المغرب ، وينهض ليجلس فى مكانه من الأريكة فى شرفة الدوار على جبينـــه تراب من أثر الســجود ، وفمه مشغول بالتسابيح ، كم هو طيب وحبيب ومهيب ذلك الأب الحاج كريم .

لا يجلس أحد فى مكانه من الأريكة ابدا حتى ولو كان غائبا ، ولو فعل فانما يكون متوترا متدلى السـاقين ، منحنيا الى الأمام واضعا كفيه على ركبتيه .. ذلك دوار الحاج كريم عن أبيه ، يقوم على رأس حارة كلها آله وعصبته ، وهـــو رئيسهم وهم محبوه وطائعوه ومباهون به .

يطوى الولد عبد العزيز الحصير الأبيض ويقيمه فى ركن . ثم يلبد فى جوار أبيه كقطـة صغيرة ، صغيرة ودودة ، وجســـده النحيل مشبع بالشوق الى مباهج المساء .

ما أبأس النهار ، حينما تنعقد وقدة الشمس ويصل ضوؤها الى كل ركن قاسيا وحازما وينتصب الرجال فى الحقول صارمين دؤوبين وتسعى النساء بقلل الماء وصرر الأرغفة صامتات ، حينئذ لا يكون ثمة مكان للكلمات العذاب ولا للحكايا ، تلك وقتها صدر المساء .

ما أعذب الحاج كريم فى الأماسى ، ولكنه فى النهار رهيب ، يتناول مقود بهيمتيه فى يد قاسية ، ويسوط ظهريهما ، ويفجر سلاح المحراث باطن الأرض والبهيمتان تتلويان تحت النير والرغوة البيضاء تتساقط من خطميهما على الأرض المتشققة ، وحوله العيال والرجال جهمون منهمكون لا يلوون على شىء .

الدور فى النهار كئيبة غارقة فى الضوء والغبار ، والشوارع ساكنة ، وقلب عبد العزيز ثقيل لكن الدور الآن شفيفة يترقرق عليها بهاء الشفق ..

يلبد الولد فى جنب أبيه يستمع للتسابيح ، كلمات مبهمة لا يدرك سرها ، لكنها مفاتيح تفجر فى خياله تصورات هائلة عن رجال ليسوا كالرجال ، ربما هم نحاف يرتدون أكثر الثياب رثاثة، لكنهم يقفون فى أركان الدنيا ، أو يسيرون تطوى المسافات الشاسعة تحت أقدامهم كالبسط ، ويمدون ايديهم فيمنحون البرء للمرضى ويملؤون الضروع باللبن والمخازن بالحبوب .. يحيون بين الناس لا تستطيع تمييزهم ، ثم يموتون فيولد النور وتبنى القباب فى المدائن ، وتمتلىء الطرقات بالناس كأسراب النمل حاملين زادهم الى موالد الشيوخ .

يلبد الولد فى جنب أبيه يسمع للصوت العميق الذى يخرج من قلبب الحاج كريم وهو يرتجف بالنشوة والترقب لمباهج ذلك المساء .

وحينما يفرغ الأب من تسابيحه يكوم مسبحته ويضعها فى جيبه ويخبط بكفه على باطن قدمه الراقدة تحت ساقه المثنية ، ويتنهد هاتفا باسم السلطان ، وجهه أسمر سمين متناسق الملامح وعيناه البنيتان طائران يغيبان فى الآفاق الوردية من شفق المساء. فى هذه اللحظة يتوقع عبد العزيز أن يأمره أبوه باحضار المصباح ، ففى هذه الليلة يأتى كل شىء فى أوانه .. ويعود الولد باللمبة الكبيرة ، ملمعة الزجاجة عامرة بالكيروسين ، ويضيئها الأب بعود ثقاب ويحملها الولد الى ردهة الدوار الكبيرة ويعتلى كرسيا حتى يصل بها الى الفانوس الكبير المدلى من السقف ويغلق عليها بابه ، وينتشر على الحيطان المبيضة نور الفانوس الأصفر الكابى ، تصحو النقوش والزخرفات وتتكحل بقطرات لامعة من الضوء ، وترتسم على الأرضية المبلطة دائرة كبيرة من الظلال تروح وتجىء متأرجحة مع اهتزاز الفانوس .

وما تكاد دائرة الظلال تهدأ مستقرة تحت الفانوس ومستطيل الضوء الأصفر خارج من باب الصالة ، وقاسم الشرفة الى ضفتين معتمتين ، ثم منحدر الى الطريق ، حتى يبدأ الناس يدبون عائدين من المسجد اثر صلاة العشاء متكسرين كأشباح واهنة وفى أفواههم بقايا تسابيح، يمرون بشرفة الدوار يقرأون السلام مخافتين ، ثم يمضون تبتلعهم عتمة الحارة ، ثمة فى الدور الكئيبة تنتظرهم الغرف المظلمة والنوم الى الصباح ، أما أصحاب الحاج كريم فأمامهم مباهج المساء .

ـ السلام عليكم .

ـ عليكم السلام ورحمة الله .

عاصفة صغيرة من الود والضحك الرائق ثم يصعد الرجل الدرجات القليلة الى الشرفة ويسلم على الحاج كريم ويجلس الى

جواره على الدكة ، ويداعب رقبة الولد النحيلة ويحس عبد العزيز ببرودة اليد التى مازالت رطبة بالوضوء .

ورغم الظلام يرى عبد العزيز التماعة الشوق فى عيون أبيه وهو يقول :

ـ تصلى انشاء الله فى الحرم الشريف يا شيخ احمد .

ويرد هذا داعيا بخشوع :

ـ وانت معانا انشاء الله يا عم الحاج .

وفى كل حين ينحرف رجل من الطريق المار بجوار الشرفة ثم يصعد الدرجات القليلة الى حيث ينتهى به المجلس ثم يكون السلام والكلمات القليلة والتحيات الطيبات حتى يلتئم شمل الصحاب ..

فى كل مساء يلتئم شمل هؤلاء الصحاب ، عملوا طول النهار فى الأرض حتى تشققت أيديهم وصاحوا وصرخوا فى الأولاد والنساء وساطوا البهائم وعميت عيونهم بالغضب العارم ، وفى المساء لبسوا الجلاليب المغسولة وصلوا العشاء جماعة فى المسجد الجامع وقالوا من قلوبهم آمين خلف الامام ثم جاءوا الى الدوار .

هم الآن طيبون حكماء ينظرون الى كد اليوم بوداعة ويبتسمون نادمين على عصفهم الفاضب بالنساء والولدان والبهائم ، لكنها قسوة الحياة وخشونة النهار ، وذلك السر الكبير المبهم الكامن فى صدر الأرض المفعم بالخصوبة وهم يدبون فوقها حيارى مهمومين غاضبين فى وقدة النهار .

لذلك خلق الله المساء وأخفى الشمس فى طيات المجهول لميقات معلوم، ولو كانت الدنيا نهارا دائما وكدا لاينقطع ، لانقلب الناس الى شياطين وما عرفوا الله .. لابد من هدأة كل مساء ، يدهشون

فيها لعجائب النهار المدبر ويبتسمون لخشونته ويتساءلون ملحفين عن سر النماء والذبول .

والحاج كريم سيد المزارعين ، الأرض امراته المطاوعة وهو ربها القاسى :

ــ ان مكانش سلاحك فى قلب الأرض .. مافيش من وراها رجا ... !

ويبهرون ويبتسمون ، لكنهم يؤمنون ..

لابد من هداة كل مساء يحكون فيها ويبسطون قلوبهم كالأكف المعطاءة يدور الكلام وتتفتح الحكايا ، ففى كل صدر قلب ، وفى كل قلب همه الفريد وهو فى رحلة الحياة يرى ويسمع ويتألم أو يرضى ، وفى المساء يأتى الى مجتمع الاخوان .

كل وجه من هذه الوجوه مطبوع فى خيال الولد عبد العزيز بتفاصيله الدقيقة لا يختلط بمن عداه ، ولكل مزاج عرفه وألفه وتعلق به وأحبه .

أحمد بدوى أول القادمين الى جلسة المساء ، الشاب الذكى ، قارىء الكتب للاخوان ، وجهه المستدير الطفلى المتورد الوجنات الضيق العيون ، المبتسم دائما .. وعلى خليل الدقيق المحاذر صاحب دكان البقالة ، وآخر من يأتى الى مجلس الاخوان ، فانه يتأنى فى صلاته ويتم أركانها ، أكرش نحيل الكتفين والذراعين هضيم الوجه شاحب لا يتكلم الا قليلا ولا يطلق الضحك ، انما يبتسم فى هدوء ، والدماء القليلة تشوب شحوب وجنتيه .. ومحمد كامل الطويل الأسمر ، العريض المنكبين ، قائد المرتلين والذاكرين فى الليالى الذى وخط الشيب رأسه ولم يعقب بعد خلفا ...

والعراقى الأطرش الذى لا يسمع ولا يتكلم وكل صلته بالحياة عينان حادتان سريعتان يعرف بهما الكلمات وهى تتكور على الشفاه ويجيب بكلمات مهشمة تثير الضحك أكثر مما تدل على شىء .. !

ومحمد العايق الدقيق الجرم ، ذو اليدين الناصعتين ، الأنيق الفائح دائما بالعطر ، زير النساء وزوج اللصة روايح .

وعمر فرهود الجمال ، فى النهار يصاحب جمله الهائل ، يشبك مقوده فى ذراعه ويناوله الطعام بلا انقطاع ، وفى الأذكار يطير لبه ويتناثر الرغاء من فمه ويمسك بهالرجال حتى يهدأ ، وفى المولد يحمل صحاحير الزاد على جمله الى المدينة .

وسليم الشركسى النجار ، ثمالة أسرة أتلف أدمغتهـا جنون غريب ، يجلس ساكنا لايتكلم ، انما يعلق على ما يقال ساخطا ، أو يضحك راضيا .

كثيرون هم كل منهم عالم بذاته عالم حبيب ينتظره الولد عبد العزيز كل مساء يشرب حديثهم بنهم لا يهدأ شىء ما يجمعهم فى مودة وثيقة عميقة وهموم اليوم حينما تطرح فى جلسة المساء تقودهم فى درب واحد نحو الزمن القديم والصور الضبابية عن الأيام الطيبات الثرية بالخير ، وعن الرجال الذين قالوا أحكم الكلمات وأكلوا أخشن الطعام وملكوا قوة الهيبة تمنح البرء للمرضى تملأ الضروع باللبن والمخازن بالحبوب، وتقودهم نحو البلاد البعيدة ، هنالك الصحاب وحكايات اللقاءات المتباعدة العامرة بالحب العظيم ، وهنالك الأماكن الغريبة والمزارات المهولة التى تستحق أن تشد اليها الرحال مقابر الأولياء والصالحين فى المدائن الكبيرة .. حينئذ يتخلق وراء عالم الحياة اليومية المحدود ، عالم آخر رائع لا نهائى يفجر الأشواق ويزحم القلوب بالوجد .

كل مساء سفر فى عالم غريب ، وبطل رحلة المساء هو الحاج كريم ، الأب الكبير ، سافر كثيرا وسمع كثيرا وحينما يشرع فى الكلام ، فان عيناه تسبحان فى الفضاء المضاء بالضوء الأصفر الباهت ، وتطل النقوش من الحيطان بعيونها البراقة .. يتنهد صافقا باطن قدمه اليسرى الراقدة على فخذه اليمنى وهو متربع فى مكانه من الأريكة ..

ـ والله يا رجاله .. وحق من أماته ..

تخشع القلوب وتطرق الرؤوس ويحكى الحاج كريم عن رجل من أصحابه أو عن شيخ من شيوخه أو عن حاكم نطق فى حضرته بالحق لم يخش شيئا ، وفى نهاية الحديث تمصمص الشفاه ، وتهينم بالكلمات الغريبة .. لقد حاز الحاج محمد والد الحاج كريم أطيانا شاسعة وبهائم وخيلا ، ثم عصفت الأزمة والوفاء للاخوان بكل شىء .. وقتها كان الحاج كريم شابا غضا يدور على صهوة فرسه كالأمير .. ما الناس الا حراس ما لا يملكون ، وغاية الحياة ما بعد الحياة ، عالم ضبابى مسحور رائق يشعل الوجد ، والحاج كريم يضىء مصباحه كل مساء للاخوان ويضىء المجلس بالكلام الطيب ... ما أسعد من فتح قلبه للمودة والصفاء ، وفدادينه القليلة كثيرة ببركة الله .

ويحكى أحمد بدوى عن ولديه الصغيرين ، لو كانا قد عاشا لبلغا الآن عمر عبد العزيز ، فى ذلك اليوم لم يكن وجه أحمد بدوى مبتسما ، كان غارقا فى الدموع ، ولم تكن قامته القصيرة مكينة كما هى دائما ، كان واهنا متهدما ، يسنده من الجانبين اثنان من الصحاب .

حينما يتذكر عبد العزيز هذه الايام يغرق فى الحزن والسكون أيام الوباء .. كانت أياما رهيبة .. جاء العم الشاب الى الحاج كريم ..

ـ الموت بيعدى على السطوح من دار لدار يا حج كريم .. عاوزين نحمل عيالنا وحالنا ونطير ..

اشقاء الحاج كريم وعياله مرعوبين ينظرون اليه .. وهو لايتخلى أبدا عن جلبابه الكشميرى الكبير ولا عن عمامته ، يجوب الدور يمسح القىء والبراز بكفيه ، ويحمل فرائس الوباء على كتفه الى العربات ، والناس مجفلون متباعدون خوف العدوى ، والعربات تحمل المصابين وتطلق زمارتها مبارحة القرية بناس لا يعودون ، موتى بلا مقابر ، يلقى بهم فى حفر تردم بالجير الحى .

وكان صباح العيد الكبير حزينا ، الشمس ذهبية والشوارع مكنوسة ومرشوشة والقرية يلفها الخوف والسكون ، وجاء احمد بدوى وفى يديه ولداه الصغيران اربعة اقدام صغيرة بيضاء، فى شباشب جديدة حمراء ، وفى المساء ماتا .. يا لله .

يحكى أحمد بدوى عن ولديه .. ويحكى محمد كامل عن امرأته «صديقة» الطويلة السمراء الواسعة العينين ، تمشى كسيرة مثقلة بالذنب ، لم يأت الى الدوار شيخ أو مجذوب الا وسأله محمد كامل ، والا أوصاه الشيخ بدعاء يقوله اذا أتى امرأته ، ويحكى محمد كامل ـ ذليل الصوت ـ انه لم يغفل الدعاء أبدا ، فى المساء فى ظلام الغرفة حينما يأتى صديقه وجهه الأسمر القاتم ووجنتيه الذابلتين ينكس رأسه .. ربما .. كل شىء بميقات .

فى كل قلب همه الفريد ، لكن القلوب قد يسيطر عليها لون من الميل الرقيق ، حينئذ يعذب صوت أحمد بدوى وهو يحكى عن تلك التى أحبها ، وعرفت حبهما أشجار الجميز على الترعة الطويلة .. لكن أباها زوجها فى قرية بعيدة .. سكت مقهورا ولكنها قالت له أن تزوج فاطمة واستوص بها خيرا ، هو الآن يحب امرأته البيضاء ذات الشال الكحلى ، يحبها فهى طيبة مطاوعة ، ويذكر

صاحبته بالخير .. لـكن مابال القلوب تعصى أحيـــانا ـ كالحمر النكدة ـ وتأبى ان تنقاد فى طريق الوقار والـكلم الصـــالح ، وتتشوق للهذر والكلام الفاضح، فتميل الدفة ناحية العايق ،حينئذ تبتسم شفتاه عن أسنان أهلـكتها الـكيوف ، وعيناه اللتان ربما أضر بهما الدخان المتصاعد من الجوزة ، تلتهب الجلسة بالضـحك وراء حكاية عن زوجته اللصة روايح وعشيقته الجازية ليسـت حراما معاشرته للجازية فلقد وهبت نفسها له ـ على خليل يشحب من مهاترات العايق ـ لكن الجازية وهبته على أى حال ـ كنزا من اللحم الأبيض والعيون المـكحولة ، يوازى كنزا وهبته له روايح من كل شىء يمكن أن يسرق وينقل ، تدور الجازية وراءه فى الموالد ، فى دهليز ضيق مظلم ، ضبطهما الحاج كريم فزعق فيه فهب من فوقها مذعورا يعدل عمامته ، ونظر اليه الحاج كريم وهو يتميز غيظـــا :

ـ سايب الناس وداير تلعب يابن الـكلب .

وسوى العايق ثيابه ملهوجا :

ـ حاضر يا عم ..

وانطلق يقدم للناس الطعام والقهوة ، ويبادر الى ما يحتاج الى اصلاح من كلوبات .. يحكى العايق ، ويطرق الحاج كريم تعففا ، ويكتم ضحكه فيهزه الضحك المـكتوم هزا ، ويتقافز الولد عبـد العزيز فى مكانه من السرور .

العايق ليست له أرض فيما عدا قيراطين على حافة السكة ، يرتدى جلبابا ناصعا مثل الباشا ويضع على رأسه شمسية غالية ويذهب كل عصر ليتفقد «الأرض» والقرية كلها تضحك ، وهـو ليس فلاحا ، انما هو فراش يضىء الـكلوبات فى المآتم والأفراح ، وامرأته تسرق له كل شىء ، يأكل كل يوم لحمـا ودجاجا وبطـا

مسروقا ، ويتمطر ويلبس أفخر الثياب ولا يأبه لأحد ، يمتلىء قلب عبد العزيز ضحكا وهو يتذكر العايق واقفا وسط المآتم نحيفا دقيق الحجم يرتدى قفطانا لامعا من الشاهى وفى يده ابريق القهوة - لايسميه ابريقا - بل يقول عليه « سلاحا » يرفع يده الى أعلى بالسلاح ويده الأخرى ممدودة بالفنجال وينزل سيل القهوة قاطعا هذه المسافة الطويلة لكنه لا يخطىء أبدا طريقه الى الفنجال .. وبكل أنفة وكبرياء يمد يده للناس واحدا وراء الآخر بالقهوة من شرب شرب ، ومن رفض بايماءة من رأسه تجاوزه بحركة رشيقة من يده ، يطير بها الفنجال الى الشخص التالى دون ان تنسكب منه قطرة واحدة .. هكذا هو يمشى وسط أكبر المآتم منتشيا كالديك ومتجهما ينظر الى الكلوبات كأنه شاويش الداورية الذى يمر على الخفراء الساهرين .

الولد عبد العزيز ، يحب العايق ونكاته وسخرياته بالشركس وفرهود الناس يقولون عليه كلاما كثيرا فامرأته لصة وهو يأكل ويلبس من الحرام ، الكلام يصك قلب عبد العزيز حينما يأتى على خليل الى الحاج كريم .. على خليل لا يتكلم الا قليلا ، ويعرف الناس العناء على وجهه قبل ان ينطق ينكس رأسه وتزداد أكتافه هزالا ، يحل الصمت وتنصرف الى ناحيته كل العيون وتربت عليه عيون الحاج كريم بحنان :

- يا عم الحاج .. العايق كل عيشته حرام .

- يا على .. بيعوص ايده جاز وينور لنا لمبة فى فرحنا وميتمنا ..

- عيشته حرام ..

- ربنا سايعه فى ملكه .. وفى طريقه .. ما اقدرش اطرده .

لـكن على خليل يلح :

ـ عيشته حرام فى حرام ..

ويكتسب وجهه صفرة خوف يعرفها عبد العزيز فى وجه على خليل حينما يجلس مستمعا الى الواعظ ، ذلك العملاق الهـائل الذى يقف وسط جمع الفلاحين يصرخ بأعلى صـوته ويقول اشياء مرعبة عن نار الجحيم وعن الكاذبين والسـارقين والزانين .. صفرة وجه على خليل وهو يتكلم تخيف عبد العزيز فلم يحب هذا الواعظ أبدا ، ربما أحب حمارته أكثر ، تلك الحمارة الدقيقةالحجم البيضاء ، كان عبد العزيز يظنها طفلة فى الحمير لـكنه عرف انها عجوز وهكذا ، ومع ذلك ظل يكره أن يرى جرم الواعظ الهـائل يثقلها حتى ليكاد يكسر ظهرها .. يأمره ابوه فيقتادها رفيقا بهـا الى الزريبة هناك تقف ساكنة تتنهد الى جوار حمارتهم الضخمة السمراء ويتصور عبد العزيز ان الحمارتين ستغرقان فى حديث ودود بعد خروجه .

يظل الحاج كريم يحاور على خليل حتى يذهب خوفه ، ويعيد البهجة الواهنة الى وجهه ، ويفرح عبد العزيز بدفاع الحاج كريم عن محمد العايق .. ذلك الرجل الأبيض الدقيق الجرم الطـفلى الحجم كحمارة الواعظ تماما .. كم يمتلىء قلبه اشفاقا عليهمـا الحمارة النحيلة والعايق الخطاء ..

وقد يطير العبث بكل وقار فيقف العراقى الأطرش وسط الحلبة بلحيته وعمامته ومسبحته الخشبية الـكبيرة الحبات ويحكى ..

... كيف يحكى العراقى الأطرش ..؟ لغة خاصة به ، كلمات مهمشة تكمل معانيها حركات قردية بيديه وجسده ، وتلعيب لملامح وجهه ، وصيحات وهمسـات وقيام وقعود .

لـكن ياالله .. لقد كان العراقى الأطرش ذئبا يلبد طول النهار

فوق جميزتهم على رأس الحقل لا يكلم أحدا ، حائر العينين مكشرا منفردا ، لا علاقة له الا بأمه العجوز السوداء المكرمشة الوجه ، ثم سقط مريضا ، وجلس القرفصاء على ظهر الفرن فى الغرفة المظلمة في قاع الدار، لاتبرئه أحجبة الكاتبين ولا وصفات العارفين، الى أن هبط القرية شيخ سبقته شهرة عريضة فى معالجة الأرواح التى تعمر الأجساد وجاءت به الأم الى ابنها ، ومكث الشيخ فىالدار شهورا ، قال ان العراقى قد عمل له عملا عويصا مكتوبا على ذرات الردة ، وان الردة التى كتب عليها قد نثرت على أركان الدنيا الاربع، وانه لا سبيل الى افساد هذا العمل الا اذا جمعت الردة المشئومة وأحرقت، وان ذلك عمل شاق سوف يقوم به أعوان الشيخ وخدامه من الجن الصالحين .. وفى كل صباح كان يأتى بقليل من الردة ليقول هذا جمع من العراق ، هذا جمع من الحجاز ، والأيام تمر ، وهو جالس متربعا على ظهر الفرن لا يفطر الا بالفطير والعسل ، ولا يتغذى الا باللحم والطبيخ ، وفى كل آن يطلق بخورا ويكتب أوراقا تكلف مبالغ كبيرة ، وعلم الحاج كريم بالأمر ، فأخذ عباءته وعصاه ــ وعلى جانبيه اثنان من الاخوان ــ وقصد دار العراقى الاطرش ، قلب الشيخ بخوره وكسر آنيته وضربه وطرده من البلد والعراقى ينظر مذهولا ثم يضحك أخيرا ويأخذ الحاج كريم الى الدوار .. ثم الى الطريق ..

ليلتها جلس على الحصير مع المرتلين لا يدرى ماذا يدور حوله ثم بدأ يغمض عينيه ويحرك رأسه يمينا ويسارا مقلدا الدراويش على غير ايقاع وهو يهينم بأصوات غريبة .

ليلتها ضحك عبد العزيز من قلبه على العراقى ، لكن العراقى أصبح شيئا آخر يتكلم ، هى كلمات مهشمة لكنها تفيد بعض المعنى ، وأصبح يعمل فى مشتل مصلحة البساتين ، واشترى دراجة وهام بهذه الدراجة حبا ، يزينها ، ويربط فيها الشرائط والأوراق

الحمراء والخضراء ، واذا تلف فيها شيء حزن وجاء للحاج كريم :

ــ الأكله عيانه يابا ..

فهو يدعو الحاج كريم أباه ، يحبه ويجلس بين يديه ضاحكا يكاد يطير فرحا ، وهام بالاخوان والطريق حبا ، بل انه أطلق لحيته واشترى لنفسه عمامة حمراء ، وحزاما أحمر يدور حول خاصرته ويقسم عرض صدره من اليمين الى اليسار ومكتوب عليه بالنسيج الأخضر « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهو يهيم بالشموع والبيارق والرايات يشترى منها مايستطيع ، وفى صباح العيد يزين المسجد ، وفى غبشة الصباح المبكر ترى المسجد غارقا فى ضوء الشموع ، فى كل مكان مناديل ملونة ورايات ، والعراقى يكاد يجن سرورا ، طائرا فى صحن الجامع ، يقبل الناس ، ويصيح مناديا المدد على السلطان .

يقف العراقى وسط الحلبة يحكى حكاية يومه فى العمل بطريقته الخاصة يقلد كل الناس ، يضحك الاخوان على المفتش ، وعلى كل من صادفه ، واغاظه أو سره .

وهكذا ، فى كل مساء أمسية يطفأ بعدها المصباح ويعود الناس الى الدور .. لكن الليلة ليست كغيرها من الليالى ، انها ليلة جمعة ، وليلتا الجمعة والاثنين من الأسبوع ليلتان مباركتان تقرأ فيهما دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وتكون حضرة مباركة .

فبعد أن يجتمع شمل الاخوان يتركون الشرفة الى الصالة الكبيرة حيث الفانوس الكبير وحيث الدكتان الهائلتان متقابلتان الى جوار الحائطين ، يجلس الحاج كريم فى مكانه من الدكة ، ويبتسم لأحد الجالسين :

ــ افرش الحصر يا بنى ..

ــ حاضر يا عم الحاج .

وتفرش الحصر البيضاء الناصعة على أرض الصالة المبلطة .. شمعية البياض هذه الحصر ، تقسم صفاءها أحجبـــة ومربعات ملونة بالأحمر والأخضر ، حصر جميلة صنعها الرجل الصالح سيد من محلة منوف .. كسير العينين لا يكاد يرى ، كسير الصوت ، لا يكاد همسه يسمع لـكن بيديه خشونة وصلابة غريبـــة كأنهما اظلاف ، ربمـــا ذلك من كثرة ما تد كان السـمار على الخيطان فى مهنة الحصـير ..

اذا ما أعجبته تحفة من الحصير ، مصلى أو مفرش دكه طواها وحملها على خاصرته ــ على طريقة أهل مهنته ــ وجاء بهـا من قريته الى الحاج كريم ، طريق طويل ، يقطعه مارا بالناس والحقول والقرى ، تؤنسه التراتيل والتسابيح ، يقرء الناس السلام حتى العيال الذين يلعبون بالتراب .. وحينما يصل ويضع حمله يجلس صغيرا ساكنا كحمامة لايصدر منه الا صوت حسوات القهوة من الفنجان المزركش الـكبير .. ثم ينهض منصرفا .. ويعتـــرض الحاج كريم :

ــ ريقنا ما اتبل من لقاك يا شيخ سيد .

ــ ارادة ربنا ..

ــ لقمـــه .. !

ــ ماقيش نصيب ..

ويحزن الولد عبد العزيز لأن هذا الضيف الرقيق لن يشارك أباه طعامه ، وحينما يصافح يتساءل الولد .. ترى هـل تـكمن ارادة الله فى صلابة هذه اليد الغريبة ..؟

فرشت الحصر التى صنعها الرجل الصالح سيد من محـلة منوف على أرض الصالة المبلطة ، وشقتها من منتصفها تماما ارائك صغيرة واطئة وضعت عليها مصابيح الـكيروسين الصغيرة وشموع العراقي ، وأوان صغيرة فيها جمرات متقدة نثر عليهـا البخور ،

فانطلقت سحائبه وعطره واصطف الدراويش جالسين فى صفين الى هذه الأرائك الصغيرة الواطئة وفى كل حين يفتح باب الدوار ويدلف ريفى يقرىء السلام ويتلفت محاذرا ثم يخلع نعله ويجلس حيث انتهى به الصف ، حتى اذا ما آن الأوان جيء بالصندوق الكبير من الغرفة الداخلية ، ذلك الصندوق الذى تحفظ به نسخ دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وكذلك الوسيلة .. وثمة فى ذلك الصندوق أيضا كتب أخرى مهولة ..

يرقبه عبد العزيز محمولا على كتف احد الدراويش حتى يستقر على الحصير عند راس الصف من الجالسين .. يا له .. قد ينصرف الناس الى كد اليوم فى الحقول ، وتصبح الشوارع ساكنة قليلة العابرين ، ويثقل الفراغ قلبه .. فيتسلل الى الغرفة الداخلية حيث ذلك الصندوق الكبير يجذب غطاءه فينزلق كاشفا عن أكداس من الكتب صفراء الأوراق منمنمة الكتابة ، يتجاسر وهو خائف مرتعب ، ويخرج من الصندوق كتابا يبسطه أمام عينيه ويتأمل تلك النمنمات المرصوصة فى دأب لا يكل ملء صفحات وصفحات ، يتأمل هذه الكتابة ولا يفلح فى استكناه سرها ، انه يذهب الى المدرسة وله كتبه ، صغيرة مرحة كبيرة الكلمات تحكى حكايات لطيفة عن أولاد نظيفى الثياب وبنات صغيرات ذوات ضفائر وشرائط ، لكن هذه الكتابة الغريبة هى همه الكبير ، لا تبوح له الا بالنذر اليسير من حرف أو كلمة لا تكون معنى .. كيف اذن تتحول هذه الصحائف الصفراء الى سحر يحلق فى سماء مجلس الاخوان ، حينما يجلس الحاج كريم متربعا فى مكانه من الأريكة خابطا بكفه باطن قدمه اليسرى الراقد على فخذه اليمنى ..

ـ المصابيح يا شيخ أحمد يا بدوى .. نور المجلس بمناقب الصالحين ..

ويؤتى لأحمد بدوى بكتاب مناقب الصالحين ويقرأ مـــرتلا مترنما ، تتفجر الصور الضبابية ، وتتحرك فىأربع أركان المعمورة رجال ليسوا كالرجال ، تدق المسامير فى الأطراف ، وتجلدالظهور بالسياط ، لكن شيئا غريبا يظل بعيدا عن العذاب لا يدمى .. وحينما تدمع عيون الحاج كريم ، فان قلب عبد العـــزيز ينفطر فى محاولة لاصطياد السر الخرافى .. الخبز الأسمر الخشن، والملح الأجاج ، والماء العكر ، والأثمال البالية وعيون كالطيور الغـريبة لاتحط على مكان .. رجال ليسوا كالرجـــال ، ليست الســيقان كالسيقان ، انما هى مؤشرات تطوى تحتها المســـافات الشاسعة كالبسط ، وليست الأيدى كالأيدى ، انما هى مؤشرات لتقـدير المـقادير ..

يتجاسر عبد العزيز على الصندوق ويستخرج من جوفه مزيدا يتأمل أغلفته ، فان بعضها يحمل رسوما يعـــرف منها محتـوى المجلدات ..

تلك بلا شك هى سيرة الهلالية ، وذلك الرسم على الغلاف هو الحسن بن الربيع وأبا زيد ودياب بن غانم فى مجلس العـــرب ، لكم أحب عبد العزيز الحسن بن الربيع ، كان رجلا حكيما رصينا حزينا يستشف النـكبات فى طيات الأيام الآتيـــات ، واذ يترنم أحمد بدوى بشعر حكمته في المجلس تميل الرؤوس طربا وتأسى..

لـكن مريم الصناع تثير فيه شجنا غريبا تلك المسيحية الدائبة على اشغال الابرة ، تمخر بها السفن العباب وتباع فى الأســواق وتدخل السعد على مشتريها بصناعة يدها وأشغال ابرتها ..

وذلك القرد الذى يتحول كل آن الى أمير وسيم ، يا للضحك لقد كبر عبد العزيز بعد ذلك وذهب الى المدرسة وتعلم كيف يقرأ .. ثم مد يده وتناول الـكتاب وطالع كأنما هو فى الفصل لـكن أباه الحاج كريم نهاه !

ـ ما هكذا يقرأ الشعر يا بنى ، انما يرتل ترتيلا ! ..

كل الكلام فى الصحائف الصفراء عندهم شعرا ، وكل القراءة انما هى ترتيل وغناء .

ذلك هو حق السرور والأحزان .. الصندوق الكبير ..

وزعت نسخ دلائل الخيرات على الدراويش ..

كل من جلس على الحصير الأبيض الى الدكة الصغيرة درويش.

وحل نوع من الصمت الا مصمصات شفاه أو تسليك حناجر وصفق الحاج كريم بيده ..

ـ استبدأ يا شيخ محمد يا كامل ..

فهو أكبر الدراويش سنا وأكملهم وقارا ، فارس الذكر فى الليالى ، استبدأ بصوته العميق وخلفه جوقة الدراويش والترتيل ينساب هادئا رتيبا والصلوات على النبى تترى عدد حبات الرمال وعدد موج البحار ، وعدد ماكتبت الأقلام ، وعدد ما لم تكتب الأقلام ، وحرارة الأصوات تزداد دفئا وقوة .. حتى تنتهى دلائل الخيرات وقد تركت الدراويش أكثر رغبة فى تلاوة التراتيل .. ويصفق الحاج كريم ويميل من الرضى ..

ـ استبدأ ببردة الأباصيرى ياشيخ أحمد يابدوى ..

أحمد بدوى ، الشاب الذكى ، الجميل الصوت ، قارىء الكتب للاخوان فى المجالس هو الذى يليق لقيادة جوقة الدراويش فى تلاوة شعر الأباصيرى ، فالبردة حافلة بالغناء ، وصوته حافل بالألوان وهو القادر على أن يقود القراءة الى ذرى الانفعال .

ـ مدد ياسيدى يا أباصيرى ..

عيناه عالقتان بأشعة شاحبة هائمة فى سماء الردهة الكبيرة

ـ الوسيلة يا شيخ احمد .. الوسيلة يا ابنى ..

روح مشتاقة لا دواء لها الا التراتيل ، تحمل على أجنحة الأصوات المبروكة الى سماوات الرواء ويجاوب قلب كوته النار .

ـ اللهم انفعنا بهم ..

ثم يبدأ أحمد بدوى فى قيادة الدراويش يقرأون الوسيلة ، كم يحب عبد العزيز الوسيلة وكم يحب ان ينصب مشدوها الى أبيه الحاج :

ـ لما ينام اللى قلوبهم فارغه .. يفضل الكرام صاحيين .. يتقربو لله بذكر أوليائه ..

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، نفس الله فى خلقه ، بضعة من رسول الله انحدروا من صلبه عن فاطمة عبر الأجيال ؛ قلة هم لكنهم أقرب خلق الله الى الله ، يتميزون بالعمائم الخضراء بين الناس كم يحبهم الحاج كريم وكان أبوه كذلك يحبهم حتى لقد تزوج واحدة منهم من الشرقية وحينما ماتت طار نعشها يكاد يقتلع أكتاف الحاملين تريد أن تدفن فى جوار آلها الصالحين لكن الجد الكبير وقف بجوار النعش يبكى ويتوسل لها أن تبقى .. وما استقر النعش الا بعد أن وعد ببناء مقام له قبة وهلال لاتزال ترى قائمة فى مقبرة القرية الى اليوم ومن يومها والجد الكبير يتخذ الشيخ والد زوجته شيخا له وهو له درويش ومريد ، وبعد الجد اتخذ الحاج كريم ابن الشيخ الكبير شيخا له وهو درويش ومريد ..

أبيات الوسيلة تعدد الأولياء وكراماتهم وصوت جوقة الدراويش مليء بالرجاء والمذلة وهو يتوسل الى الله بالأولياء .. وعبد العزيز يترقب البيت الذى يجيء فيه اسم شيخهم الحالى :

بمحمد بن الفضـــــل معروف السنا
ليث الأفاضل والأماجد والنــــــدا
يا رب نور قلبـــــه وطريقـــــه
واجعـــله فى يوم المعـاد لنـا يـدا

يخفق قلب عبد العزيز اذ يتذكر الشيخ ، ويتذكر وسامته ، وصفاء ملامحه ووقاره وسكونه ..

واذ ينتهى أحمد بدوى من القراءة تبقى راسه منكسة وحبات عرق دقيقة تلمع فى أعلى جبينه والحاج كريم يهز رأســـه على الايقاع السابق كأنما دوى القراءة لايزال فى أذنيه .. يحل صمت طويل لا تأمه الا مسح الجباه بذيول الجلاليب حتى يؤذن صفق الحاج كريم بكفيه ..

ــ الفواتيح يا شيخ محمد يا كامل ..

احتفال مهيب تختتم به كل حضرة يقوده محمد كامل مغمض العينين يجلجل صوته مشيرا ومقترحا ..

ــ الأربعة الأقطاب .. والأربعة الأنجاب .. والاربعة خلفات النبى لهم منا الفاتحة ..

وبعده تنطلق الهمسات من الجالسين تقرأ الفاتحة فى ابهام وغموض ..

ــ الفاتحة لأهل السماح ..

ــ الفـــاتحه ..

ــ الفـــاتحه ..

ــ الفاتحه لاخوان الطريق ، الحاضر منهم والغائب لهم منــــا الفاتحه ..

ومن بعض الجوانب يأتى صوت متردد خجول :

ــ الفاتحه يا اخوانا لفلان ربنا يزيح غمته ..

ربما هو أخ مريض أو مكروب يلزم داره أو هو مسافر لقضاء حاجة ، يغمض محمد كامل عينيه ويصيغ الطلب ويأمر بالفاتحة .

ثم الموتى ... اخوان كانوا زهرات هذه الليـــالى ، ثم طواهم الموت فى القبور ، ولكن ذاكرة الدراويش لاتنساهم .. يقتـــرح محمد كامل الفـــاتحة لكل منهم ، هم دار الدوام ونحن فى دار الزوال .. ما أسعدهم ، ختم الله حياتهم ختاما صالحا واختارهم لجـــواره ..

المقبرة فى ذهن كل اخوان الطريق ، دار البقـــــاء الســـمراء الشواهد ، شواهد طينية تتابع صامتة .. فى صباح العيد حينما يجلجل صوت المبلغ رائعا يتردد صداه فى المسجد الجامع :

.. فاذا ما ارتقى الخطيب المنبر ..

وسبح لله وهلل وكبر ..

فالواجب على أهل المحضر ..

أن ينصتو للــكلام ..

وينصتون حتى ينتهى الخطيب وينزل سلالم المنبر صغـــيرا شاحبا مباركا وتنتهى صلاة العيد ، ويخرج الحاج كريم فى أبهى زينته ، وخلفه الاخوان وجموع أهل القرية صامتين لا ينبســـون ، ماضين نحو المقابر لا يصافحون أحدا ولا يتكلمون ، لا سلام ولا كلام قبل تحية الراحلين ، فاذا كان الحاج كريم بازاء المقابر وخلفـــه الناس وقف جليلا ..

ــ السلام عليكم ورحمة الله دار قوم مؤمنين .. أنتم السابقون ونحن اللاحقـــون ..

وحينما يهل الحاج كريم ووراءه جموع الناس على المقابر ، تتسلل النساء عائدات ، هن الحزانى ثواكل الأولاد والبعول ، بتن ليلة العيد كل واحدة أمام شاهد قبر ابنها أو بعلها النائم في التراب ـ تؤانسه في الليلة المباركة ، اما النساء السعيدات ، فقد امضين الليلة في القرية بين العيال أو في حضن الزوج .

يتفرق الرجال في طرقات المقبرة بين الشواهد يحيون الموتى ويدعون لهم فان دعاء الحى للميت ينير قبره ويوسعه عليه يحيون ويضعون الجريد الأخضر على القبور ويسقون الصبار . وفي الآخر يجتمعون جميعا في مقام زوجة الجد محمد ، وهناك يقيمون حضرة صباحية ثم يهبون ثوابها للموتى .

وبعد أن تتم تحية الموتى على هذا النحو يصبحون في حل من السلام على بعضهم والكلام والتبريك بالعيد ..

هكذا قرئت الفواتح للقريب والبعيد للميت والحى ثم جلجل صوت محمد كامل ..

ـ الخاتمة للنبى .

وقرئت هذه الفاتحة بالذات بصوت قوى جهورى احتراما وتبجيلا وبنهايتها انتهت الحضرة وتحرر الدراويش من سمت الجد الذى اتخذوه للقراءة وبدوا يستريحون في جلستهم ويثرثرون وصفقت أحقاق المضغ على الأكف ولفت السجائر وطارت سحب الدخان ودارت العيون بحثا عن النعال ..

وهكذا في كل مساء من ليلتى الاثنين والجمعة حضرة مباركة تقرأ فيها دلائل الخيرات ثم بردة الأباصيرة ثم الوسيلة ثم الفواتح في الختام ..

لكن هذه الليلة ليست ككل الليالى .. ذلك انه ذات عصر كان الحاج كريم جالسا يشرب القهوة في شرفة الدوار .. اذ أقبل

عليه سليم الشركسى النجار لابسا جلبابه الحريرى ولبدته البيضاء وحذاءه البرتقالى الطويل الرقبة وعلى وجهه بقايا من غبار الطريق ومسحة سرور تعرف على وجوه الآيبين من الأسفار ..

ان سليم الشركسى ليس نجار سواقى أو نوارج انما مهنته صناعة مصاريع الأبواب والشبابيك وأيدى السكاكين ومزاليج الأبواب ، ولذلك فعدته لامعة صقيلة ولباسه مهندم ومزاجه عصبى حاد .. وفيه الى جانب ذلك شيء يخيف ، ربما فى ومضات عيونه ، أو فيما يقال عن جد الشراكسة الكبير من انه كان فاسد الدماغ يدمن المنزول ويأتى بغرائب التصرفات وعجيب الأقوال ، وربما شيء من ريح هذا الجد يتفرع فى عروق الأبناء ووالحفدة اثر لاتستطيع امساكه لكنك تحسه وتخافه ..

وامراة سليم الشركسى النجار فارعة بيضاء ولدت له ستا من البنات وشوق الرجل لولد من صلبه زاد طبعه عصبية وحالطت صوته نغمة قانطة وشده الطريق اليه .. وجابته امراة النجار ولدا أسموه شحاتا ، فكلنا شحاتين وان هى الا لقيمات ومتاع الدنيا قليل .

صعد الرجل الدرجات ، على وجهه غبار الطريق ومسحة السرور والحاج كريم عمره ما انتظر أن يقرأ السلام ، انما يبادر مرحبا بالقادمين ..

— مرحبتين يا شركسى .

— وسلامين ياعم الحاج ، واحد من عندى وواحد من عند الحبايب .

وينغم الحاج كريم السرور الطائر حول اللقاء بخبطات كفه على باطن قدمه ..

— هيه .. هيه .. هيه

يستعجل الحكاية والشركسى يلم جلبابه الحريرى بحذر ناصع هفهاف يلبسه شتاءا وصيفا منذ ما يعى عبد العزيز يلبسه فى الاسفار والأعياد واحتفالات الاخوان يخرج حق مدغته لا ينكش الدخان فى الحق بقشه من الأرض كسائر الناس بل بمسمار جديد مستقيم مدبب يعزم على الحاج كريم .

ـ قريت لك الفاتحه فى السلطان .

ـ مدد ياسيدى يا سيد .

بخشوع نبرة تصك القلب

ـ وملت على الشيخ على .. الفرح امتى .. قاللى الليلة الكبيرة مثل النهاردة ..

وهلل الحاج كريم كانما رأى الهلال أول الشهر العربى ..

ـ مدد ياسيدى ياسيد مدد .. ناديت علينا يابو فراج وآد احنا جايين ..

بدأت الأنفاس المبروكة تسرب فى البلد وتوقظ القلوب .. صدر عبد العزيز ضائق بقلب كالعصفور ، السيد البدوى ينادى أولاده أو هم فى أسفارهم يدورون يدبون على البلاط المبلول فى المسجد الكبير ويسألون الخدم متى الفرح الكبير .. ؟ وتترى الأيام ثم ينتشر الخبر فى الجرائد عند ذلك يكون الوعد اليقين ..

وفى هذا المساء كان العراقى الأطرش يصعد الدرجات الى الشرفة ملهوجا عجولا ، وقبل السلام يدفع جريدة مطوية الى يد الحاج كريم ويهتز كيان عبد العزيز ضحكا ، ويلكز احمد بدوى جنب العراقى .

ـ سلم الأول يابن الكلب

وعراقى الأطرش ينظر الى شفتى احمد بدوى ويعرف انه يشتمه فيقول بكلمات مهشمة ..

ـ بس متقولش يابن الكلب .

ويضحكون جميعا ويضحك العراقى معهم ، ثم يقفز جاريا الى الصالة ويستحضر كرسيا يجلس عليه بين يدى الحاج كريم وهو لايزال يضحك ، ويطوى الحاج كريم الجريدة ويضعها بجواره على الدكة ، وبتحريك شفتيه وحركات يديه يفهم العراقى أنه قرأ الخبر وعرف ما فيه عصرا ..

حيث كان يصب قهوته من الكنكة النحاسية الصفراء في الفنجان المزركش الكبير ، اذ طلع عليه الشيخ محمد الجمل كاتب الزراعة مرتديا جلبابه البوابلين الأفرنكى وطاقيته البفتة البيضاء ، وفي يده المسبحة الكهرمان تدور بين أصابعه بسرعة كبيرة جدا .. لم الولد عبد العزيز طرف ثوبه أدبا ، فان الشيخ محمد الجمل هو معلمه وعلى يديه لقن مبادىء القراءة والحساب ، وربما شىء فى عين كاتب الزراعة المطموسة بالبياض يخيف ، لقد كان الناس يتساءلون طويلا هل يستطيع الشيخ محمد الجمل أن يلاحق بالتسبيحات حركات حبات المسبحة الدائرة بين أصابعه بسرعة غريبة ، أم يختلط الكلام ويصبح لغوا لاينبع من القلب ..

والحاج كريم يقول :

ـ سر القلب عند الله .

لكن الناس بقوا يتساءلون وآثر الأب ضيفه بالفنجال الأول من قهوة العصر مليئا مختوما ، وفرد هذا جريدة كانت بيده مطوية ..

ـ يا عم الحاج .. أذن الله بمولد السلطان

وخبط بأصبعه على موضع الخبر من الصفحة

ـ اقرالى .. اقرالى .. كتابة الجونال بتزغلل عينى
.. (تقرر أن يكون الليلة الكبيرة ..) ..

وبعد أن فرغ أخذ الحاج كريم الجريدة وقربها من عينيه ، ثم أبعدها عنها لآخر ذراعه ، وقرأ لنفسه محركا شفتيه ، ثم ركن الجورنال بجانبه وصفق بيديه بعزم ..

ـ شئت ولبينا .. يا سلطان

ثم يترنم مسرورا

ياراحليين ليمه باياد

شوقتمو يوم الرحيل فؤادى

هكذا ينادى السيد البدوى أولاده، أما ساكن البرية فيما بعد القرين شرقية ، سيدى سليم أبو مسلم العــراقى ، الذى أتى من العراق الى أرض مصر الطيبة فى بيارقة ورجاله ، وأقام منفردا فى الخلاء، وكما كان مجلسه وسط الاخوان لايزال، ضريح واطىء منهدم الحيطان، وحوله بضعة قبور ، وتتناثر أكواخ ريفية هنا وهناك كأنما تقوم على خدمة المتسامرين .. وفى الآماد الشاسعة حوله تتنفس الرياح أنفاسها الطلقة الجبارة .. فاذا ما كان المولد زرع الخلاء ناسا وخياما وطبولا وخيولا ولحوم جديان وتاب السارقون والقتلة وتجاوبت الآفاق بالتراتيل ، ياالهذا السيد ويا لسيرته الغــريبة فى نداء أولاده ..

ـ فى مولد العراقى ييجى الراجل أبو جريدة .. مش كده . ؟
اسود كانه مصنوع من اطر الســيارات ، مفتول العضــل كأنه مهر ادهم مستوفز على خلفتيه ، يسير ، بل يهرول حافيا وفى يده جريدة طويلة ، فى طرفها قطعة من الورق مكتوب فيها موعد المولد ومختومة بختم شيخ السجادة ، يدور يجوب المديريات السبع مناديا على مولد العــراقى ..

ومع اسمرار البلح يترقبه عبد العزيز وذات ضحى ينشق عنه الشارع مارقا كالفيتون وقبالة الدوار يقف وينادى على المولد ثم يصعد الى الشرفة قافزا الدورجات ملبيا دعوة الحاج كريم ويقدم الطعام فيلتهمه بنهم يشرب اللبن الرائب من حافة الاناء ثم يهب واقفا ويستبقيه الحاج كريم ..

ـ استريح ياراجل شوية

ـ ماأقدرش ياعم الحاج .. فاضل اربع مديريات ..

ويختفى مع الطريق سالبا لب عبد العزيز ووجه الحاج كريم فائض بالرضى ..

ـ مدد يا سيدى سليم يا عراقى

ومدد يا بنت الحسين .. يانفيسة الدارين ..

كان عبد العزيز قميئا نحيلا تنام يده فى يد ابيه كعصفور أزغب يستريح فى كف طرية دفينة وهما أمام ضريح السيدة نفيسة ، ويمد عبد العزيز بصره من‌شبك النحاس عبر زجاج شفيف صقيل، ويبصر الشفوف تتدلى حول راس القبر ـ زينة عروس ليلة العرس ـ أحبها عبد العزيز وعرف عطرها الطيب .

ودائما يكون صبحا عذبا عندما يأتى ساعى البريد وينزل عن حماره قبالة الدوار ويسلم بأدب على الحاج كريم والخطاب دائما من عند حسن افندى الساكن فى شارع أمير الجيوش وزوجته البيضاء الطيبة وابنته الرضيعة الملىء جسدها بدمامل صغيرة يقفز قلب عبد العزيز ، ويدفع الحاج كريم المكتوب الى أحمد بدوى.

السلام عطر قلوب الاخوان والأوان آن البيت كبير ربع قديم الحب فراش الاحباب والوساد..وكلنا فى رحاب عروس الأولياء والحاج كريم يكاد يجهش بالبكاء .

ـ اللهم لا تبعدنا عن طريقك يا كريم

كيف يكون حال العالم من غير هذه المصابيح .. ؟

كان الحاج كريم متربعا على مكانه من الاريكه والدراويش صفان على الحصر البيضاء بازاء صف الارائك الصغيرة امام مصابيح الكيروسين واواني البخور وفي ايديهم نسخ دلائل الخيرات .

ـ ياولاد .. الجمعه الجايه نعمل الحضره في رحاب السلطان

ضحكت الوجوه الوضيئه بالسرور .. مدد ياسيدي ياسيد .. ومدد يابو فراج

صفقت احقان دخان المضغ على الاكف الايام القادمة واعده بالمباهج نضج الشوق تحت وطأة الظهيره في ايام العمل الشاق المتتابعة .. ياراحة الروح والقلب ياسلطان .

ـ المعاملة ناشفة أوي ياعم الحاج

أحمد بدوي أجرأ الدراويش على الحاج كريم .. يخبط يده بنسخة دلائل الخيرات ويفكر ... لقد أخفى خمسين قرشا في حق في الحائط لكن امرأته عثرت عليهم وأخذتهم .. ماذا يقول لامرأته المدللة ..

ـ تفرج يابني .. تفرّج

القلق الذي يرين كالسحب على الوجوه ويحلق على المجلس لا يبدده الا كلام الحاج كريم العميق المؤمن ..

ـ تفرج يابني .. تفرج

دائما (تفرج) تحزب الأزمات وتشتد تهرب النقود الى قيعان بعيدة، ولكن في الزمن المعلوم تشد الرحال الى المقاصد .. ويطرق الحاج كريم قليلا أطراقة تنشر الصمت وتخلق بين ـ الحاضرين التشوق للكلام ..

ـ والله .. وحق من أماته

الشيخ الكبير كانو عائدين من مولد سيدى ابراهيم الدسوقى قطارا تركوه وقطارا ينتظرونه فرش للشيخ على الرصيف فتمدد .

ـ ياحاج محمد

ـ نعم ياعمى

ـ عاوزين كازوزة

ـ عالحديدة .. يعلم الله ياعمى .. يادوب تذاكر الرجوع

ـ ياحاج محمد .. عاوزين كازوزة

ويشرب الشيخ الكازوزة

ـ ادفع ياحاج محمد

ـ منين ياعمى ..

ويغضب الشيخ ويثور ويطوح بالزجاجة الفارغة بعيدا فتطير كانما نبت لها جناحان تطير وتقع وتتقافز الى أن تستقر واقفة على قضيب القطار ، سليمة لا تضطرب ولا تميل يهلل الدراويش للكرامة ويتقاطر الناس وتنتشر الحكاية ويزيد الزحام وتتكدس قطع العملة الفضية على إفراش الشيخ المدد الناس ذوى الحاجات يقبلون يده ويطلبون الدعاء ..

ـ ادفع ثمن الكازوزة ياحج محمد

وقتها كان الحاج كريم غلاما صغيرا يتقافز هكذا فى رحاب الطريق .. لم ير عبد العزيز أشياء خارقة مثل هذه ، الشيخ الحالى شاب وسيم مبارك لكنه لايملك مثل هذه الكرامات العظيمة ليت عبد العزيز راى الشيوخ السالفين العظام مثل ما راى الحاج كريم وشاهد ، الشيخ الحالى سليل هؤلاء الأقطاب لكن الناس

تقسو قلوبها مع الزمان وينقص الله البركة من الوجود كـل أن بمقدار .. لا ملاذ سوى الطريق .. خير كله خير .. احمل خرجك وعصاك وخباءك واقصد السلطان فهكذا فعل الرجل الصـــالح ودرويشه وفي الرحاب دق العصا ونشر الخباء وأوقد النار ونصب الاناء وقال له الدرويش ..

ـ ياعمى .. العدس قليل والآكلون كثير

ويقول الرجل الصالح :

ـ ياولدى اذا كان السلطان قد ارسل لنا اولاده ولم يرسل لنا عدسا فائرد لهم فى الماء ..

ويزيد الدرويش الماء الى الاناء دون عدس فيكون ثريدا ماكان أشهى منه فكيف اذن يترك المريد الباب ليتسكع بالحيطان (المعاملة ناشفة) حقا لكنها سوف (تفرج) ..

سوف يرسله أبوه لينادى المتولى ساروخ ويأتى الرجل ليجلس على الدكة بجوار الحاج كريم نحيلا خشنا متحفظا جهما قليـــلا وقلب عبد العزيز واجف .. اشفاقا ..

ـ عاوزين ارشين يا سار[illegible] .

ـ حاضر يا عم الحاج .. على عينى .

ويأتى كاتب البلد طويل طرى العود واليدين ابخر ذو منظار يتدلى على انفه .. رجل غريب يظل ، يجوس الدور يدخل ويخرج ، يجلس متربعا ساندا أوراقه على ركبته ويكتب مضيقا بين جفنيه ، يكتب فتنتقل الأرض والبهائم بين الناس والناس ينظرون اليه .. أين كان .. اين هو ذاهب .. من باع من اشـــترى .. وشرخة الأرض الرفيعة ملك الساروخ بجوار ملك الحاج كريم تزداد عرضا كل عام على حساب أرض الحاج كريم ..

القلق الذى يتكور بـد العزيز لا تذيبه الا كلمات ابيه العميقة المؤمنة وثمالا الطلية ..

ـ مالناش فى نفسنا .. احنا حراس ..

وكل ما فى الدور للاقطاب ، الأم والفصيل وما تقع عليه عيونهم يذبح دون تأخير ، فاذا ما أصاب درويش خبرا جاء يزف البشرى الى الحاج كريم .

ـ يا عم الحاج .

يقف الرجل خجولا فرحا بين يدى الحاج كريم .

ـ الجاموسة ولدت .

ـ مبروك عليك يابنى .

كم يفرح الحاج كريم بالخير للاخوان .

ـ كفاية على اللبن .. العجل لأهل الله .

ـ الله يخلف عليك يابنى .

وتكون ليلة رائعة فى دار ذلك الدرويش ، لكن هذا انما يكون فى زورة الشيخ السنوية للبلد ، ليال مباركة ليس أبهى منها أبدا ..

يخرج الاخوان جميعا لاستقبال الشيخ على المحطة ، ويعودون على الطريق موكبا جليلا ، الاخوان وضيوفهم الأعزاء من الترقبة الشيخ فى المقدمة ومعه الحاج كريم ، رجلان جمعهما النسب والطريق ، ووراء الرجلين يمشى الموكب ، كل رجل من الاخوان يرحب بأحب الضيوف الى قلبه وأثرهم عنده ، المستكاوى يكركع بالضحك مع العايق، وعلى خليل ينصب بكليته الى حسن أفندى، والشيخ عباس انفرد بالشركسى النجار ، وصانع القهوة يبتسم مسلما قباده لمحمد كامل ، وصانع الرقى زائغ العينين لا يكف عن التسبيح ، الطريق مفروش بأحاديث الترحيب والمودة ..

ليال مباركة ليس أبهى منها أبدا ، كل لياله بدعى الشيخ ورهطه الى دار من دور الاخوان والمريدين تذبح النذور ويقدم الطعام وتقام الحضرة والأذكار ويكون سرور ترتج منه الحيطان .. لكن ليس أبهى من الليلة التى تقام في دار على خليل أبدا ، يالها دار على خليل، ما أحبها الى قلب عبد العزيز ما تكاد تخطو من العتبة منحدرا الى وسط الدار حتى تجد السلم الطينى يدعوك صاعدا بك الى السطوح ، تندفع تجاه السلم لا تبالى بفتحة كهفية جنب الباب ، ربما هى غرفة المعاش أو بها الفرن وموئل العيال في ليالى الشتاء ، ربما ، لم يدخلها عبد العزيز أبدا ، وانما يندفع منها عيال على خليل المعلولين وامرأته الطويلة الفتيـــة المتوردة الوجه كشرخة أرض خصبة ..

مشى موكب الشيخ الى دار على خليل وثمة أمام باب الدار باحة صغيرة تحيط بها الدور الواطئة دور قميئة ليست شامخة كتلك التى تقع على الشارع الكبير ، دور قميئة يصعد العيـال والنساء من قيعانها الى الشارع ليروا موكب الشيخ القادم نحو دار على خليل ..

ويصـعد الشـيخ وورواءه الاخوان على السلم الطينى الى السطوح ، مكان لطيف فرش بالحصر البيض وتطريه ريح بحرية، وفى الشباك صينية النحاس فيها قلل جديدة مغطاة بأغطية من البلاستيك حمراء وخضراء وليمونية أحضرها معه من طنطا .. ما أنق على خليل والطف حاجياته .. وفى كل آن يصعد رجل أو امرأة السلم يحمل طفله الصغير ويأخذه منه على خليل ويذهب به الى الشيخ .. دار على خليل فى حارة فقـيرة ، يحبونه ، كان هو الآخر فقيرا ثم فتح الله عليه لا يستطيعون اقامة الليالى ودعوة الشيخ ..

فاذا ما حل بدار على خليل اتوا بالعيال طالبين البركة يأخذ على خليل العيال الى الشيخ يمسح رؤوسهم ويتفل فى أفواههم ، وفى الفرفة يعكف كاتب التعاويذ والتمائم على كتابة الرقى والأحجبة للنساء العواقر واللاتى يموت أطفالهن ، زيارة الشيخ لدار على خليل عيد للحارة كلها ، وهو واقف يجول بنظراته ربما احد من ضيوفه يريد شيئا ويهيب به الشيخ بلسانه الشرقاوى .

ـ اجمد يا على .. استريح .. احنا مبسوطين .. مش ناجص حاجة ..

يبتسم على خليل خجلا وينزل الى وسط الدار ..

هناك يذبح الحاج كريم الذبيحة وهى تتلوى بقوة خارقة فى وثاقها ، والرجال حولها يشدون أطراف الحبل بحول وانصراف ورهبة ، يضع ركبته على رقبتها ، لايكون وجهه هكذا الا اذ يذبح او يحرث أو يؤدب المراة او الولد ، تمرق السكين فى الحلقوم مما يلى نهاية الفكين ، ويطرطش الدم الأرض وأطراف جلاليب الرجال ، وتبرطش البنات كعوبهن فى دماء الذبيحة ، دافعات ذيول الجلاليب عن السيقان والجسد ينتفض على الأرض والحاج كريم يبتسم وحوله الرجال .. ويخبط بصفحة السكين على الجسد المرتجف ثم لايصبر ، يتناول خلفيتها ويثقبها من ثمة يولج عمود الحديدليفسح بين الجلد واللحم مجالا ، سوف تنفخ ثم تعلق فى السقف ويقف الحاج كريم أمامها يسلخها ويقطعها .. انه يعرف الأشياء جميعا ، شملول فى كل حرفة ذلك الأب الكبير ..

الباحة أمام باب الدار وقدة من النور زرعت الأرض عيالا والأسطح حول الباحة نساءا وبناتا ، والعايق فى قفطانه الزاهى وعمامته مثل الباشا ـ اولا ابرة التسليك المرشوقة خلف اذنه ـ يدور ينظر الى الكلوبات جهما فاذا نعست عين واحد منها

انى له فورا بالسلم الكبير وقفز عليه كالقرد وعالج الكلوب مكشرا كانما يلومه أو يقرص اذنه فيتدفق النور والطنين ..

فرشت الحصر البيضاء امتداد شاسع من الفرش المبثوثة اتى كل رجل وكل امرأة من داره بشيء انضم الى البساط الكبير .. الناس يحبون على خليل يحدقون به ويكلمونه ضاحكين ، وجهه شاحب بالضوء الأبيض انه طيب وديع يدفع الأطفال برفق وهم يتزاحمون شكسين ..

شق الفراش الشاسع بصف الأرائك الواطئة صفان هائلان من الدراويش ، الليلة هم كثيرن ، كثيرون جدا رجال جاءوا من أعماق الدور على وجوههم جدية طيبة ، يخلع الرجل نعله ويطويه ويضعه امامه على الحصير ويجلس خاشعا والصفان يطولان تقلصت الأرائك الصغيرة وأصبح صفها قصيرا بين العدد الكبير من الناس ..

العراقى يتعجل السرور لابسا عمامته الحمراء ، وحزامه الذى يدور حول وسطه ويشق صدره ويحمل فى يده مبخرته وينادى بأعلى صوته على المدد من السلطان ثم يضع مبخرته على الأرض وينخرط فى ذكر عنيف يطوح بنفسه يمينا وشمالا مع ايقاع صوته ..

ـ الله حى .. الله حى ..

ثم يكتشف انه وحيد فيضحك ويضحك الناس والعيال والنساء ، ينطلق يجرى حاملا مبخرته ضاحكا ومناديا على المدد من السلطان ..

والعيال بعيدا يقيمون اذكارا صغيرة زائفة تدور للحظات ثم تنفض لتنبت فى مكان آخر بين الضحك والجرى والتجاذب والتقاذف بما يقع عليه اليد . أما الصبيان العاقلون فيجلسون

صفوفا صفوفا متتالية خلف الدراويش صفوفا تغطى الفراش حتى تتجاوزه وتفترش الأرض الرطبة من المساء .. أما النساء ففى الأطراف قليلة الضوء وعلى السطوح تبرق عيونهن وحليهن وهمساتهن وضحكاتهن اطارا بعيدا غامضا لحضرة المساء ..

يأتى الحاج كريم فيحل الصمت ، يمشى الهوينا فى عباءته وعصاه تبعثر الهسهسات .. يقف ساكنا لحظة يكاد يقف قلب عبد العزيز عن الخفقان ثم يجلجل صوت الحاج كريم واضحا كأن الله يتكلم ..

ـ أباريق نور نازلة من السماء على دارك يا على يا خليل .

ويجمد وجه على خليل كأنه مصنوع من الشمع وتنطلق زغرودة تشق السماء كاللهب ويقول الحاج كريم بصوت خافت لكنه مسموع :

ـ استبد يا شيخ محمد يا كامل ..

انه اليوم فى أبهى زينته لف شالا أبيض على طاقيته من صوف الغنم الأحمر وسدل لفاعا على كتفيه ووجهه حليق وكتفاه عربضان كأحد أولياء الله فى صور تباع فى الأسواق ، أغمض عينيه، اكتسى وجهه مهابة جليلة ثم خرج صوته عميقا ووراءه كورس الدراويش فى تدفق هادىء رصين .. « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله عدد معلوماتك ومداد كلماتك » .. عالم شاسع صحارى ورمال وبحار وأنهار وأشجار وسحب وذرات وكتل فى صدر كل مخلوق ـ مهما دق ولو كان هباءة طائرة فى شعاع شمس ـ قلب دافىء نابض يسبح باسم الله ويصلى على أسعد مخلوقات الله .. ومع الرحلة الغريبة فى أقطار الكون فى الأفلاك البعيدة وفى الأعماق السحيقة تضطرم القلوب

بالاشواق وتلتهب التلاوة وتشق الزغاريد أجوار الفضاء .

ويتميز بين أصوات الكورس صوت احمد بدوى الرفيع النافذ وبدا يفرض نفسه بين طيات نهر الكورس المتدفق ويميل بجماع الأصوات نحو مذهب مياد بالتلوين والدلال وتبدأ الكلمات تتجسد وتتضح تبكى الحروف ويتذلل الكلم أو ترقص المقاطع فىالمعنى الباهر .. وما تنتهى دلائل الخيرات الا وقد خفت القلوب حتى لتكاد تطير بالأجساد فى النور ..

ماكر والله احمد بدوى لا يستلم الدراويش الا عرقانين مبحوحى الصوت من قراءة الدلائل يأخذهم الى آفاق البردة اللانهائية والنساء سكرانات على السطوح والرجال ميادون فى الصفين كالأعواد والشيخ يطل من الشباك ..

ــ تانى يا بدوى .. تانى يا حبيبى .. هواك ونغماتك يابدوى .. من عند الله ..

فى احدى يديه نسخة البرده ، يداه طائرتان فى الهواء ، جسده يميل ويعلو ..

يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت

ان الكبائر فى الغفران كاللمم

ذات الرجفة التى دبت فى قلب عبد العزيز حينما رأى الكلمات تدب فيها الروح اذ يسقط عليها النور أحمرا وأخضرا ملونا بألوان زجاج المسجد وكفه مخنوقة فى يد والده الذى يشير له ..

ــ شايف يا ولد .. اقرأ .. البرده كلها مكتوبة على جدران المسجد ..

مسجد الأباصيرى فى الاسكندرية وريح البحر تهب مالحة والحروف يقظانة فى الضوء الملون ..

يالائمى فى الهوى المذرى معذرة
منى اليك ولو انصفت لم تلم

فى صوت احمد بدوى بحة المداحين حينما يتصدرون ردهة الدوار فى المساء والناس زحام جالسين عند أقدامهم وصفق الدفوف يهز الجدران وقلب عبد العزيز أكثر ارهافا من دف محمى على النار الليلة مداحين هذه أم ذكر حضرة أمام باب دارعلى خليل، أم نور الفانوس يزدهى بالسرور لاقتراب فرح السلطان .. ؟

رفعت الأرائك الصغيرة مما بين الصفين نهض محمد كامل واقفا فوقف الصفان جميعا ، أسرع العيال والصبيان وتسللوا بين الأرجل والأجساد وافترشوا الحصر جالسين بين الصفين الواقفين الكلوبات ابهى ماتكون نورا والسطوح مثقلة بالبنات وزغاريد متفرقة متعجلة سرور الذكر الوشيك . .

على راس الصفين وقف السنهوتى عازف السبسب وصاحب زار القرية نحيل كان ثوبه مقام على خيزرانتين ميادتين ، شاحب كأنه ميت واقف غائر العينين لا يفيق من الأفيون الا لينفخ فى السبسب كيف تزوج السنهوتى من هذه المرأة الزنجية السوداء الضخمة تمسك دفا هائلا وتقف الى جواره ضاحكة عن أسنان صحيحة ناصعة البياض . .

توسط محمد كامل الصفين ورفع يداه لأعلى هاتفا . .

ـ الله . .

وانهى التنهيدة العميقة بصفقة قوية على كفه . . هكذا بدا الايقاع هادئا عميقا تتردد فيه كلمة الله رتيبة متباعدة على تقاسيم ينفخها السنهوتى فى السبب وعلى رعشات من شخاليل الدف . . انزاحت أكمام جلباب السنهوتى الهفهافة الناصعة البياض عن زراعين نحيلتين مشعرين وأغمضت المرأة عينين ساجيتين مع

الايقاع .. هذان الاثنان السنهوتى وامراته ، هذا السبسب الذى لا يجاوز طوله شبرا وهذا الدف الكبير ياسران النساء فى القرى البعيدة فيأتين متشحات بالسواد حذرات مترددات يخضن الحوارى الملتوية حتى يصلن الى دار السنهوتى حيث يقام الزار كل اثنين وجمعة من الاسبوع ..

اصبح الذكر جنونا، محمد كامل فى الوسـط طائر الذراعين يصفق كفاه بقوة وفى ايقاع سريع محموم ، السنهوتى يصب فى السبسب روحا مجنونة .. طار غطاء راسه وطارت خصـلات شعره السوداء، وجسده النحيل يرتجف مع الايقاع، نبحات صادرة من قلوب عشرات الذاكرين معا على الايقاع تصك الحيطان ضربات الأقدام فى الأرض تهز القرية من جذورها صفان من الأجساد المتصببة بالعرق يميلون معا يلتوون معا ، يستقيمون معا يقعون معا ينهضون معا فى نسق مزلزل لا يختـل ، امـراة السنهوتى تضرب قلب الدف بكف سوداء ضخمة ، قلبَ الدف المرهف علـى النار ، ليس فى الدنيا كلها سوى صوت الدف والسبسب ونبحات صدور الذاكرين ودق اقدامهم ، صوت جبار يسحق كلكلة كل قلب ..

عبد العزيز يحس بالخوف ، لكنه خوف رائع كذلك الذى أحسه عندما كان عند عمته فى القرية البعيدة ، هناك زوجها ابوه فى دار كبيرة طرقاتها طويلة معتمة الجد الكبير لأهـل الدار مدفون فى وسطها ، وهم يضعون على القبرة لمبة لاتطفأ ابدا وحينما يمرون ينظرون ناحية القبر محاذرين ، قوم غير عاديون ، ابنتهم الكبيرة العانس جسدها عامر بالأرواح آتوها بالدفوف الكبار وبدأ الصك الرهيب والخوف الرائع ، ضمت العمـة عبد العـزيز الى صدرها أمسكت ذيل جلبابه وعقدته عقـدة قالت ان ذلك يحميـه من الارواح .. عبد العزيز يود الآن لو يعقد ذيل جلبابه ليحميه من صك الدفوف الرهيب .

ورفع محمد كامل ذراعيه لأعلى هاتفا لختام الذكر .

ـ الله ..

ارتعشت شخاليل الدف حتى سكن ، تسحبت أذيال السبسب انطلقت عواصف الزغاريد من السطوح . وقف الذاكرون يكادون يسقطون اعياءا .. عمر فرهود انجذب فما يستطيع أحد ايقافه أو السيطرة عليه .. العايق الخبيث يقول :

ـ سيبوه .. مش حيسكت الا لو شافته مراته .. هو قايل لها أنا بنجذب فى الذكر وهى مش مصدقاه ..

ويضحك عن أسنانه السوداء ، السنهوتى يمسح بمنديله الأبيض نابه القصير المثقب الذى بلله لعابه لكن عراقى الأطرش لايزال منهمكا فى الذكر وحده لم يسمع بانتهائه ، نبهه واحد ، جذبه من ذراعه ، حينما اكتشف الوضع شتم الناس جاريا فى كل اتجاه ليدارى كسوفه ..

حيطان ردهة الدوار عليها بصمات ليال وليال ، وصوت أحمد بدوى فيه عطر ليال السرور ، عطر الطريق ..

ـ حرما جميعا يا مشايخ ..

ـ التجلى كان نازل الليلة ..

ـ نفحات السلطان يا عم ..

ـ ربنا ما يحرمنا من رحابه ..

وأخرجت المناديل لتمسح حبات العرق من الوجوه ، وفى همسات مجهدة قرئت الفواتح للاخوان البعيدين والقريبين والأحياء والميتين ، الاخوان هم صحبة الحياة ورحلتها القصيرة الدنيا من غيرهم بطعم التراب ..

المستعجل على النوم قام وبقى ساهرا مع الحاج كريم الخلصاء
من اخوان الطريق .. لفائف الدخان واحقاق المضغ .. تمددت
السيقان على الحصر ما التزام الوقار وقد انتهت حضرة
المساء ..؟ يدور الكلام هينا حالما ..

ـ السفر باذن الله يوم الأحد ..

السفر الى السلطان ، الطريق ، طنطا بيت الخدمة ، لقاء
الاخوان . الفرح وليلته الكبيرة ، الكلام يترقرق يصنع حلم الأيام
القادمة فى ضوء الفانوس الذى بدأ يخفت وتنعس ذبالته ..

آخر المنصرفين هو دائما احمد بدوى ، يبتسم .

ـ تصبح على خير يا عم الحاج .

وحينما يغلق وراء انصرافه باب الدوار الكبير تصبح الردهة
موحشة يثوب الحاج كريم الى الدار فى يده المصباح والعصا
وخلفه عبد العزيز .. الليل هدأة مخيفة تسلم الى النهار ، نهار
الجهمين الصائحين ، لو كانت سهرة المساء شيئا لا ينهى .. ؟!

الخبـــز

الغرفة مخنوقه بانفاس النائمين ، الضوء مخنوق على الحيطان بتهاويل الظلال ، والمصباح عين ناعسة على الحائط ، عمدان السرير النحاس الأربع الشاهقة تجثم على حيطان الغرفة وسقفها ، الأنفاس تتردد فى غير ما نظام ، حيوان ضخم راقد تحت اكداس النعاس ، حبات العرق على الجباه ، ـ الاجساد المتعرية من الزحام والحرارة العالم الغامض المهول بالظلال والعتامة ورائحة اناء البول الحمضية يتسرب الى دماغ عبد العزيز فى نومه يهوش احلامه ، هولةضخمة ذات شعر تمتد لتخنقه ، يستيقظ مروعوبا يزيح يد والده السمينه المشعره المنداه بالعرق عن وجهه ويدور بعينيه ، حمدا لله انه حلم ، اغمض عينيه مره أخرى لكنه يقظ تماما ، تململ الحاج كريم بجوار ابنه عبد العزيز على السرير ، أستقام جالسا ، سوى جلباب النوم على فخذيه العاريين انحدر نازلا من على السرير، على الأرض الأولاد متكومون على حصير ، داس بين الاجساد بحذر حتى وصـــل الى مشجب الملابس خلع جلباب نومه وقف عاريا تماما ، ظهره تجاه عبد العزيز فتح الولد عينيه ، الاب العارى ، ثنيات اللحم عند خاصرتيه، اغمض عبد العزيز عينيه مرة اخرى ، لبس الرجل ثيابه ثم خرج الى المســـجد .

عبد العزيز يتقلب قلقا أخواته يتقلبن على الحصير أغمض عينيه حتى لايرى عريهن ، دفن وجهه فى الوسادة والاحساس بالاثم برعبه، سمع صوت الأم .

ـ اصحى يابت انت وهيا .. الفجر لاح .. ورانا خبيز

قمن جالسات يسوين ملابسهن ويفركن النعاس من عيونهن ويفطين الصغار من العيال ، نزل عبد العزيز من على السرير ، لبس الطاقية فى رأسه زر طوق جلبابه وخرج الى وسط الدار ، ضـــوء اللمبه ذات الشعله ثابت لا هواء يحركه وحوله هالة صغيره من النور رفيما عدا ذلك الظلام والسكون ونجمات الصبح تتكدس فى مربع عار من سقيفه وسط الدار ، جلس على المصطبة ، أصوات غامضة تأتي من بعيد ، الحمائم تتحرك فى البنانى قرب السقف ، البهائم تجتر طعامها ، الحماره الســـمراء الكبيره تتنهد فى ارتياح ، الدار عليها سقف من الحطب وفروع الشجر بهكثير من اعشاش العصافير، لعل صغارها تحلم ، الذكور والاناث تتحاضن ، تزقزق بهدوء ، ثمة ثعابين ايضا فى العريشة الثعبان يبتلع العصفوره دون ان يمضغها ، يتسلل اليها ثم تجدها فى جوفه متكوره هكذا بوضوح فى جسده الطويل المســـحوب .

خرجت أم عبد العزيز تحكم طرحتها حول راســـها ذراعاها متحاضنتان على صدرها وكفاها مدسوستان تحت ابطيها ، تناولت لمبة ذات شعله من رف طينى فى الحائط اشعلتها من اللمبة الاولى اخذتها مشتعلة أخرجت المفاتيح من صدرها ــ لا تتخلى أبدا عن هذه المفاتيح ــ فتحت غرفة المعاش وغابت هناك .

فتحت الغرفة الأخرى بابها عند راس المصطبة تماما ، خرجت منها زوجة الحاج كريم الأخرى تحمل فى يدها ابريق فخار اسود، حالما برزت من الباب كان وجهها فى وجه عبد العزيز تماما . .

ــ صباح الخـــير

ــ صباح النـــور

سمراء متغضنة الوجه واسعة العيون ، يعرف عبد العزيز سعة عيونها في اخواته غير الشقيقات، ولكن وجناتها ذبلة : مشت تحمل

ابريقها الاسود الى الركن الذى يقوم فيه الزير ، ثدياها ضخمان وساقاها نحيلان ملتويان تندفع فى مشيتها ٠٠ قطرات ماء تسح من الزير متباعده تسقط فى اناء تحته فتحدث صوتا ٠٠ بدات تصب الماء بالكوز فى ابريقها ، الماء يرن فى تجويف الابريق ، ظهرها نحيل .. استدارت ، عيناها واسعتان ووجنتاتها ذابلة ، تقول عنها أم عبد العزيز انها تشترى الصابون النفاش لتبدو أحلى فى عيون الحاج كريم ، ذات مرة وجدوا فى غرفتها ورقة ملفوفة فيها قطعة صابون نفاش حمراء تنفش ملامح الوجه وتجعله متوردا تتكحل ويزدهى وجهها وتجلس على عتبة بابها يدخل الحاج كريم ويخرج دون أن ينظر ناحيتها .. وفى المساء تلمع زجاجة مصباحها وتتربع على فراشها النظيف ساندة ذقنها على يدها ، يتسلل عبد العزيز الى غرفتها ـ عندما كان صغيرا ـ تضمه وتقبله وتحكى له حواديت الغول والغولة وبائع الباذنجان .. أخذت ابريقها ومشت نحو المرحاض ، طهورة نظيفة الثوب ، بعد ذلك سوف تصلى ، لاتعرف شيئا من أمور المعاش توكل اليها الأشياء التى لاتقتضى مهارة ولا التفاتا ، حتى عبد العزيز لم يعد ينظر ناحيتها وهى جالسة على العتبة ، يحس نظراتها الحائرة ولكنه لاينظر ناحيتها ..

عادت بابريقها الدار ساكنة لايسمع سوى كركبة أمه فى غرفة المعاش وصوت تلاوة الزوجة الأخرى فى صلاتها وهمهمة الحمائم فى البناتى وقطرات الماء الساقطة من الزير يصيغ سمعه ويدير رأسه كالدجاجة المتشوقة .. فى هامش السكون والعتمة هذه الوسوسات غير ذات المعنى تولد فى عروقه شيئا كالخدر يسرح الى قلبه ويتكور ثقيلا يزحم صدره يرزح على انفاسه وحلقه، يحدق فى شعلة اللمبة طويلا، الكلام يترقرق فى داخله كالدموع ، لو كان يقدر لكتب كلاما كثيرا حزينا مثل تلك السطور التى ارسلتها بطلة الرواية الى محبوبها وارسلت معها خصلات من شعرها سقطت من عنائها فى حبه ٠٠ لكنه لا يستطيع ، الكلام فى صدره كنتف من

السحاب لا يستطيع الامساك بها ، فقط يمتلىء خياله بالصور المتوتره الحزينة ، مثل صورة وجه المسافره الى حبيبها تطل من شباك العربة تتعجل المسافة بقطر قلبها القلق ..

عند عبد العزيز بضعة كتب قليله فى شباك الغرفه يجثم التراب على أغلفتها ، كم يتمنى لو عاش وحيدا فى مكان ما، وحيدا بعيدا عن كل شىء ، لكنه يتذكرها، غديرتاها وعيناها وابتسامتها الرائقه . .زمان .. حينما كان بعد طفلا صغيرا كان ينتظر العيد فى شوق وليلة العيد يبقى ساكنا عازلا نفسه عن ضجة العيال مصيخا السمع .. ثم فجأه يسمع زمارة العربة ويندفع خارجا يفتح الباب الكبير، وتنزل هى من العربة مع أبيها وامها صغيرة لطيفة مثل العرائس التى تعرض فى نوافذ الدكاكين وطول أجازة العيد لايفارقها يلاعبهاويعنى بها الىأن تسافر فيبقى حزينامنتظرا عودتهم فىالعيد الآخر .. لقد مرض ابوها ومات وهى الآن تسكن حارتهم مع امها وهما يسافران معا الى المدرسة فى طنطا كل يوم لكنه مع ذلك مشتاق اليها دائما ..

وحينما يقف على باب الحارة يكاد صدره يتفجر بالشوق يركز بصره بقوة على المنحنى حيث تلتوى الحارة وتغيب يركز بصره معذبا مشتاقا فاذا بها خارجه كمعجزه نبى وفستانها طائر عن ساقيها .

غلب عبد العزيز الابتسام وهو جالس بحلم على المصطبة تصورها وهى طائرة هكذا كالفراشة ، يملأ قلبه سرورا ويغلبه الابتسام .. هى وكتبه المغبره فى الشباك ووريقاته الصغيره التى فيها فتات قلبه ... لكم يود ان يعيش وحيدا لكنه مع ذلك يحب الاشياء جميعا حمارتهم السمراء وامرأة ابيه القديمة الطيبه .

بدأت البنات تخرج من كلا الغرفتين الى غرفة المعاش وهناك بدأ يعلو صوت الكركبة والكلمات التى لاتزال ناعسه واوامر ام عبد

العزيز المقتضبة، وضحكات صغيرة خافتة، وفي كل آن تخرج واحدة من البنات ـ في يدها لمبة ذات شعلة ـ تذهب وتجيء في وسط الدار تقضي حاجة أو أخرى ثم تعود الى غرفة المعاش .

ثم خرجت ام عبد العزيز وبدأت تصعد السلم ذى السياج والدرجات من خشب الجميز الغليظ ، قصيرة مليئه تدلك الدرجات بقدميها اللمبة على راسها وهي تحمل نفسها بأشياء وأشياء ، في كلتا يديها وتحت ابطيها لو كان لها عشرة اذرع لطلبت مزيدا .

تفكر عبد العزيز في أبيه الحاج كريم .. لعله عاد بالأمس من سهرته مع الاخوان في الدوار وطلب اليها أن تخبز زوادة السلطان، ولابد انها غضبت الى اقصى حدود الغضب ، وأكدت ان المخازن

خالية من الحبوب والدقيق وأن الجرار ليس فيها رائحة السمن .. وان قطرات اللبن التي تنزى من اخلاف الجاموسة لا تكفي حتى لبل ظمأ العيال .. وانه قد آن الأوان لأن يكف الحاج كريم عن بعثرة رزق أولاده على الموالد والضيوف وانه يكفيه أن يملأ سلالا يحمله في يده الى طنطا مثل الباقين وان هاتان الصحارتان الكبيرتان ستظلان تنزحان من الدار حتى تصبح وليس فيها لقمة لطفل ..

ولابد ان الحاج كريم تربع على السرير النحاس الكبير وطفق يكلمها ساعات عن الخبيز للسلطان وعن العيال والدار وعن البركة التي بسرها تسير هذه المركب الواهنة القلاع المثقلة بالأحمال تسير في نهر الحياة بأنفاس أولياء الله .. كلاما عذبا مؤثرا وهي متقرفصة على الحصير عند اقدام السرير ، عنيدة لاتلين تلقى بتعليقات جافة مقتضبة عن رعاع طنطا وشذاذ الخلق الذى يلقى في أفواههم بقوت العيال ..

في الزمن الماضي كان يعصف بها اذا عارضته فيما يريد وكان عراكهما يرعبه فيصرخ مذعورا ويحمله الناس بعيدا حتى ينجلي العراك .. لازالت اثار هذا الخوف في نفســـه مثل آثار جرح اندمل ، حزين قليلا من أجل أبيه لم يعد يعصف بها كما كان يفعل في المــاضي لانت شراسته امام عنادها أو اذعانها المــكره الذي ينتظر الفرصة ليعلن الرفض .

سنين طويلة والعالمان لا يلتقيان .. عالم الحاج كريم المحلق على أجنحة الكرامات والبركة والبذل للاخوان كخير سبيل لتكثير القليل ونبربكه ، وعالمها المحدود بالجرار والقدور ومخازن الحبوب تخفي أمرها اذا امتلأت لكنها تظــل تدمدم غاضـــبة اذا نقصـــت أو فرغت ..

انها تحارب بقامتها القصيرة المكينة ووجهها الأبيض المســتدير الجهم ، وعيونها الضيقة التي تحدق دائما في الأرض ، تحـــارب ضد شيء ما خرابا محققا تتوهمه قادماتصوره في كلماتها وأوامرها الحازمة للبنات وتحذيرهن من الاهمال والفوضى والقـــاء الفتـــات وتصوره في نظرات عيونها السريعة اللماحة المفتشة في كل ركن باحثة عن الخطأ أو التقصير .. وتلقى بتصورها كل آن في وجه الحاج كريم مهددة ، أما هو فانه يبتسم ويهز راسه مطمئنا ان له ثقة غير محدودة في الآت الكف التي تبذل لا تنضب أبدا ، والدار التي يأكل فيها الضيفان لا تخرب أبدا .. عالمان منفصلان ، زوجان غريبان ، كيف اذن يختلسان معا ساعات في هذه الدار المزدحمـــة بالعيال والبهائم ليتضاجعا ويكدسا الأطفال كل عام بلا انقطاع ..

وقف عبد العزيز على باب غرفة المعاش تضيئها لمبـــة ذات شعلة أو بالأحرى تصنع فرجات من الضوء بين مساحات الظـــلال التي ترسمها الأشياء المتزاحمة في الغرفة وفي الفـــراغ فيما يلي السقف احبال معلقة عليها حزم البصـــل والثـــوم ، وفي الحائط

تدق أوتاد تعلق فيها الزنابيل ، بجوار الحيطان تقف مخازن الطين المليئة بالدقيق ، وفى كل شبر من أرض الغرفة توجد جرة أو قدر أو اناء أو قص أو صحن ، والغرفة مظلمة ليلا ونهارا ، فليس فيها نافذة واحدة ، لاأحد من الرجال يدخل هذه الغرفة ، ان فيها معاش أهل الدار وأم عبد العزيز لاتتخلى عن مفتاحها أبدا ، كيف يتحركن داخلها دون أن يتعثرن فى شيء .

اللمبة ذات الشعلة ضوؤها هزيل وخط مستقيم من دخانها يصعد حتى يصطدم بالسقف وحولها على الأوانى والجرار ضوء أصفر شاحب وعلى الحيطان ظلال طويلة ، الأم تتحرك وعلى وجهها جدية صارمة والبنات حولها ينتظرن تعليماتها هؤلاء بناتها وبنات الزوجة الأخرى لكنهن يطعنها ولا يأبهن لأمهن كثيرا ربما يكرهنها لكنهن مرتبطات بها ، تعلمهن وتعصف بهن يمرمرن ثم يعدن اليها .. عيونهن ناعسة والظلال والضوء الشاحب يجعلها تبدو ناعسة أكثر أوامر أم عبد العزيز مهموسة مكتومة لكنها نافذة البنات يتحركن فى كل أتجاه بين أكداس الأشياء المتزاحمة جو حلم مفزع يدسسن أيديهن فى الجرار أو يرفعن على رؤوسهن الأوانى ليجلبن الماء .

دائما يبدأ الاعداد للخبيز قبل الفجر حينما كان عبد العزيز صغيرا كان يسمع حكايات عن قيام البنات مع الأم للاعداد للخبيز البنات يسعين فى ظلام الدار وسط كرات من الضوء يحكمن الطرح حول رؤوسهن يضحكن ضحكات صغيرة وتشجع واحدة منهن الاخرى ..

ـ اتجدعنى .. يمكن ينوبك من المولد حتة حلاوه ..

ـ حلاوه ؟.. حلاوة ايه ياختى ، والنبى ان ماخدونى معاهم ما آنى حاطه ايدى فى شغله فى الدار دى ابدا .

وتتدخل أم عبد العزيز حازمة وفى كلامها رنة ساخرة :

ـ خدى بالك من اللى فى ايدك ياروح امــــك .. حتروحى ياختى .. الدار كلها حتقعد عالجمل وتروح طنطـــا .. بس .. يالله ياحبيبتى ..

جلست أم عبد العزيز وسط غرفة المعاش وحولها شــوالى اللبن ، تلك الأوانى المخروطية من الفخار التى يشخب فيها سيال اللبن من أخلاف البهائم ، بدأت تنتقى الشوالى التى حلب فيهـا اللبن من يومين أو ثلاثة تلك تتكون على وجهها طبقة كثيفة مختومة من القشده ،تتحسسها بيدها فتتأكد من تمامها وتنحيها وهناك شوالى حلب فيها اللبن مساء أمس أو قبل فجر اليوم ومازال حليبا والرغوه على وجه الشليه هشه لم تختم .

بمهارة فائقه وخفة بدأت تجمع القشده من على وجه الشوالى المختومه وتلقى بها فى برام الفخار وعبد العزيز جالس على قفص مقلوب وجهه بين كفيه والبنات فى حلقة حولها يتأملنها ويتعلمن منها .. انها ابنة موظف فى الحكومة نشأت فى المدينة ، حينما نزوجها الحاج كريم لم تكن تدرى عن أمور الفلاحين شيئا كانت بيضاء وجميله لازال فى وجهها المستدير السمن الأبيض وسامة واضحة ، حاصرتها نســاء دار الحاج محمد والد الحــاج كريم وعزلنها وعايرنها بجهلها بشـــئون المعاش .. الآن هى مرجع النساء فى خفايا الدور وأسرار اللبن والطبيخ ..

يدها مليئه بكمية هائلة من القشـــده لوحت بهــا فى وجــه عبد العزيز :

ـ شوف قشطة جاموستنا يا عبد العزيز .. صلاة النبى .. بسم الله الرحمن الرحيم .. سمى سمى يا عبد العزيز وصلى عالنبى ..

فخورة ببهيمتها تخاف عليها من الحسد ، أول ماجاءت هذه الجاموسه الى الدار ، لم تدع الرجال يدخولنها من العتبه الا بعد أن بيضت بالدقيق جبهتها .. فى الأول كان سمك القشده على وجه الشيله في رقة ورقة السيجارة لكنها لم تسكت ظلت تجرب وتبحث عن «دولاب» جاموستها ، المراه الخائبه من لاتعرف دولاب بهيمتها ، جربت كل شيء حتى انكشف لها « الدولاب » واستقر تعلم البنات فى حزم ووضوح تغسل الشليه بماء الترعه بغلاف قنديل الذره ويلقى الغسيل بجوار حائط لا يلقى به فى عرض الطريق والا داسته الاقدام وفيه بقايا لبن من الحلاب السابق ، وهذا حرام يضر بالجاموسة ، ثي تكفأ الشوالى قائمة على جنوبها جهة الشرق حتى تجف ثم تدس فى فرن محمى بتبن الفول وروث الجاموس الجاف ، وحينما تخرج الشلية من الفرن يحلب فيهااللبن توا قبل أن يفسد ما أجرى من تطهير يشخب اللبن فى الشليه من اخلاف الجاموسه ويحدث خشيشا وتتكون الرغوة فائرة بيضاء دافئه تتجمد بعد ذلك وتصير قشده .. واذا توعكت الجاموسه او نقص حلابها أو فسد قشدتها فانها تقوم قبل الفجر وتجرى تدور على سبعة أبواب شرقية تترك عليها من قشدة جاموستها ، فاذا ما اشرقت الشمس وانصهرت القشدة وسالت فان لبن الجاموسه يسيل نهرا باذن الله أصبحت تعرف الاسرار كلها هذه الكاهنه الصغيره ليس هذا ما فتن الحاج كريم عندا تزوجها انما فتنه فتاة صغيرة جالسه على كتبة فى صالة بيت والدها فى المدينة تطرز قماشا فى يدها ..

اجتمع فى برام الفخار قدر كبير من القشدة جمع اللبن الرائب فى الشوالى فى وعاء كبير واللبن الحليب فى وعاء آخر أخذته احدى البنات الى الكانون حيث تشتعل تحته النار ليغلى عدد كبير من الشوالى أخذ الى خارج غرفة المعاش حتى يرد فى الصباح الى اصحابه لابد أن خبر خبيز المولد قد انتشر فى البلد فأتت كل

واحدة الى دار الحاج كريم بحلاب بهيمتها مشاركة فى زوادة مولد السيد ..

لابد ان الشيخة زينب ابنة المأذون قد عرفت موعد الخبيز من أم عبد العزيز ثم دارت به على الدور فرحة بأن لديها شيئا يقال هذه الفتاة العجوز ماكينة كلام لا تكف أبدا يضحك عبدالعزيز اذ يذكر كيف تأتى الى زيارة أمه تجلس بجوارها على المصطبة وتبدأ فى الكلام لاتكف أبدا تنام أم عبد العزيز جالسة وتذهب البنات الى الغرف وتصبح الدار ساكنة أما هذه فلا تكف أبدا .. ماذا تفعل ان لم تتكلم ، لم يعلموها شيئا من امور المعاش قالوا لن تتزحزح فهى عوراء ضامرة قاتمة اللون قبيحة الأمر فى البنات غريب فابنة أم صباح الفقيرة تنمو كالزرع المبكر يمتلىء فرعها وتتورد وجناتها وينتصب ثدياها شامخين ولكن زينب هذه ابنة المأذون تضمر مثل نبتة فصلت عن أمها قالوا لن تتزوج ، فوهبوها للقرآن حتى حفظته ودارت تقرأه للنسوان فى المآتم ، ولكن ما أبعد الأيام بين موت رجل وآخر ماذا تفعل انها تدور على الناس فى الدور تلم ثوبها حذر النجاسة ثم تجلس وتبدأ تحكى لاشىء يوقفها .. كبر اخوتها وتزوجوا وأصبح لكل واحد دار ، وكبرت أخواتها وتزوجن وتركن الدار ، أما هى ففى غرفتها الصغيرة وخن ارانبها ، يلدن كثيرا هؤلاء الأرانب وعندها كيس قماش صغير تضعه فى صدرها عامر دائما بالنقود ولقد اقترض منها عبدالعزيز مرة خمسة عشر قرشا وذهب الى طنطا ليرى فيلما وكادت تكون فضيحة حين طالبته وعجز عن الدفع شبعت اخواته منه سخرية لولا تسامح الحاج كريم الذى دفع المبلغ مبتسما .

لابد ان زينب هذه دارت على الدور ناشرة ما تعرفه عن موعد الخبيز وامرأة احمد بدوى تضع البذور مكان مايحفر زوجها بفأسه الصغير فى باطن الخط وتردم بيدها رفع رأسه ونظر اليها مبتسما فتورد وجهها خجلا وقالت له :

ـ حودى حلاب الجاموسة الليله دار عم الحاج كريم .. عشان الخبيز ..

وهو ابتسم قائلا :

ـ الله يبارك لك فيها ..

وفى المساء جاءت حاملة على رأسها حلاب جاموستها ، وفى يدها ابنها الصغير عوض الله به عليها من صغيريها اللذين ماتا فى وباء الكوليرا ، متوردة الخدود نضيضة الثنايا قبل عبد العزيز خدود ولدها . ياما جاءت بهذا الولد وهو رضيع الى أم عبدالعزيز تبكى والولد يصرخ ويتأوه وام عبد العزيز تضعه فى حجرها وتتحسس جسده من تحت ثيابه وتحرك اعضاءه وتجس جسده ثم تطلب بيضة تكسرها في يدها وتسرب بياضها من بين اصابعها وتستبقى صفارها فى راحة كفها وتضعها على جسد الولد العارى تماما ، تدحرج الصفار على جلده القرمزى وتدور بهذا الصفار مدحرجا على كل جسده وفى مكان معين ينفجر فتكبسه على ذات المكان بالردة ونربط عليه وفى الصباح يكون قد برىء .. لابد انها مدت يدها بحلاب جاموستها مكسوفة الى امرأة الحاج كريم ثم انصرفت مسرعة ..

ضحكت احدى اخوات عبد العزيز وهى تقول له :

ـ عارف داهه شلية مين ؟ شلية روايح ..

وضحكن جميعا فرحات كأنما عثرن على صندوق ملىء بالأشياء اللطيفة .. نعم فسيرة روايح يمكن أن تسليهن الىالصباح اكيد هذا اللبن حرام ليس من المعقول ان تسرق شلية لبن ، لكنها على الأقل قدمت لجاموستها عشاءا حراما من حقول الجيران .. لكن السيد البدوى واسع البطن لا يهمه الحرام فان امرأة سرقت دجاجة لتذبحها لأولادها وعند الكانون لم تجد الدجاجة المذبوحة

ووجدت « الأقرع » قابعا ينظر سألت عن الدجاجه فتح فمه نظرت فى داخل جوفه وجدت بحرا شاسعا على وجهه تعوم الدجاجة المذبوحة ، ابتلعها حتى لايسمن الأولاد من طعام حرام ، فيصيرون قساة أشقياء ..

ـ فيه واحد فى بطنه بحر .

ـ ايوه .. مش بيقولوا : يا بحر طامى ياسيد يابدوى ..

ـ بحر طامى يعنى .. يعنى ..

ـ ماتقعدش تقول يعنى يعنى .. هى الحكايه كده وخلاص .

وفى طنطا على اى حال ناس تاكل الزلط ، سيأكلون هذه القراقيش ولو عجنت بالكيروسين .. يضحكن ، ويضحكن على اهل حارة الزعايرة حيث دار روايح ، انهم يمسكون قلوبهم بأيديهم هذه الأيام فان سفرة العايق الى طنطا سوف تكلفهم كثيرا .. يحكون عن ولدى « طراوة » اللذان يعيشان فى دار واحدة ، وكان عندهما ذكر من البط هائلا له عرف قان كلما خرج أمام باب الدار يخطر مباهيا ويفح بقوة تكلما عنه حالمين ..

ـ ادخل الدار يا سبع .. صلاة النبى من العين ..

ـ ليلتك حتبقى فل ..

أيام طويلة والدكر العزيز يطعم ، يدس فى حوصلته الأذرة والفول ، حتى عميت عيناه من سمانته ثم فجأة اختفى ، بحثوا عنه فى كل مكان هم يخمنون طبعا أين هو لكنهم يبحثون لعل وعسى .. ثم اذا به خارجا يخطر ويفح من دار روايح وولدى طراوه جالسين على مصطبتهما امام باب الدار ، يودان لو أخذاه الى دارهما لو قتلا روايح .. لكن من يستطيع ؟ لا رجل فى البلد يقدر على المجاذفة انها عندئذ تقبض على خصيته حتى ترغمه على

الركوع على ركبته وتجعله فرجة لعابرى السبيل يقولون سوف تموت يوما وينبت الريش فى وجهها بما سرقت من طيور كما حدث لأمها التى كانت لصة أكثر خطورة ومهارة الف مرة من روايح .

لكن البنات اذ يتحدثن عن شوق .. الحاجة شوق ، حلاب جاموستها ملء شلية هائلة مختوم بطبقة كثيفة من القشدة .. اذ تتحدث البنات عن الحاجة شوق يكن مبهورات واسعات العيون بالاعجاب وعلى أطراف شفاههن ابتسامات خبيثة فرحة ..

ــ عينى على شليتك يا حاجة شوق ..

ــ عندها جاموسه مفتريه ..

كل شيء فى دارها الكبيره كتير ، مات عنها زوجها فقامت بمعاش الدار ورعاية الغيط بهمة الرجال وهى بين عيالها .. الأب والأم .

واذ يزورها الحاج كريم يهتف مناديا : يا ستار ..

وتخرج اليه طويلة ناهضة الصدر كأنما لم تلد ولم ترضع .. واسعة العيون .. سمراء ندية الوجه ضاحكة ..

ــ اهلا بالحبايب .. مرحبه يا حج كريم .. رجل عزيزه ..

ويترك لها يده تقبلها مرتين وثلاثا ويربت على كتفها ويقبل راسها .. يجلس على مصطبة وسط الدار فيما يلى الباب وتجلس هى على الأرض بين يديه تنكش بعود فى يدها تحكى ، وينصت الحاج كريم ، كلامها مرتب وهادىء ، وحينما يتكلم الحاج كريم تنظر اليه ضاحكة العيون ..

احيانا يتمنى عبد العزيز لو كانت الحاجة شوق هى امه .. حينما كان طفلا يذهب مع أبيه الى دارها لتضمه اليها ، لازال

يحس حنان ضمها له لا يذكر ان أمه ضمته او دللته كطفل ، طول عمرها جهمه منهمكه فى شغل الدار ، وبالليل تنام كالحجر من فرط التعب ..

حينما يعود الحاج كريم الى الدار يحس عبـــد العـــزيز انه مشتاق للكلام الودود ، ولكن امراته تثير النـــكد وتتــكلم بعصـــبية عن الخراب المحتوم ، ما أغرب ما تكلمه شوق ونضحك عيونها فى وجهه ، لقد ذهبا الى الحجاز معا ، كانا فتيين يقومان على خـــدمة سائر الحجاج حبا وكرامة لا يفتآن يتكلمان عن هذا ، وويهز الحاج كريم رأسه مؤمنا وهى تقول له :

ـ ربنـــا مش هيفضحك أبدا يا حج كريم .. بيتك انشـــاء الله هيتنه مفتوح ..

البنات يعرفن ميل الحاج كريم الى الحاجة شوق وعبد العزيز يعرفه يبتسمون فى خبث وتواطؤ ويحزم تامر أم عبد العزيز بترك الثرثرة والالتفات الى مافى الأيدى ..

طشت كبير ملىء بالدقيق الأبيض المنخول المتكوم هشا ناعما تقوم ام عبد العزيز الى جرة الملح تدس يدها وتستخرج الخميره ، هنا تحفظها ، لا تفرط فيها أبدا تضعها فى العجين وتأخذ منـــه قطعة بدلها تحتفظ فى جرة الملح ، وهكذا فان هذه الخميرة المبروكة تنتقل من عجين الى ـ عجين منذ متى لا أحد يعلم لاتعيرها لأحد أبدا تحيطها بالأسرار والغموض ، اذ ابتها بماء دافىء فى اناء صـــغير ، حفرت حفره عميقه فى الدقيق الأبيض ثم صبت الخميره الدافئه فى الحفرة باناة وقداسة وارتجاف وهى تبسمل ، البنات حول طشت الدقيق على وجهن اهتمـــام غير عادى يبسملن هامســـات بشفاه مرتجفة وســـائل الخمـــيرة الدافىء ينساب فى حفرة الدقيق حتى عبد العزيز نفسه بسمل باهتمام ، بنت واقفة بين يديها اناء الحليب المغلى تدفق سيل اللبن يخرج منه البخار فوق الخميرة فى

الحفرة التي فى الدقيق حينما افعمت الحفرة باللبن الكبين عليها يعجن العجين بأيديهن ، الأذرع تدك الى المرافق ثم تخلص بصعوبة الكل يعمل .. الماهرة تضحك من الصائبة وتعايرها الخصل تتدلى على الجباه ، الضحكات والأنفاس المبهورة وصوت أذرع ترتطم بالعجين أطواق الشياب تبدى الاثداء الصغيرة والحلمات السمراء الدقيقة ، حمى العجين تميتهن من الضحك ..

ـ بس يا ست أنت وهى .

يخلصن أذرعهن ويمسحن ما عليها من عجين وتسرى أم عبد العزيز وجه العجين بيدها .. وهى تبسمل والبنات مجهدات يتنفسن بصعوبة غطين طشوت العجين ورصت واحدا اثر واحد، خبزا وقراقيش سوف تخبز وتملأ بها صحارتين تحملان على جمل عمر فرهود وترسل بيت الخدمة فى طنطا .

الآن لاشىء يعمل سوى انتظار اختمار العجين ، جلست البنات كل واحدة فى مكانها بين أكداس الأشياء صامتات واللمبة ترسل على وجوههن الضوء الخابى والظلال ، خرجت أم عبد العزيز ربما لتطمئن على الصغار النائمين بالغرفة الأخرى أو لأى شىء آخر فهى ابدا لا تجلس فى مكانها ساكنة تنتظر .. طشوت العجين مغطاة بالشياب ، ملايين البكتريا تعمل عملها الآن فى العجين .. أو سر خميرة أم عبد العزيز .. ان الحياة الكامنة الغامضة فى جوف العجين تخلق جوا غريبا فى الغرفة ، البنات مائلات الرؤوس على الأكف يتكلمن مخافتات كدجاجات يبتن فى خن .

ما الذى جاب سيرة امراة عمر فرهود الجمال ؛ المراة الطيبة الدقيقه الحجم الناعمة الصوت . كان أبوها فقيها ، مات تاركا لها ستة قراريط فى الحقل وترك فى صدرها كلام الله .. وترك لها كتاب أبى معشر ..

ذلك الكتـــاب الغريب الذى يضم بين دفتيه صنوف السحر والعمل ، من وصل الى سره وفك رموزه سخرت له الجن وأصبح قادرا على أن يفعل مايشاء ، يوقــع العقول فى الخبـــل ويزرع كراهية النساء فى قلوب الرجال ، ويربط الذكــور عن الاناث ، ويستطيع أيضا أن يبرىء المرضى ، ويداوى تفزع الأطفال وصراخهم فى الليل ، لقد رأى عبد العزيز هذا الكتاب ورأى فى صـــحائفه الصفراء الجداول المقسمة فى خاناتها الرموز والأشكال الغـريبة وقرأ فيه عن مواد تمزج وأشياء تحرق ومسامير تدق ، وأشــكال من الورق على هيئة الرجال والنساء تخزق عيونها بالأبر ولفائف من كل شىء عظام الموتى وريش الطيور وجلود الثعابين تدس تحت الاعتاب ليخطو من عليها من يراد به الشر والخير .. وقرأ كل هذا عبد العزيز وهو لا يصدق شىء منه ولكن الرعب يلابسه ويصك قلبه وتتكلم احدى الاخوات ــ خائفة واسعة العيون غارقة الملامح فى الظلال والضــوء الشاحب ..

ــ بس الوليه دى ما بتعملش بالشر ابدا .

انما تذهب اليها النساء بشىء من ثياب عيالهن فتقيس هــذا الأثر بالشبر والقيراط وتعقد فيه العقد ثم تقيس العقــــد وتقرأ التعاويذ والتسابيح الى أن تعرف تماما علة المصاب فتصف الأحجبة والبخور وما يشرب وما يدلك به الجسد .. وهكذا هى لا تعمــل عملا يضر بأحد .. تهتف احدى البنات ضاحكة :

ــماسمعتوش على عمر فرهود وعلى اللى جرى له ...

وتهتف البنات فى نفس واحد .

ــ ايه .. ؟

انفرد مرة بكتاب ابى محشر ، اراد أن يجرب ما فيــه طفق يقرأ التعاويذ دونما معرفة بما فعل فان هو الا جمال لا خبرة له

بشيء من أمور الكتب ، وتصادف أن ما قرأ كان تعاويذ تدعو جن الخدمه الى الحضور فحضروا بين بين يديه وانتظروا أن يأمرهم بشيء أو يصرفهم لكنه أرتبك ولم يفتح الله عليه بشيء يقوله ويبدوا ان الجن قد اغتاظوا فقلبوه زرع راسه فى الأرض واشرعت ارجله الى السقف ، وسقط ثوبه عن عورتيه ، وغرقت البنات فى الضحك والأخت تحكى عن دخول امراته عليه وكيف تصرفت بسرعة فصرفت الجان وانقذت عمر فرهود .. هو هكذا يقع دائما فى الخطأ وهى به عطوفه يلجأ اليها كالطفل ..

لكن أحدى البنات كانت ساكنه لا تشارك البنات ضحكهن واسعة العيون شاحبة الوجه بالخوف ، قالت في صوت سليب مرعوش ..

ـ انا خايفه

شمل الصمت الجالسين جميعا تسمع عبد العزيز انه لا يصدق بالعفاريت لكن الخوف يتسلل الى قلبه ، خارج غرفة المعاش خارج الدائرة الصغيرة من الضوء الشاحب يقبع الظلام والسكون ، السكون الملىء بالهمسات الغريبه .. حاول أن يسيطر على مخاوفه صرخ فى اخته ..

ـ خايفه من ايه يا بت

ولكن البنت تئن كقطة مريضة وعيونها زائغة ..

ـ انا خايفه

بدأ عبد العزيز يرفع صوبه بالكلام حتى يهزم مخاوفه هو

ـ كلام فارغ .. قولة عفاريت وكلام من ده

وتجاسرت أحدت البنات لكن رنة صوتها كانت تشوبها الرجفه

ـ دا بنى آدم هو اللى عفريت

وبدأت احدى البنات تحكى في صوت هامس لا يكاد يسمع

ـ عاملين لمرات محمد كامل عمل
وشمل السكون حتى لا تسمع نأمه
ـ كاسبين لها على لوح كتف عيل غريق
بلعت ريقها
ـ ومدفون فى تربة مجهوله
بدأ الخوف مرة أخرى يزحف على قلب عبـد العزيز والبنت تحكى
ـ كل ليلة بالليل بتطلع ندور فى الترب
صاح عبد العزيز ليسكت البنت ا لتى تحكى
ـ بلاش خرافات .. طول عمرك كدابه
والبنت تلح
ـ آى والنبى .. بيقولو كده
سـمع صوت أم عبد العزيز تنزل السلم ، طـرد الصـوت أشباح المخاوف ، ودخلت الفـرفة كشفت عن العجين اختمر وفاض من الطشـوت ..
ـ الاقرع نفخ فيه
ـ مستعجل اوى عالزواده تروح له
وتكلمت أم عبد العزيز بحزم
ـ يالله يا ستى انت وهيا .. النهـار ملا الدنيـا .. عاوزين نشوف حالنا ..

خرج عبد العزيز الىوسط الدار ، معتم لكن النهار يملأ السماء انطلقت الحمائم والدجاج والبط من الاختان واقبلوا يلقطون ماتلقيه اليهم مراة الحاج كريم الاخرى من حبوب ، ضحك عبد العـزيز دائما يوكل اليها أقل امور الدار شأنا ، كلمتها أم عبد العزيز .

ـ بعد مايشربوا احبسيهم تانيعشان مايلخموناش فى الحبيز.

واطاعت صامته بعد ذلك سوف تكنس الدار ببطء وسكون . عبد العزيز يتأملها والضحك يغالبه اذ يتذكر ماحدث فى سفرتها الأخيرة الى أهلها فقد أهدوها ذكرا من البط وضع على الكانون من الصباح الى المساء والنار مستعرة تحته ؛ وحينما نقدم المساء فرش الحصير فى وسط الدار ووضعت الطبلية الكبيرة وجلس الحاج كريم فى الصدر وحوله عياله وأنفاره ، وجىء بالأرز والفت والطبيخ ، لكن الذكر لم ينضج بعد والمرأة غارقة فى الخجل قام بنفسه الى الكانون وجس اللحم ، فرد اللحم اصبعه كأنه المطاط تناول السكين وشققه وأوصى بأن يوقدوا عليه مرة أخرى من باكر .. عبد العزيز يضحك منها هى لاتوفق فى شىء تعمله أبدا . لكنها طيبة وديعة ودودة ، تزوجها الحاج كريم بعد موت أم رشيدة ابنة عمه ، وأحب زوجاته اليه بعد أن ماتت ذهب الحاج كريم الى اخواله زوجوه هذه .. كانت أم رشيدة أحب الناس الى قلبه بعدها لم يجد فى الزواج سعادة ..

زعقت أم عبد العزيز فى صغرى البنات :

ـ روحى يا بت نادى أم صباح ..

ـ واندادى رشيده كمان ..؟

ـ ونادى رشيده كمان يا ستى ..

أم صباح هى الأجيرة التى تقعد أمام الفرن فى الخبيز وستأتى معها ابنتها الفارعة الشامخة الاثداء والتى تثير عبد العزيز لن تفلت منه اليوم .. وستأتى رشيدة وتميتهم ضحكا بسخرياتها سيكون يوما غريبا يوم الخبيز هذا زياط وضحك تقوده رشيدة ، يا لها طول عمرها مريضة العينين أعفاها هذا من شغل الدار ، كانت تقضى طول النهار عاكفة فى غرفة على السطوح نظيفة الثياب

ناعمة اليدين ، فهى لا تشتغل وتسافر كثيرا الى طنطا لعـــلاج عينيها وتقيم أياما طويلة عند أقارب امها .. تعلمت من بنات البندر أشياء كثيرة ولبست الثياب البندرية وحلمت بالزواج من افندى يرحل بها عن البلد وتأتى فى الأعياد فقط تنزل من العربة وتهتف بأولادها النظاف المؤدبين :

ــ بوس ايد خالتك يا ولد .. بوسىايد خالتك يابنت .

لـكنها تزوجت من فلاح ضخم الجثة يغزل الصوف وبصنع منه جلابيبه وطواقيه وملافعه ، تزوج قبلها من امراة تركت له بعد موتها أولادا كثيرين ، قرع الرؤوس قذرين ، يوم زفافهـــا كان عبد العزيز طفلا رأى العريس الهائل يدخل فى جلبابه الصـــوفى منتصب حول جسده كأنه مصنوع من الخشب ، وهو يمشى يخب فيه عندئذ انفجر عبد العزيز صارخا .

الآن هى لا تكف عن الشغل فى دارها وكلما أفاقت من أعباء الدار سخرت من كل شىء وأماتت من حولها ضحكا ..

جلست احدى البنات أمام الفرن تجـرف من داخـله التراب الذى تخلف فيه عن أيام خبيز سابقه كان هذا الفرن فى الليــل قابعا فى صدر وسط الدار بفتحتيه الهائلتين كتلة معتمة مخيفــة بعد أن سوف تتوهج فيه النار وحوله النساء صاخبات ..

وضعت الطبلية الـكبيرة أمام الفرن فرشت حولها قطع الحصر القديمة والأجولة والزكائب وضع طشت العجين بجوار الطبلية ، وجلست اليه أم عبد العزيز فرشت الطبليـــه بالرده وبدأت هى تقرص من العجين قرصات وترصها واحـــده بجوار الأخرى على الطبليـــه ..

دفعت أم صباح البا بداخلة ووراءها ابنتها الفارعة صباح ، صفق قلب عبد العزيز فى صدره ، جلس على المصطبة ســـاكنا

حذرا يرقب فى هدوء .. هتفت أم صباح :

ـ صلاة النبى أحسن بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم توجهت مباشرة الى الفرن وجلست أمامه وكلمتها ام عبد العزيز :

ـ يالله يام صباح سمى كده وونعى ..

البنات جالسات حول الطبلية ، وكذلك امرأة الحاج كريم الأخرى كل واحدة منهن فى يدها مطرحتها .. سكن الجميع .. وبدات شفاههن ترتعش بالبسملة عرضت أم صباح عود حطب على شعلة اللمبة وهى ترفع صوتها :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ياهادى يارب .

قذفت بالعود المشتعل الى الحنية وبدات تناوله عودا من الحطب وراء عود لكى تزكى النار ، البنات تتناول الواحدة منهن قرصة العجين وتدقها بكفها على الطبلية حتى تدحوها قليلا ، ثم تنقلها على مطرحتها المفروشـ بالردة وتظل تضرب وجه الرغيف براحة كفها وتحركه على المطرحة ومساحته تكبر رويدا رويدا حتى تكاد يغطى مساحة المطرحة نتطيره فى الهواء نافخة الردة من تحته وتتلقاه عليها مقلوبا وتعيد الكرة ضاربة وجه الرغيف بكفها حتى تفيض أطرافه من حواف المطرحة ..

امتلأت حنية الفرن بنار مستعرة وتناولت أم صباح أرغفة البنات على مطرحتها طويلة اليد ، ثم زجتها على عرصة الفرن هناك ينبسط عليها رقيقا ابيضا ثم تدب فيه الحياة وينتفخ ويتململ فى مكانه حتى ينضج ويتورد وجهه فتسترده المرأة بعودها الحديدى ..

بدأ دخان الفرن يعبق فى وسط الدار حتى كاد يدارى

الحمائم على البنانى تنكمش على نفسها ثم تطير بعيدا عن الدخان فى أعالى السطوح والعصافير فى عريشة وسط الدار تتقافز وتزقزق فى حركة لا تكف وذرات الدقيق تطير فى جو وسط الدار ساخنة من سخونة الأرغفة الخارجة من جوف الفرن صفق المطارح وازيز الحطب المحترق وثرثرة البنات يجعل الأم ترفع صوتها اذا أرادت أن تصدر توجيها حتى تكاد تصرخ ليسمع كلامها وبين آن وآخر يفتح الباب الكبير وتدخل امرأة او صبية تصيح بأعلى صوتها :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم خبيز الهنا ياولاد .. كل سنه وانتوا طيبين ..

وترد البنات تحيتها فى كورس ضاحك صاخب ويدعونها للمساعدة :

ـ مدى ايدك والنبى علشان يستبارك .

وترد القادمة مجاملة :

ـ مبروك باصحابه وباللى رايح له ، نظره ياسيد ربنا يخلى عم الحاج وميقطعلوش عاده .. ابدا ..

ثم تخلع نعلها وتأخذ لنفسها مطرحه وتجلس الى الطبليه .. ويدخل صوتها ضمن جوقة الضجيج والضحك والزياط والثرثرة .. لقد أتت لتأخذ لدارها نار ..

ـ والنبى العيال فى الدار لوحدهم .. وورايا شغل الدنيا ، ومانى فاضيه ابدا ..

والبنات يفرينها وحمى الخبيز تأخذها ..

ـ ياختى اخبزى رغفين .. دا خبيز سيدنا السيد ..

تخبز رغيفا وآخر حتى تكاد تنسى نفسها .. ثم تهب واقفة

تنفض الدقيق عن حجرها وتشعل لمبتهـــا وتأخذها وتفر فرارا وصياح البنات وضحكهن يلاحقها ..

عبد العزيز يرفع عينيه عن صباح ويداها تعملان عملا دائبـا فى الرغيف على المطرحة ثدياها يرتجفان تحت جلبابهـا الخفيف حمرة خدودها قانية بالجهـد تحت ذرات الدقيق البيضـاء التى تتجمع على وجهها ورموشها ، فتحة الفرن تستعر فيها نار حمراء لهابة أم صباح تناولها رغيف اثر رغيف ، البنـــات غارقات فى الضحك والثرثرة هن جميعا يكون آلة صاخبة دائبة الأذرع يهب منها هباء الدقيق والأم جهمة ســـاكنة تقرص العجـين وترص القرصات على الطبلية بلا انقطاع ..

دفع الباب فصار منفتحا ودخلت الحاجة شوق طويلة ضاحكة رائقة فى ثوبها الحريرى الأسود

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. صلاة النبى .

ارتفع ضجيج بنات الحاج كريم وصاحباتهن وقف عبد العزيز من مجلسه على المصطبة فيما يلى الباب مباشرة ، ضمته الحـاجة شوق الى صدرها ناعمة الوجه والثوب ورائحة صابون حمامهـا المعطر ، تخلص من عناقها مرعوبا من شىء عارم يجرى فى عروقه .

ـ ازيك يا حبيب عينى .. يخليك لابوك يامنايا ..

ثم مشت تخطر مباهية الى يمة الفرن والبنات :

ـ عواف ياصبايا .. خبيز الهنا .. كل سنة وانتوا طيبين .

تشتعل الهيصة والزياط .

ـ والنبى ياخالة الحاجه ما الصبح نقول ماجتش ليـــه .. تعالى هنا جارى .. عشان يستبارك .

ـ هو انا ياولاد بقيت اعرف اعمل حاجه .. العواف يا ست أم عبد العزيز ..

ـ اهلا ياختى .. يزيدك عافيه ..

وتبادلا سلاما دون قبلات .. وتواصل حديثها للبنات .

ـ البركه فى الصبايا .. احنا خلاص .. ايامنا راحت .

وتصرخ البنات مستنكرات وأم عبد العزيز ساكتة مرهفة الحس للمباهاة الخفية فى نبرتها :

ـ ياحومتى ..! ايامك راحت ! ! دانتى شاطرة الشاطرين يا حاجه ..

وتضحك راضية عن الثناء وتجلس الى الطبلية بثوبها الحريرى وتتناول المطرحة وتشرع فى الخبيز وعبد العزيز يتأمل أكتافها وساعديها ، ليس فى النساء مثلها أبدا ..

ـ أنا قلت مايفوتنيش خبيز السيد البدوى .. أخبز رغيف ولا اتنين .. ان طلعوا وحشين أبقى آكلهم آنى ..

وتغرق فى ضحك مكركر مسرور .. ويقارن عبد العزيز بينها وبين صباح . هذه هى الاكتمال الرائع ، وتلك هى البداية المزدهرة .. البنات يصحن مستنكرات :

ـ وحش ؟ عمر عيشك ما يبقى وحش ابدا .. طب هنحلم رغيفك ونشوفه .. يا أم صباح رغيف الحاجه آهه .. خدى بالك منه .

وتتابع العيون رغيف الحاجة وهو ينفرش على العرصة رقيقا أبيضا .. ثم يتململ وينتفخ هائلا كديك مزدهى بنفسه وتصيح البنات مهللات وتضحك الحاجة معهن ..

ـ صدفه ياولاد .. ربنا مش عاوز يكسفنى ..

لـكنها تحل طرحتها ويبدو منديل راسها الـكحلى على شعرها المسبول اللامع وغديرتيها الـكبيرتين سارحتين على ظهرها مربوط فيهما مفتاح صندوقها وتشمر عن ساعديها تاركة نفسها مـع حماس الخبيز ..

ويصر الباب الـكبير مرة اخرى لتدخل منه رشيدة صـائحة باخواتها :

ـ يا قللات الخير ..

ـ هيـه .. أم كريم أهه ..

وتكتشف عبد العزيز على المصطبة ..

ـ يا حبيبى ..

وتضمه الى صدرها فهى تحبه بشكل خاص وهو يضمها بقوة قامتها القصيرة وأكتافها الضيقة ..

ـ ازيك يا عبد العزيز .. اخواتك قللات الخير دول .. بقى ياولاد مش تقولولى على بيات عشان أعرف آجى بدرى .. سامعه حسك من بعيد ياحاجه شوق .. عواف ياخالتى ..

تلتفت الى أم عبد العزيز تسلم عليها وتقبل يدها قبل كل شىء ـ رشيدة لاتهمل الأصول أبدا ـ ثم تسلم على الحاجة ..

ـ سامعه حسك من بعيد ياحاجه .. قلت هو الخبيز من غير الحاجه شوق يبقى له معنى ..

ـ يخليكى يا نور عينى ويحلى لك لسـانك .. بنت ابوكى صحيح يا رشيده ..

هكذا يقول كل الناس عن رشيـده اثيرة أبيها .. نزعت

طرحتها ودخلت فى حومة الخبيز ، واذا كان المجلس فيه رشيدة والحاجه شوق فهو أحلى المجالس ، وهذا خبيز السيد البدوى وبعد أيام سيكون المولد ..

تتوسل احدى البنات ..

ــ رشيده .. والنبى تخلى أبوكى ياخدنا معاه يارشيده .. هساعدك فى طبيخ المولد . والنبى يارشيده ، مش حخليكى تعوزى حاجة ابدا ..

ــ من عينى ياحبة عين اختك . حاضر ياختى ..

ــ وانا يارشيده ..

ــ حاضر ياروحى ..

ــ وانـــا .. !

وتتدخل الحاجه ضاحكة :

ــ كلكم ياولاد .. ليه .. دا فرح .. من السنه للسـنه .. نظره يابو فراج .

وتزقطط البنات فرحات وتطير المطارح فى الهواء وتتشقلب الأرغفة عليها فى خفة ، ومن الحر والجهد والسرور تخلع الحـاجه جلبابها الحريرى وتبقى فى قميصها البمبى ، وتتلوها البنـات ورشيدة ، قمصان لبنى وبمبى واسعة الصدور ، قصيرة الأكمام ، ما الخجل ..؟ لايوجد غرباء وعبد العزيز لا خطر منه ، وان كانت ام صباح تنظر ناحيته محذرة ..

ــ ماتآمنش للدكير ولو كان صغير .

ينكس راسه مكسوفا وتضحك منه اخواته ثم يرفع عينه ليرى ساعدى الحاجة وصدرها ونحرها وضحكتها والدقة الغائرة فى ذقنها .. لـكن قميص صباح المهلهل مقطوع عند صدرها ويبرز القطع قمة ثديها سـمراء دقيقة الحلمة ، صرف نظره سريعـا

وقلبه يكاد يخترق صدره ، يعود .. تلتقى عيناه بعينى صباح تسرع يدها لتضم دفتي القطع على ثديها ثم تسرع يدها الى الرغيف تاركة القطع ويقفز الثدى خارجا من القماش الواهن ولا يستطيع عبد العزيز أن يحول بصره وتستمر اللعبة وسط الضجة وهياج اللهب وصفق المطارح وذرات الدقيق الساخن الطائرة والضحك والزياط والثرثرة ، تستمر اللعبة .. تضم القطع على ثديها ، ثم تسرع يدها الى الرغيف فيقفز الثدى خارجا ، وعبد العزيز مبهور الأنفاس يكاد يموت في مكانه .

ـ والنبى تليقى فى الموده يارشيده ..

وتتأمل رشيدة ذراعيها الممتدين الى المطرحة تتأمل فى تباهى ساخر وتلعب حواجبها فوق عيونها المريضة وتمصمص شفتاها ، والبنات مائتات من الضحك عليها تهتف بهم مصطنعة تأنيبهم ..

ـ بتتحكوا على ايه .. والنبى احنا حلوين زى الورد .. بس مالناش بحت ..

ضحكهن .. وهمسات الحلقان الرخيصة وعقود العقيق الأثداء البكر ترفع صدور القمصان الرقيقة والحلمات منتصبة تحت رهافة القماش .. وعبد العزيز مربوط الى ثدى صباح الذى يبدو ويختفى ويرهق قلبه خفقانا .

ـ يلبسونا ويريحونا واحنا نبقى أحسن من نسوان طنطا .

وترد الحاجة :

ـ دكهم لهم تعويج شكل تانى ، ومهنكه شكل تانى .. حاجه فاضيين لها وأعدين لها ..

قالت الحاجة هذه الكلمة وهى تهز صدرها فيرتج ثدياها ..

وتدفع كتفها الى الأمام بطريقة فيها غنج أذهل عبـــد العزيز .. وصرخت له البنات مجنونات من السرور .. كيف تختزن الحاجة كل هذا الدلال وراء هذا السطح من الوقار والاتزان انه جنـــون الخبيز ، يوم غريب في الأيام ، عبد العزيز يكاد يقفز على صبـــاح ملتهما ثديها وشفتيها ، متى يرسلونها لتحضر شيئا لينفرد بهـــا عبد العزيز ويفترسها ..

تلوح رشيدة فى وجه الحاجة شوق مستنكرة قولها :

ـ علبهم وعلى ابراشهم والطاخهم وقلة معنتهم .

وترد الحاجة باسلوبها الجديد المكشوف المذهل :

ـ هيا الرجاله ياحبيبتى بتحب الا كده ..

« يا الهى ماهذا ياحاجه شوق » ..

امراة الحـــاج كريم الأخرى مفتوحة العيون ذهولا وام عبـــد العزيز لها قدرة تفيظ على أن تعزل نفسها عن كل هذا وتلاحظ الأرغفة بعين صقر لا تســمح بتبديد شىء او بتلف لقمة ..

تقول رشيدة شامتة :

ـ يحبو زى ماهم عاوزين .. مشوار لحد طنطـــا ومسيرهم راجعين لنا تانى .. وراهم لحد مايرقـــدوا .. يجيبوهـــا من قصيرها بقى ، والبصه البرانيه مالهاش لزمه ..

وتموت البنات من الضحك على جراة رشيدة وتقول واحـــدة منهن موغلة فى الجراة

ـ نسوان البندر حلوين .. ورجالتهم كمان حلوين ..

ويشتعل الضحك وتقو لرشيدة :

ـ والنبى يابنتى عمرك اطول من عمرى .. ياما نفسى فىواحد افندى يرد روحى ..

عينا عبد العزيز دائرتان كعينى قــط حول حلقة النساء المهتاجات يحسب لكل حركة حساب ، الآن سترسل صباح الى غرفة المعاش المعتمة لاحضار مزيدا من الدقيق ، قفز متسللا ولبد فى العتمة وراء الباب .. حينما تجاوز قدها فتحة الباب دفعه بقدمه فانفلق تقريبا هو وهى فى العتمة دقات قلبهما وانفاسهما المبهورة اسرعت يده رافعة ذيل قميصها عن ظهرها والتف ذراعه حول عرى خصرها وضمها اليه بقوة انطرح راسها الى الخلف .. وسقط اناء الدقيق الفارغ من يدها الممدودة على آخرها .. ثدياها تحت انف عبد العزيز بيده الاخرى ، خلع عنها قميصها تماما .. هزت راسها لتخلصه من طوق القميص سقط مكتوما على الأرض مرغ عبد العزيز وجهه بقوة فى طراوة ثديها وراسها مطروح للخلف وهو بكلتا ذراعيه يضم جسدها العارى اليه وهى تتملص فى يده كالسمكة ، اعتصر خصرها حتى انثنت ساقاها ورقد عليها مفترشا جسدها العارى على قميصها الملقى على الارض يمرغ وجهه فى صدرها ويعضها كقط مسعور فى شفتيها ورقبتها وحلمة ثديها ، وهى تتملص بقوة وسط اضطراب الأنفاس :

ــ لا .. لا .. ياسى عبد العزيز .. لا ..

مد يده لينزع عنها سروالها .. قفزت تحته بقوة خارقة رامية به من فوقها .

ــ والله العظيم هنادى لامك دلوقت آهه ..

هب من فوقها مذعورا من تهديدها ، مرتبكا تعثر فى اناء حتى كاد أن ينكفىء على وجهه ، هتفت وهى واقفة امامه عارية الا من سروالها :

ــ بسم النبى حارسك ياخويا ..

وقال لها مخافتا :

ــ مفيش حاجه ..

لبست قميصها وملأت الاناء بالدقيق وخرجت وهو جالس على قفص مقلوب يسترد أنفاسه اللاهثة ..

حينما خرج وجدها قد انخرطت فى الخبيز تطير رغيفها فى الهواء بانفعال نسيت كل شىء ، اغتاظ ، جلس هامدا على المصطبة يتأمل الخابزات وحمى الخبيز تسرى فى عروقه الى مخ راسه ، وحلمة صباح تتقافز أمام عينيه ، لاشىء يشبع جوعه أبدا ، جوع يجعله يبكى يريد قبلة وعناقا .. يستغرقان العمر لايفيق منهمـا أبدا .. اسند رأسه على الجدار وأغمض عينيه ..

سميره نازله على السلم ، فستانها طائر حول سـيقانها .. ضحكتها تفرش طريقها بالاشراق ..

ـ عبد العزيز ..

هتفت البنات :

ـ سميره .. سميره ..

نادت رشيده فرحه عاتبه

ـ اهلا سمرتى .. مش تقولى عواف ياعروسة اخويا

الخجل دماء حمراء تكاد تقفز من وجه سميره كل الناس تقول ان عبد العزيز سيتزوج سميره حينما يكبران ، قـام لها احضرت له كتابا كـانت قد استعارته منه وفرت هاربه ، تحط فى قلبـه احساسا خاصا ، حزنا خاصا ، دخل الى الفرفة ليضع الكتاب ، الاغلفه المغبره ، رواياته وكتبه ، حزنه الخاص الصغير المركون فى ناحية مغبرا متثنى الاطراف ، وتلك الوريقات الصغيره التى يكتب فيها بعض ما يعن له .. سميره .. صباح .. الحاجه شوق .. فى صدره جفاف لا يرويه نهر ..

وقف بباب الغرفة ، الان ظهر صباح ناحيته ، فتح الباب ودخلت امرأة احمد بدوى .. وصديقه امرأة محمد كمال ، وجهان وجه متورد يبتسم عن اسنان بيضاء نضيده ووجه اسمر ذابل واسع العينين فيه حزن خاص ..

ـ ربنا يعوض عليكى ياختى

تتقبل صديقه التمنيات ناكسه الرأس تخبز دون أن تلتفت لأحد .. عبد العزيز يعرف انها تتعذب بهذا العطف لو كانوا يندمجون فى الخبيز ويتركونها ، لوحدها ، انها تخبز بانفعال تدعو حمى الخبيز لأن تأخذهن بعيدا عنها ، فقط جائت لتخبز رغيفين من خبز السيد لعل وعسى بركة الأولياء تخصب الرحم الناضب ، لكنهم يعذبونها بمصمصات الشفاه والتمنيات والدعوات، والاشارة عليها بالشيوخ والوصفات ..

ـ عمل لواحده صوفه .. تلبسها .. آى والنبى .. العاده ماجتهاش تانى ابدا .. صلاة النبى .. عندها ثلاثة دلوقتى ..

وامرأة احمد بدوى خجله متورده الوجه ناكسه الراى تخبز باندماج ..

ثم تقفز روايح فجأة الى وسط الدار طويلة كالرخ ، طويلة الاطراف خضراء العينين تتلفت بسرعة غير عادية كالحدأه .. انها كالحدأة تماما ، تصرخ منفعله

ـ ازرغت ولا اغنى ولا أقول ايه بس ياخواتى .. عقبال الف سنة ويتن بيتك عمار ياحج كريم يارب ..

ثم تنقض على عبد العزيز تختطف يده فى يدها وترفع الاخرى لاعلى منذره

ـ باذن الله تصبح مدير

ويضج البنات بالضحك ، لايخفن منها ، تسرق الناس جميعا ما عدا دار الحاج كريم ..

ــ اقعدى ياخاله روايح اخبزى رغفيين

ــ مانيش فاضيه يابت .. بخبز لأبوكى محمد العـايق .. زوادة المولد .. قراقيش بتخر سمنه بلدى كده .. رجاله مالهمش ضريب .. هما نور البلد .. من غيرهم تبقى كفره ..

وتضحك لها رشيده وشوق ويقولان فى نفس واحد .

ــ والنبى تقعدى ياروايح

فتح الباب على آخره ، دخل الحاج كريم ومعه أحمد بدوى والعايق والعراقى والأطرش ، سكت الضحك والثرثرة بحثت كل واحده عن طرحتها لتستر نفسها ..

ــ كل سنه وانتو طيبين يا ولاد .

ــ أهلا أهلا نور عينى

صاحت روايح تشير بيديها للعايق والحاج كريم ..

ــ أهــلا .. أهــلا ..

ثم شرعت تتقافز أمامهم راقصة والعايق يكركع بالضحك .

ــ بس يابنت الكلب .

اختطفت شليتها وخرجت تجرى دون مقدمات .. الـكل فرح بالحاج كريم وجه رشيده مشرق .

ــ كل سنة وانت طيب يابا .. يخليك ويخلى رجالتك .

وأسرعت الحاجة وقد عاد وقارها وأشرق نور غريب فى وجهها .

ــ يتن بيتك ياخويا وما يقطع لكش عادة .

ويتهلل لها الحاج كريم .

ـ كل سنة وانت بخير ياحاجة . . يا مرحب .

عينا احمد بدوى على امرأته الخجلة تدارى وجهها بطرحتها العايق يكركع بالضحك والعراقى يستخفه السرور فيضع يديه حول فمه وينادى على المدد من السلطان ، تمتلىء الدار بالضحك والزياط وتصرخ البنات وراء رشيدة مستحلفات الحاج كريم أن يأخذهن معه الى فرح السلطان والحاج كريم يضحك ويقول ٠

ـ انشاء الله ٠٠ انشا ءالله ٠

ثم يخرج ووراءه الدراويش ٠

غرفة المعاش المعتمة عابقة برائحة الخبز والقراقيش .. اللمبة ذات الشعلة ينتشر الضوء الشاحب والظلال أم عبد العزيز جالسهبين الأوانى والجرار وتحتتعاليق حزم البصل والثوموأمامها أهرام الخبز والقراقيش وحولها البنات مجهدات ذابلات العيون تفرز الخبز واحدا واحدا ، تنفض عنه الدقيق بخرقة فى يديها وتنفى عنه التالف والمحروق ، تتركه فى جانب لن يأكله أحد ، ستعيش عليه هى لا شىء يلقى أبدا لن يرضى أحد غيرها بأكله ٠

أتى الحاج كريم ونظر فرحا الى أكوام الخبز والقراقيش ثم مضى يهز رأسه مسرورا مبتسما للبنات ٠

ـ كل سنة وأنتوا طيبين ٠

وترد أم عبد العزيز ٠

ـ حطينا عليه السمنه اللى حيلتنا ٠٠ طول السنة بقى ناكل طوب ٠

وجمدت البنات ناظرات الى الأم والأب فى انتظار العاصفة المقبلة ، لكن الحاج كريم يهز رأسه فى بأس ويخرج الى وسط الدار يلتفت الى عبد العزيز ٠٠

ـ لمبة الدوار يا عبد العزيز ٠

ثم يمشى وئيدا خارجا ٠٠ الى الصحاب ٠٠ الى جلسة المساء ٠

السفر

لا يستطيع أن ينام ، يغمض عينيه لتهاجمه احلام يقظه غريبه ، بعوضه منقضه طنينها يدوى فى اذنيه والبراغيث تزحف على جسده تحت ثوبه القديم الذى يخصصه للنوم ، الوسادة تنضح ترابا يزكم نفسه ثم احلام اليقظه المهوشه الغريبة ..

انه الان ينام وحيدا فى هذه الغرفة على السطوح وجد سريرا صدئا قديما فى ركن من أركان الدار جاء به وأقامه هنا .. قالت له أمه ..

ـ تنام لوحدك يابنى .. حاجه تطلع لك ..

اصوات اصطكاك النحاس تاتيه من غرفة الحاج كريم التى تقع تحت غرفته تماما انه حمام الحاج كريم ، فاليوم سفرته الى طنطا .. يغمض عبد العزيز عينيه محاولا النوم فتهاجمه الاحلام الغريبه . الصور تتمرد وتضخم تتخذ حجوما خرافية وأشكالا مهولة ، أفواه بشعة وأنياب تفرز القيح والسم وتقول أكثر الكلمات بشاعة وكفرا .. يقبض بيده على عامود السرير النحيل الصدىء ويفتح عينيه .. لكن الظلام مطبق بلا رجاء .

على صوت اصطكاك النحاس فى الغرفه السفليه تترى صور من طفولته ، الحاج كريم عار تماما واقف على كرسى خشبى وسط الطشت والماء الدافىء يجرى على جسده من الابريق الفخار الاسود ينفخ الماء من منخريه بقوه ويدعو بأدعية حازمه فرحه .. وعبد العزيز صغير قدر الكف لابد فى فرش السرير النحاس الشاهق

الاعمده والماء الذى بطير منه النخار يتدفق من ابريق الفخار الاسود المعلق والام مهوشه النسعر مفتوحة الصدر جلباب رقيق وحيد على جسـدها وكومة العيال على الارض كومة عرى وعرق ورائحـه زاعقـه ..

يحاول عبد العزيز أن يستغرق فى النوم لكن الاشكال تتلوى وتتخذ اوضاعا مرعبه وتصرخ ويسيل منها القيح والسم .. يفتح عبد العزيز عينيه ويحـاول بشـده أن يتشبث باليقظه ان يتعقل الاشياء ويضعها فى نسقها وان ينام نوما هادئا ..

هب عبد العزيز جالسا أضاء مصباحه ليطرد مخاوف الظلام فى الركن كومة كتبه تأملها تحت اغلفتها المتربه علته ودواؤه .. تلقيه كلماتها فى المتاهات الغريبه لم يبـق شىء فى عالمه ثابت معـاول المعروفة الرهيبة تدمرتصوراته واحد اثر واحد.. خلقت فى داخله جسارة ومرارة ، أصبح يدمن وخزها الأليم ..

نزل وئيدا على درجات السلم العصافير فى سقيفة الحطب ، الدجاجات الشرهة الى حبوب الافطار أفراح الحمام المزغبة فى البنانى ، النهار اليقظان المغـول الوجه .. هربت أحلام الليل .. لكن فى زاوية دماغه سؤال عويص وفى قاع قلبه هم لاينكسر ..

الحاج كريم جالس على مصطبة وسط الدار وجهه حليق طرى بالاستحمام والصدار الشاهى وسلسلة الساعه الفضيه تجرى من العروة الى الجيب قاطعه عرض الصدر ، عبد العزيز يحس نعومـة الشاهى وبرودة سلسلة الساعه من بعيد .. يود لو يريح رأسه على صدر ابيه ، لكن هيهات ..

قبل يده وجلس على طرف الحصير محاذرا غير مطمئن بقايا تسابيح فرغ منها الحاج كريم .. حمد لله ودعى لاخوان الطـريق ومسح وجهه مؤمنا .. ثم نادى

ـ ياولاد ٠٠ هاتو لقمه

كسرة وحبة ملح ، ملأ فمه وناول الباقى لعبد العزيز ، طعم فى غاية العذوبة ، الضوء فى وسط الدار رائقا .. وفى الأركان كابيا قليلا .. عصافير متأخرة مازالت عيونها تلمع فى الاعشاش ..

ـ ياولاد ٠٠ هاتو القهوه

الكنكه النحاسيه الصفراء اللامعه والفنجان المزركش الكبير بدأ يرتشف قهوته فى استمتاع حكى لعبد العزيز مرات كثيره عن القهوه وانها مشروب الذاكرين يشربونها سوداء من غير سكر لكى تعينهم على اقامة الليل ساهرين يذكرون الله .. يبكون من حلاوة الوداد ٠٠ لا تهاويل متقيحه ٠٠ لا كلمات كافره رهيبه ٠٠ لم يعد عبد العزيز يعرف حلاوة الوداد أو الاتساق مع نفسه انه يكره الليل ويهرب منه الى وضوح النهار ٠٠ لو يمرغ وجهه فى يد الحاج كريم السمراء ويبكى ٠٠

ـ اشرب يا عبد العزيز

ومد الحاج كريم فنجال قهوة الى عبد العزيز ، أخذه متسرعا خجلا هذه أول مره يدعى فيها الى قهوة ابيه ، ثبت نظره على الارض لا يحوله .. طعمه طيب .. مشروب الذاكرين

احضرت الام طربوش العمامه وشالها اقام الحاج كريم ساقه مثنيه أمامه ، كبس الطربوش فى ركبته فرد الشال بينه وبين أم

عبد العزيز كبيرا شفيفا ، ثم بدأ يطوى بينهما طيات متتالية لكى يصبح شريطا طويلا لطيفا .. عندما كان صغيرا كان يسابق أمه لكى يفرد الشال أمام ابيه ، يفشل وتلتوى كفاه ويضحك منه أبوه ويحاول من جديد .. كان فى كل شىء بهجة ..

بدأ الحاج كريم يلف الشال بعناية حول الطربوش وهو يتابع اهتمام ابيه .. ساهما .

الزوجة الأخرى جالسة أمام باب غرفتها تستند ذقنها على كفها صامتة ، والبنات يقمن ببعض أشغال الصباح فى سكون .. ناول العمامه الى ام عبد العزيز وقام متمهلا الى غرفته وامام المراه بالدولاب لبس قفطانه الشاهى وتحزم عليه بشال كبير مزركش ثم ارتدى جلبابه الكشميرى الكبير ، تناول العمامه .. حبكها على جبهته ونظر الى نفسه فى المرآه وهو يسوى طوق جلبابه على صدره ببسطة كفه ، مهيب مزموم الشفتين ، كل مافيه انيق ليس فيه عيبه ..

« .. توضأ أبو زيد وصلى لله ركعتين وأخذ عدته وحسامه ، خوذته ولثامه عازما على الرحيل الى ارض تونس ووقف بنو هلال حوله مودعين وبالسلامه له داعين والقى ابو زيد بعيونه على النيافى والقفار .. ثم نظر الى من حوله من الكبار وانشاء يقول ، صلوا على طه الرسول .. » نسى عبد العزيز الشعر ، ونسى حتى نبرة احمد بدوى وهو يتغنى بالابيات ، لكن ذلك الحنين الذى احسه وقتها اصبح شيئا خالصا يخالط روحه .. الحنين الغامر للسفر .. للخروج .

وقف الحاج كريم ساكنا فى وسط الدار عيناه البنيتان لاتحطان على مكان .. لا نأمه حتى الحمائم سكنت على البنانى ، كأنما هو قائم للصلاة فما تجسر على المرور من أمامه .

ـ طيب .. نتوكل على الله

ومد يده فناولته ام عبد العزيز العباءه طرحها على كتفه وضمها الى صدره بيسراه وناولته العصا فعلقها على ذراعه اليمنى وبدأ يتحرك فى اتجاه الباب تقدمت اليه ام عبد العزيز فمد لها يده

فقبلتها فى صمت ثم الزوجه الثانية ثم النبات ·· وخرج الى الشارع يمشى وئيدا وبجواره رصين الخطو يمشى عبد العزيز .

شرفة الدوار نظيفة مكنوسه الدكك مفروشة بالحصر البيضاء الشارع لا يزال ساكن التراب من ندى الصباح·· جلس الحاج كريم فى مكانه من الاريكه ركن عصاه ووضع عباءته بجواره واخرج علبة دخانه وبدأ يلف لنفسه سيجارة ، من امامه تتحدر سلالم الشرفه الى الشارع وعبره يمتد الجرن وفيه بضع نخلات ثم تترامى الحقول الى الافق وعيناه البنيتان تجوبان الامتداد المترامى مشوقتان ، وجهه الاسمر السمين ريان بالرضى ، مباهج الرحلة ·· السفر ·· الطريق الى السلطان ، لاشىء يستطيع أن يضع فى قلبه كل هدا الفرح الا السـفر ··

وصعد محمد كامل سلالم الشرفة ضاحكا ، مغسول الجلباب قد لف شالا ابيضا على طاقيته من صوف الغنم الاحمر والقى على كتفه بملفحته وقام الحاج كريم مرحبا وسلما مشتاقان كأنما لم يتقابلا منذ سنين وهما اللذان سهرا معا بالأمس فى ردهة الدوار وقبل محمد كامل كتف الحاج كريم وقبله الحاج كريم مابين عينيه وسلم محمد كامل على عبد العزيز ودعى له ثم جلس على الاريكه مهتاج الوجه بالسرور ·· أخرج حق مضغته وطفق ينكش فيه بعود ويتهف به الحاج كريم

ـ هو الشاعر كان بيقول أيه ياعم محمد ياكامل

ويهز محمد كامل رأسه فى انتظار الشعر ضـاحكا مغمض العينين

ـ أيوه ياعمى أيوه

ـ كان بيقول يا سيدى :

يا عــــرب ياللى ناديتـــولى آدنى جيت
واقف على بابكم وان اذنتـولى آدن خشيت

ـ الله ٠٠ الله ٠٠ الله

ويتقدم محمد كامل باسطا كفه ناحية الحاج كريم عازما عليه بنسعرة من دخان المضغ

ـ ما تحرمناش من طريقك يارب ٠٠ وداد يابو فراج وداد

وما يكاد محمد كامل يجلس فى مكانه حتى يهل احمد بدوى ومعه عراقى الاطرش ضاحكين مهللين عراقى وضع عمامته الحمراء ومشط لحيته لم يسلم وانما وقف وســط الشرفة ورفع عقيرته بالمـــدد ..

ـ مدد ٠٠ يا سيدى احمد يا بدوى مدد

والقى احمد بدوى بنفسه على الحاج كريم يعانقه ، لطيف فى ثوبه الجديد وطاقيته التى تلابس راسه باحـكام وملفحته التى تتدلى شراسفها على الارض من قصر قامته ٠٠ الحاج كريم يقبل رأس العراقى الذى انحنى يقبل يده وهو يقول متغنيا

ـ احباب السلطان عليهم نورا يا سيدى ٠٠ مدد ياعم

وجاء الناس من كل فج امتلأت شرفة الدوار بالوجوه الفرحانه واخرجت علب الدخان وتبودلت اللفائف واخرجت احقان المضـغ وصفقت على الأكف وقدمت للاخوان مبسوط عليها الدخانالمدقوق المندى ، عبد العزيز ساكن فى الركن يبتسم ، السرور الجماعى اجتاح كآبة المساء .. اكتسحها غسلها ..

ما الذى جمعهم اهو زعيق العراقى مناديا على المـــدد ام تلك الانفاس التى تسرب منذ أيام فى البلد ٠٠ حثيثه تنفخ فى كل قلب

نارا وعلى المصاطب امام ابواب الدور فى العصارى وعلى الكيمان فى الليالى الصـــيفيه المقمرة يدور الكلام ماذا عن ايام السرور ، قليلة على مدار العام ، والزمن بينها مفروش بالكد والعناء ، ومولد السلطان فريد فى ايام السرور ، تلك السفره الغريبه الى طنطا ، ثم الليالى هناك متفجره بالاضواء والغناء والهياج ٠٠

ـ والله العظيم لو حتى سرقت لرايح ٠٠ لو حتى مليت حجرى غلة من المخزن وبعته لابد رايح .

وينظر الجالسون الى الشاب الذى استخفه الشوق والى هياجه وايمانه المغلظه ويضحكون فى كل قلب شوق وفى الاكياس الخلقه قد يكون ثمة قروش قليلة أو لايكون ـ لكن الله كريم ـ ومن هنا الى صباح يوم السفر يستطيع الله ان يرفع سبع ســــموات وان يبسط سبع أراضين ..

وفى ذلك الصباح تلبس الجلاليب المغسوله وتعلق العصى فى السواعد وتزدهى الوجوه بالحبور ٠٠

ـ فين احنا من اهل زمان ٠٠٠ الله ينفعنا بهم ٠٠ ويشــــفعهم فينـــا ٠٠

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجور به وتشرئب اليه الوجوه المشتاقه للسفر ٠

ـ ما كانش الواحد منهم يركب دابه وهو رايح للسلطان ابدا ٠٠ ان ركب يبقى أساء الادب ٠

ويهتف محمد كامل من اعماقه

ـ يا سلام ٠٠ يا سلام على كرمك يارب

ويسمع من عشرات القلوب المتزاحمه فى شرفة الدوار والمتكاكئه

حول السور هزيم الانبهار والايمان ونفرق الوجوه ـ المبقعة من سوء التعذية ـ فى رضى صوفى .

ـ نسوف احنا يا عم محمد يا كامل بنسافر فى القطر قاعدين مربعين رجلينا ..

ويتأثر محمد كامل حتى ليكاد يبكى ..

ـ احنا ضعاف يا عم الحاج كريم

ثم ينكس رأسه ويواصل بصوته المشروخ حاكيا عن

ـ راجل نواحى المحلة الكبيره ·· يقوم الصبح يقول لمراته ·· يامره هاتى العصايه عاوز اقوم ازور سيدى احمد الرفاعى فى العراق ·· تناوله العصايه والعصر تلاقيه راجع ·· يناولها بلح عراقى ويقول لها ربنا رزقنى ببلحتين وأنا قاعد اقرأ سورة ياسـين جنب مقام الرفـاعى ··

والايمان يئز فى القلوب كطنين النحل والناس يمصمصمون الشفاه دهشين يحوقلون ويبتهلون ، ويصفق الحاج كريم باطن قدمه المجوريه مغمض العينين قائلا

ـ طاروا على متن حرفى « كاف » و « النون »

دول اهل الخطوه ياعم الشيخ محمد يا كامل

وتبرق عيونه البنيه بذلك الشوق الذى عرفه عبد العزيز اذ يقف فى شرفة الدوار يدور بناظريه يثقل على روحه حبس النهار القعود يتململ فى مكانه والشوق فى عيونه ألم قاتل .. اذ ينشق الطريق عن واحد منهم ، المسافرون فى الزمان ، الجوابون ، الارواح الهزيله الرثه الهائمه فى الريف .

كان ذلك الرجل ابيض الوجه دقيق اللحيه واسع العينيين واذ يزيح عمامته ينسدل على جبينه شعر أسود سبط ·· اخرج من كمه

قطعة حلوى قدمها للطفل عبد العزيز ، وما ذاق الولد اشهى منه
ابدا .. وعرف ان الرجل يثقل نفسه تحت ثيابه باغلال الحديد
ويسأله الحاج كريم .

ـ ليه كده يا عمى

هو احدث سنا من الحاج كريم لكنه يناديه يا عمى

ـ بلاوى الناس .. شايلها على ضهرى

وفى المساء حين اقيم الذكر طار بين الصفيين كالحمامه البيضاء
وجن جنون الذاكرين .

وفى الصباح سأل الطفل عبد العزيز ملهوفا

ـ الراجل فين يابا

والحاج كريم ينظر الى بعبد .
ـ مشى يا بنى .. مشى

واذ يقف الحاج كريم وحيدا فى شرفة الدوار .. وعبد العزيز
عند اقدامه يرى عيونه ترف فى الآفاق بنية يحيرها الشوق اذ ذاك
ينكشف السكون عن طيف مهدم يدب على عصاه احد المسافرين
فى الزمان يتهلل الحاج كريم وينزل درجات السلم مرحبا

ـ أهلا يا عمى ..

عجوزا مهدما كليل البصر رث الثوب يتسند على فرع سنط
يجلس على الاريكه مهموما بنفسه لايرى ما حوله يهمهم بما لايفهم
يتقاطر الاخوان والناس والرجل لايعى ما يكون يخرج حق مضغته
ويفرغه كله فى كفه ثم يضعه فى فمه آنا ثم يستخرجه مرة أخرى
ويودعه الحق يتململ مكروبا ملولا يلقى نثار الكلام ..

يأتى محمود ابو اليزيد حاملا الصينيه النحاسيه الكبيرة ويأتى

كل رجل من دارة بطعام . المكان ناسى وطعام ، الحاج كريم مبنهج لايقر له قرار . ودون سابق انذار يمسك الرجل عصاه ويدب نازلا من السرفه متأنيا على الدرجات والناس تتبعه بالعيون والقلوب حتى اذا كان وسط الباحه امام شرفة الدوار ، اذ به تركبه روح مارده وتلبسه قوة عريبه ويرفع عصاه فى الهواء ويصيح قافزا على قدم واحدة ويدور يرقص رقصة غريبة وصـــــاح مدوى ؛ دوره أو دورتان ثم يعود عجوزا مهدما يدب على عصاه منصرفا والجموع واقفة مأخوذة وهو يغيب مع انحناء الطريق ..

ان روح عبد العزيز تحلق وهو فى وسط هذا الحشــــد من المسافرين ويود لو ينطلق يدور فى البلاد لا يسأل اين ، لا يسأل لماذا ، لكن كيف يسافر الانسان من غير العكاز والحفاء والوضوء انه جنب ثقيل الرأس بعلامات استفهام لا تقهــــر ثقيل القلب بهم لا ينكســـر ..

ويضحك احمد بدوى ويغرق فى الضحك مذكرا الاخـــوان بسفرتهم الاخيرة الى مولد الحســـين اذ عبئوا فى عربه (كاميون) وركب الحاج كريم بجوار السائق والدراويش افترشوا ملافحهم مع نسائهم فى صندوق العربه وظلوا يتارجحون ويضحكون حتى وصلوا الى القاهرة مهشمين من الاجهاد والضحك .. ويشرد محمد كامل .

ـ الشراقوه حيطبوا طنطا بكره انشاء الله .

ويبتسم الحاج كريم بحنان سوف يسافرون الآن ويعدون البيت فى طنطا ومن غد يصل الشراقوة ويقيمون مدة المولد ضيوفا عليهم مكرمين ..

وربما من بكره صـــباح الغد سيخرج الشيخ من داره مرتديا عمامته الخضراء وجلبابه الكشميرى الكبير ويجلس امام دواره فى انتظار

الاخوان ليبدءو الرحله الى طنطا وربما ينعقد هناك امام دوار الشيخ مجلس مثل هذا طلى الحديث ملىء بالشوق الى بهجة السفر ..
ويتصور عبد العزيز الشيخ عباس وقد أهل من بعيد على مجلس الشراقوه امام دوار الشيخ يتحسس طريقه بعصاه فهو كليل البصر حتى ليكاد يميز الأشباح ـ وحالما يستقر له الجلوس ويشرع فى الحديث لا تسكته قوة فى الارض ولا فى السماء ذلك الازهرى الذى هجر دراسته دون ان يحصل من العلم شيئا ومع ذلك فهو يتخذ الجبه والعمامه ويترخص فى افتاء الناس يفتيك بما تريد ييسر لك أمور الدين حتى لو أفطرت فى رمضان عامدا .. لا بأس .. صل لله وكعتين واستغفره يغفر لك .. اذا كنت حنبليا متمسكا فاطعم مسكينا.. ان الله غفار ياأخى لما التضييق على عباد الله.!!؟
ويضحك أحمد بدوى حتى يكاد يقع على ظهره ..

ـ والنبى يا شيخ عباس انت تستاهل يتعملك مقام .. بطنك أوسع من السيد البدوى ..

لكن المستكاوى يصطنع جهامه مضحكهويسأل بلسانه الشرقاوى .

ـ جولى يا شيخ عباس .. سرجة الحمير حلال .. ولا حرام .؟

ويتدخل العايق مصطنعا الجد .

ـ هيا مش حرام يامستكاوى .. بس تقسى قلوب الملايكه .

ويغرق المجلس فى الضحك ويشتمهم عباس .

ـ ولاد كلب حشاشيين ..

فالمستكاوى والعايق يعبدان الحشيش عباده .. ويغرمان بالثياب الناعمه والطيب ، لكن احدا لايدرى من اين ياتى المستكاوى بمعاش أولاده ولا احد يسأل ربما يهمسون انه يسرق الحمير لكن الشىء الموكد انه لا يسرق حمارا مدة موالد الشيخ ..

زمانهم الان ‥ أو صباح غد سوف يجلسون امام دوار الشيخ حتى يجتمع شملهم ، حتى يأتى صانع القهوة الأسود حاملا عدته فى خرجه الصغير وحتى يأتى كاتب الرقى الفقيه الذى لا يكف عن التسبيح أبدا والذى لا يكلم احدا تقريبا ‥ حتى يجتمع شملهم فيبدأون الرحله الى فرح السلطان ‥ وفى امسيه ندية فى بيت الخدمه سيكون اللقاء ‥

كم رقت القلوب وهفت للسفر الوشيك وطارت أجنحه الشوق وحطت على الذكريات الحبيبه يميل الحاج كريم على احمد بدوى

ـ ياترى جوابنا وصل لحسن افندى وعرف معاد المولد

سلمه ساعى البريد الخطاب قراه وابتسم ابتسامه وضيئه ومن غد سيضع الطربوش على رأسه ويزرر معطفه ويقف حائرا على رأس السلم المعتم وخجلا قليلا ثم يستجمع نفسه ويقول لامرأته الواقفه تحمل ابنتها الصغيره

ـ خلى بالك من نفسك

وينزل مسرعا

ظهر العايق وعلى كتفه خرجه وفى يده ساعته ٠

ـ يا أخونا لسه بدرى

ويزوم سليم الشركيسى النجار عصبيا

ـ لما نبدر شوية .. مش أحسن ..

ويسلم العايق ويقف فى شرفة الدوار يتكلم ملوحا بيديه ..

ـ لسه بدرى يا عالم ٠

ويعاجله احمد بدوى

ـ بدرى ولا وخـــرى ‥ انت قاعد فى الدار تعمل ايه ‥ مشبعتش من روايح طول الليل ؟

ويضحك الحاضرون .. ويضحك الحاج كريم مداريا ضحكته .. وفجأه تبدو روايح بذاتها على البعد تنادى العايق وينفجر الضحك أكثر وأكثر .. ويهرول العايق بحجمه الدقيق الى روايح ويقف فى كنفها ضخمه عيونها تبرق كعينى حدأه تكلمه بالحاج وهو يلوح بيديه وكلما اراد ان ينصرف استبقته بأن تجذبه من طوق جلبابه واخيرا أفلت منها وأقبل مسرعا وهى واقفه فى مكانها تنظر اليه كأنه ابنها الطفل مسافرا لأول مره فى طريق محفوف بالمخاطر .. استقبلته فى الشرفه عاصفه من الضحك والتساؤل .

ـ كانت عاوزاك ليه

ـ خير يا عايق

ـ جايبالى ورقه دخان

ـ لازم كنت سبع ليلة البارح

ويضحك العايق ويكركع حتى تبدو أسنانه التى اهلكتها الكيوف

ـ كانت ليله ندى .. جوز حمام وتعميره

ولابد أن كلا من الحاضرين تجاوز التعميره والليله الندى وفكر فى زوج الحمام الذى طهى للعايق بالأمس وكل سرح ذهنه الى البنانى فى داره ، حمام من ذبح أمس مساء ..؟ عبر أحمد بدوى برهة الصمت وسأل العايق

ـ ومافوتش على الجازيه تقولها خليتك بعافيه

ـ لأ

ـ ما لكش حق

ـ شوف يا سيدى

ـ هـه

ـ روايح لها ليلة ما أكون صابح مسافر وليلة ما يكون صابح عيد او موسم ونهار السوق بالليل والباقى انا حر فيه ..

ـ وان رحت ليلة من دول للجازيه

ـ ان روحت صبحيتها الدار تكسر رجلى

وانفجر الجالسون ضحكا وعلق واحد

ـ يعنى روايح كبت ميه بصابون قدام الباب النهارده

وضحك العايق

ـ صـــابون بريحه

نهض الحاج كريم واقفا ضاما عباءته الى صدره بيسراه ممسكا عصاه بيمينه ووجهه وقور هادىء ساكن وقام الحاضرون وقوفا وحل صمت جليل لتوان وتكلم محمد كامل بصوت عميق الفرح

ـ الفاتحه لاولياء الله الصالحين .. ان ربنا يصلح احوالنا جميعا ويسهل لنا طريقنا ويفتح فى وشنا الابواب .. الفاتحه

وقرئت الفاتحه فى همسات لا تسمع وفهم العراقى انهم يقرأون الفاتحه فرفع يداه فى هيئة دعائية وبدأ يحرك شفتيه حتى ادرك انهم ختموا القراءه مسح صدره بيديه مؤمنا ورفع عقيرته مناديا على المدد .. لم يعلق احد ولم ينطق ببنت شفه مشى الحاج كريم وئيدا نحو سلم الشرفه وبدأ ينزل الدرجات فى سكون والجميع ورائه صامتين يخبون فى الجلاليب المغسولة ساهمون سارحون، نحنحات أو مصمصة شفاه اليوم لا تســـمح الانوف فى الاكمام ولا ذيول الجلاليب ، منديل او خرقه نظيفه مطبقه ..

وجه الحاج كريم مشرع الى الامام وعيونه مليئة بالجلال والحنان والشوق ، لم ير عبد العزيز ذلك التعبير فى عيون انسانية ابدا . ، ظل محفورا فى خياله ، اشتياق لايرتوى الى عوالم مبهمة غارقة

فى الصفاء ، حينما كان صغيرا كانت تلك النظرات تصيبه بالخوف أو بالحزن فيمشى فى كنف أبيه ساكنا منكمشا على كيانه النحيل ينظر اليه فى خشوع ويمشى مبهور القلب يتعثر فى حصباء الطريق، انه اليوم فى ذيل الموكب لكنه يحس رفيف هذه العيون تستطلع أعلى الطريق وترين على موكب المسافرين ويراها فى هؤلاء الناس على جانبى الطريق يتقدمون الى الحاج كريم صامتين وينحنون على يده يقبلونها ، اليوم لايجذب يده من أحد يسلمون وهو يهمس لهم .

ـ نراكم فى خير انشاء الله

ويرفع واحد بصره اليه راجيا

ـ سألناك الفاتحه فى المقام ياحج

رجل من القاعدين ، ربما جدب اليد وفراغ الجيب وربما هموم الدار وشواغل الحقل أو فساد الهمة وفتورها كريح واهنة لا تدفع القلاع الى محاط الشوق آه من ثقل المراكب وتلكؤها بالشطوط وتوزع النفس وحيرة الليل .. لكن الحاج كريم يهز رأسه مؤكدا والحنان والتسامح يفيض من ملامحه

ـ انشاء الله .. انشاء الله

وحينما مر موكب المسافرين امام الدار وجد عبد العزيز الباب مشقوقا ولمح عيون البنات تزدحم فى الشق ضحك فى نفسه على لهفتهن الغريبة، انهن يعبدن اباهن الحاج كريم ، من فى البلد لايحبه .. سوف يسافرن من غد لكن اى سفر سيخرجن لابسات الاسود محجبات ولن يسرن فى هذا الشارع السوى الى المحطه .. بل يسقن الى سكه موغله فى الحقول متجنبه سبل الناس يتعثرن فى الكيمان ضاحكات وشاتمات فى السيد البدوى وسككه العثره وسوف يكن فى صحبة رشيدة ومعهن رجل لكنه بالقطع سيكون ذنبا خائبا فاته أن يشارك فى موكب الحاج كريم .

هكذا يكون سفرهن ، يتمنين لو كن رجالا ، ولكن أسوأ الاسفار خير من القعود في الدار ، بحار المخاوف المدهشه ، القطر والكمسارية وعبث ابناء البنادر ، موكب المسافرين جاوز الدار وهاهي امرآة امرأة احمد بدوى وامرأة محمد كامل وامرأة الشركسي النجار . مسافرات مع الرجال يحملن سلال الزواد وتسحب كل واحدةطفلها ماعداامرأة محمدكامل، مسكينة ناكسةالراس كسيرة العينين،باليت الحاج كريم يدعوهن اذن لحملن السلال على الرؤوس وطرن وراء موكب الرجال ، لكن زاد ـ الحـاج كريم لا يحمل فى سـلة بل صحارتين هائلتين تحملان على جمل عمر قرهود الجمال ٠٠ يلتفت عبد العزيز وراءه ليجد شق الباب قد احكم ويضحك فى نفسه مرة اخرى وهو يتخيل هرجهن وعراكهن وجريهن فى كل اتجاه يجهزن لرحيلهن ٠٠ ويتصور امه الان غير مباليه بشيء من هـرج البنات تروح ، وتجيء فى الدار حازمه متجهمه تطعم الدجاج وترعى البهائم او تعد الشوالى لحلاب المساء ٠٠ التأم شق الباب والموكب يمضى والناس يسلمون وفى همس يسألون الفواتيح فى المقام والنسوان فى فتحات الدور ينظرن الى المسافرين ، لكن قد يحدث ان تندفع امرأه نحو الحاج كريم حامله صغيرها ٠

ـ والنبى يا عم الحاج اقرأ الفاتحه لابنى فى مقام السيد

ويتوقف الحاج كريم ويضع يده على رأس الطفل ويدعو ثم يربت كتف المرأه ويمضى والمرأه دموعها تنهمر على خدودها وعندما يجاوزها الحاج كريم ماضيا تطلق زغروده طويله مظلله فمها بيدها وتتردد فى الموكب المصمصات ويعدل العايق من وضع الخرج على كتفه وتلمح فى عيونه نظرة غريبه

ـ ايه ٠٠ ؟ يامرة يا بنت الكلب

ويغالب احمد بدوى ابتسامته ويقول مؤدبا للعايق

ـ خليك في حالك يابن الكلب ·· هيا دوده مابترحمكش ابدا

ويدارى عبد العزيز ابتسامته مكسوفا ثم يعبىء قلبه بالجلال ويمضى مع الموكب ومن بعيد يرى على خليل امام باب دكانه عليه هيئة السفر الجلباب المغسول والوجه الحليق والابتسامه المشرقه

ـ السلام عليكم ورحمة الله ياعم على يا خليل

وينحنى على خليل على يد الحاج كريم ويقبلها ، ويقبله الحاج كريم فى جبينه وفى سكون يمضى الى داخل الدكان ليحضر حصير المصطبه ، رفوف الدكان مزدحمه الى السقف بالعلب والاحقاق والكيزان الصابون والسكر والقماش وزجاجات المصابيح وسائر الوان البضاعة ، العلاقات من السقف محمله بصنوف من ملافح الرجال وشيلان البنات الحمراء والخضراء ، الصناديق بجوار الحيطان مليئه ببلح التمر والعدس والفول وعلى الارض بلاليص العسل الاسود واجولة الارز والملح كل الاشياء تتكدس بلا نظام غارقة فى الغبار والوساخة ، كان ريق عبد العزيز يتحلب وهو صغير حينما يرى الحلوى الملونة فى النافذة الزجاجية الصغيرة فوق البنك ، أما الآن فهو يحب أن يتأمل على خليل يدور بين هذه الاكداس هادئا ساكنا لا يتعثر مثلما تفعل ام عبد العزيز فى غرفة المعاش ·· وحينما لا يكون ثمة زبائن يهجع على جوال مفعم ويفتح امام عينيه كتابا اصفر الصحائف مبقع بالزيت ويسرح ساكنا شاحب الوجه ··

فرش على خليل الحصير الأبيض على المصطبة ومسح عنه التراب بكفه والحاج كريم يهتف به :

ـ كويس .. كويس يا على .

ويجلس ويجلس من يجد لنفسه مكانا ويقف الباقون متحلقين حول الحاج كريم ويأتى على خليل بالكراملة ويوزعها على الحاضرين

.. لم يعد عبد العزيز يسيغها كثيرا يتردد دعلى خليل فى اعطائها له فالأفندية حذرون عادة ازاء حاجة الفلاحين لكن عبد العزيز يسرع بأخذها ..

ــ نفسى فيها من زمان ..

لهم فى كل مكان مكان للجلوس نظيف ولطيف ودائرى وحينما يجلسون ويشرعون فى الكلام فانك لاتدرى متى ينتهون ، دارت اللفائف وصفقت أحقاق المضغ على الأكف وعلا صوت العايق ضاحكا ونظر العراقى حوله غير فاهم شيئا لكنه يبتسم للفرحة التى يراها على الوجوه ..

ويأتى عمر فرهود جريا ، داره على بعد خطوات من الدكان والجمل جاثم هناك هائل الجرم ، يقبل يد الحاج كريم ويقبله الحاج كريم فى جبينه ..

ــ كل عام وانت بخير يا فرهود ..

وصوت عمر فرهود متذللا مشروخا وهو يقول :

ــ سألناك الدعوات يا عم الحاج ..

ــ انشاء الله .. انشاء الله ..

ثم يبتسم لفرهود منبها عليه ..

ــ الصحاحير من بدرى يا عمر .. زوادة السلطان يابنى ..

ــ من عينى يا عم الحاج .. دا فرض عليه .. ربنا مايقطعناش

ــ آمين ..

ثم يبصر عبد العزيز فيسلم عليه ضاحكا :

ــ ازيك ياسى عَبد العزيز .. مش عاوز تركب على الجمل السنه دى ..

ويضحك الحاضرون وينظر الحاج كريم مبتسما الى ابنـــه راضيا عن حب الاخوان له فيقول عبد العزيز خجلا :

ـ بقيت تقيل عالجمل يا عم عمر .

ويضحك الحاضرون ويواصل فرهود :

ـ كان غرامه الركوب على الصحاحير ..

اذ ذاك طفلا صغيرا يقف أمام باب الدار منتظـرا ، ومن بعيـد يأتى جمل عمر فرهود الهائل الجرم ينقل كلاكله على الأرض وهو سائر يتدفع ، وعمر فرهود يتقافز حوله بخيزرانته الطويلة وأمـام باب الدار ينيخ الجمل ، الارتفاع الشاهق يتهاوى حتى يجثم على الأرض والجمل حائر العينين يتلفت شاكا مستوفزا عصبيا وعمـر فرهود يهدىء ثائرته باصدار صوته خاص مستطيل .

ـ هخ .. خ .. خ ..

ويأتى الفتيان خجلون متكسرى العيون لـكن وجوههم مزدهية بالانفعال‌عبد العزيز الطفل يحس هرير الانفعال فى‌صدورهم وينظر اليهم خائفا كارها والبنات فى أركان الدار واسعات العيون بكتمن ضحكات فرحه ووجوههن تكاد تبك دما من الهياج .. أم عبدالعزيز حازمة عارفة لمـا تريد ..

ـ من هنا ياجدع انت وهو .. كل اتنين من ناحية .. بالراحة.

ويهجم الفتيان على الصحاحير ، سواعد مليئة بالمروة ويحمل كل أربعة صحارة ويخرجون بها يضعون الصـــحارتين على جانبى الجمل الجاثم وعمر فرهود مستطار اللب يدور يجرى هنا وهنا .

ـ حاسب ياسيدى .. ماتعديش من قدام الجمل .. بس .. بس كده .. استنى اما اقولك ابقى شيل .

ثم يوثق الحمل على ظهر الجمل بالحبال وأم عبـد العـزيز

عيونها على الصحارتين والبنات عيونهن على الجدعان .. شراران يرقبها عبد العزيز ذاهبة آيبة بين العيون تملأ قلبه بالخوف لكنه يصرف همه عن هذا ويهتف متوسلا :

ـ ركبني بقى يابا عمر .

ـ حاضر ياسيدى .

يوضع الطفل على الصحاحير تقذف له أمه بخرقة بيضاء .

ـ حط دى على راسك من الشمس ياوله .

يقبض على الخرقة غير فاهم شيئا كل همه منصرف الى اللحظة الرهيبة الوشيكة ، لحظة نهوض الجمل من جثومه ، يمتلىء قلبه لها شوقا ومنها خوفا .. يزيد من ارتجاف بدنه مايصل اليه من هدير الجمل الصاخب الغاضب من اثقاله بالحمل ، ومما يصل الى سمعه من صياح عمر فرهود وضحك الجدعان وزياطهم .. وتنبيهات أم عبد العزيز الحازمة وضحكات البنات المرحة المجلجلة ثم يفك عمر فرهود عقال الجمل فيهم بصدره ناهضا بالحمل الى الخلف ويكاد عبد العزيز أن يطير ساقطا على الأرض لولا تشبثه الوثيق بسياج الصحارة ، ثم ينهض الجمل بخلفيتيه فيلقى بالحمل الى الأمام ويكاد أن يقفز بعبد العزيز مرة أخرى ، ثم يستقيم واقفا مباهيا بقوة عضلية خرافية وعبد العزيز عال فوق الجمل الشاهق الارتفاع يكاد يلمس بيده شباك الغرفة على السطوح ينظر الى أمه واخواته على الأرض ويبتسم ثم يمضى الجمل وئيدا منقلا اخفافه الثقال على أرض الشارع وعمر فرهود فرح بجمله خائف عليه من الحسد ..

ـ ياللا السلامه .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

لكن ماخوفه عليه وقد صنعت له زوجته حجابا يعلقه فى

رقبتـــه حجابا مشغولا بالخيوط الملونة والخرز وقطـــع المرايا والزجاج ..

الجمل يندفع فى سيره ، الثقيل والحمل يصر ضائقا بالحبال الغليظة الوثيقة ، وعبد العزيز يهتز مع الاهتزاز الرتيب للصحاحير ولكنه مسرور يرى عيون الناس العيال يعرفون مشوار الجمل الى طنطا ويضحكون له وعمر فرهود فرح بحمل الزاد للمولد .

جميل أن ينظر عبد العزيز لما حوله من هذا المكان العالى بعدت دور القرية وهى توغل فى الابتعاد الوئيد وهذه هى السكة السائرة تأخذك من هنا الى طنطا دون ضلال .. تمر على القرية التوأم ثم على المحطة ثم تسرح بك بين الحقـــول تنحرف يمينا وشـمالا أو تسير صـــعدا لكنهـــا فى النهـــاية تأخذك الى مشـــارف طنطا ، يا للفــرح ..

من كل القرى ناس ذاهبون الى المولد ، المسارب الصغيرة بين الحقول كالعروق فى راحة ورقة الشجر ترفد السكة كل آن بارتال من المسافرين ، الرجال فى الجلاليب المغسولة والبنات فى الشيلان الحمراء والخضراء والليمونية والنساء حاملات السلام وصرر الزاد على الرؤس زرافات لا تنقطع والغناء وصفق الأكف والزياط :

يابو عتبة خضرة .. .. .. ياسيد نادينا
ودبحنا البقرة .. .. .. ياسيد وجينـــا

والجمالة يذبون جمالهم التى تحمل الصحاحير لكن ليس فى الجمال أبدا كجمل عمر فرهود وليس فى الصحاحير أضـــخم من صحارتى الحاج كريم .. وليس فى واجهات القرى دوار كدواره .. عبد العزيز من الانفعال يا بيه يكاد يصرخ فيهم متحديا ..

وثمة فى باخة أمام قــرية كبيرة تقف عربات الأجـــرة .. والريفيون أمم حولها والسائقون ـ يالهم ـ أشـــد شراســـة من

الشياطين ، يلكزون الناس في صدورهم ويدفعون النساء والأطفال ويصرخون ويغالون فى الأجور ، ويصرون على قبض حق السفر قبل الشروع فيها .. وعمر فرهود يصيح مخاطبا عبد العزيز :

ــ ولاد كلب كفرة .. بيقاطعوا على رزقهم .. يمكن مايوصلوش .. يبقوا خدو فلوس ظلم فى ظلم .. مدد يا سيد .

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن ، عربات الأتوبيس مائلة بالناس تثير التراب زوابع وعربات الأجرة محملة على ظهورها وجنوبها ومن خلف ومن أمام، وعند نقطة المرور ينزلون وتمر العربة أمام العسكرى وليس فيها سوى بضعة ناس، ثم تنتظر على البعد فتوثق بالناس من جديد والسائق كالشيطان يضرب فى الناس ويركل لكنهم يلقون بأنفسهم على العربة حتى ماترى من حديدها شيئا ..

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن واذا كان هكذا فانه يرى امتداد الحقول على مسافات شاسعة ويرى القرى والعزب والكفور والمسارب الدقيقة السارحة بين الزرع ، والناس يدبون كأسراب النمل ، ناس يفضلون السير على ركوب هذه الآلات الجهنمية وسائقيها الشياطين يفضلون السير والحديث ، الكلام مسلاة الطريق التى لاينضب معينها ، شاب يكبس طاقيته فى رأسه ويعدل طوق جلبابه ورفيقته تسوى شالها وساعدها المحلى بفوايش ملونة ، يسند صرة الزاد على رأسها وهما يبتسمان ويتكلمان ، أحمد بدوى آخر ورفيقته الى طنطا .. ما أحلى حديث أحمد بدوى حينما كان يحكى عن سفراته الى طنطا مع تلك التى كان يحبهاولكنه لم يتزوجها وزوجت فى بلد بعيد .

وفروع السنط ترمى فى حجر عبد العزيز بنوارها الأصفر المخملى والشوك فى الغصن يخشخش فى الخرقة التى يستر بها رأسه وعمر فرهود يقتاد جمله ناحية السبيل ليسقيه الناس مزدحمون

حول السبيل يضحكون ويتعابتون ورجل يصيح بهم جادا .

ـ اشرب وصلى على النبى .

والسبيل عليه قبة صغيرة كأنه شيخ صغير ، قبة تستر زيرين باردين فى الظل وهناك طلمبة تضخ الماء فى حوض لسقيا الدواب واذا فرغ ماء الزير فان ابن الحلال سوف يملأ الزير الفارغ يملأ عمر فرهود الكوز ويعلقه فى العصا ويرفعه الى عبد العزيز .

ـ اشرب وادعى للى عمل السبيل .. انت صغير ونفسك طاهر .

ويشرب عبد العزيز ويتفكر فمين أقام السبيل ربما هو رجل طيب مثل أبيه الحاج كريم الذى يطعم الناس الجوابين فى البلاد .

ويستخف عمر فرهود الفرح فيضرب الجمل ـ رفيقا به ـ بعصاه ويهتف .

ـ هيه .. هيه .. يالله ياجدع .. خلاص وصلنا .

وبعد قليل تظهر على البعد قبة السيد البدوى وحينما يراها عمر فرهود يزعق زعيقا يشق الفضاء ..

ـ مدد .. مدد يا بو فراج مدد .

ويتأمل عبد العزيز قبة السيد البدوى ونوع من الخوف يتمدد فى قلبه ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجوربه وهو جالس على المصطبة أمام دكان على خليل وحوله الرجال المسافرون .

ـ عين المؤمن تشوف قبة السلطان وهيا بينها وبينها بلاد وبلاد .

يمصمص الحاضرون السماء ويؤمن محمد كامل .

ـ ايوه ياسيدى ايوه .

ويكون على خليل قد فرغ من ترتيب شـــأنه وهمس لامرأته الواقفـــة خلفه فى الدكان بما يجب عمله أثناء غيابه فيخرج الى الناس ينهض الحاج كريم وينهض الباقون ويبـــدأ الموكب مـــرة أخرى مسيرته ..

وعلى البعد كانت رشيدة واقفة أمام باب دارها تنتظر ملهوفة وصول ابيها، تسرع لتقابله فى الطريق وهى تحمل ابنها على صدرها وجهها فرح وهى تنحنى تقبل يد والدها ويقبل الأب رأسها ويداعب ابنها والولد يكشر ويشرع فى البكاء ويبتسم الحاج كريم ..

ـ بتعيط يابن الكلب .. بدل ماتقول اتفضلوا قهوة

وترد رشيدة

ـ عنينا يابا .. قهوة ؟ ياريتك بس تشرب ميه من زيرنا .. يستبارك

ويمشى الحاج كريم وتمشى هى خطوات الى جواره ..

ـ البركة فيكى يابنتى بكره من بدرى يارشيده .. عشـــان أكل الناس يا بنتى ..

ويكون الموكب قد جاوز الدار .. كم تفيض عيونه على رشيده بالحنان ، وكم هى له محبة ..

ـ ارجعى انت يابنتى ارجعى

وتسلم وتقف والموكب يبتعد عنها

ـ مع السلامة تروحوا وتيجوا بألف سلامة .. ربنا ما يحرمناش منكم أبدا .. نور البلد .. الدنيا من غيركم مالهاش طعم .

ويمضى الموكب مجاوزا القرية على الطـــريق الى المحطة ، على البعد فلاحون يعملون فى الحقول يرفع الحاج كريم يده بالسلام ، يترك الرجل عمله ويرد السلام بيده وصوته ، يبقى للحظات ينظر للمسافرين ثم يعود الى فأسه مرة أخرى .. والرجال جالسون على المصاطب أمام أبواب الدور فى القرية التوأم يقرئهم الحــاج كريم السلام فيهتفون بأعلى أصواتهم مجيبين الســـــلام وهم وقوف ويعزمون على الرجال والموكب يضج والدعاء

المحطة رصيف مرشوق فيه عمود يحمل لافته عليها اسم القرية يزدحم الآن بالرجال المسافرين وبضعة نساء ينزوين بجوار السلال والصرر، الحاج كريم يضم عباءته الى صدره ويستند على عصــاه وينظر الى الأفق البعيد .. العايق يخرج ساعته من جيبه .

ـ ياجماعة لسه بدرى عالقطار

يمد الحاج كريم يده فيستند على أحمد بدوى حتى يجلس على رمل الرصيف

ـ بارك الله فيمن جلس

ويتحلق الدراويش حوله ، يضع عباءته المطوية على فخذيه المتربعين ويرتكن عليها بمرفقيه ويشرع بصرة ناحية الأمام ، على البعد تقع قبة السيد البدوى .. وعما ساعات قلائل يكون لقاء الاخوان من البلاد البعيدة ..

عبد العزيز ينقل بصره بين الوجوه المتحلقة واحدا أثر واحد ، الفرحة والخوف ، السفر تجربة خطيرة غريبة محوطه بالمخاوف .. عشرات الحكايات الصغيرة تحكى فى المجالس من الآيبين من الاسفار على الكيان وعلى المصاطب أمام أبــواب الدور تصنع خوف هذه اللحظة ، غسلوا جلاليبهم وحملوا زواديدهم فى الســـلال وها هم سيركبون القطار ..

لكن القطار لم يأت بعد

ـ ألف لك وحده ياعم الحاج

ـ لف ياعايق

اصابعه ناصعة البياض لم تخشوشن بالعمل فى الحقل ماهرة مدربة وجهة أكثر وجوه الحاضرين حيوية فيه شىء ما شبيه بالعالم الذى هم مقبلون على خوض غماره، شىء وقح جسور الكل يراقب وجهه وهو يلف السيجارة وكأنما يحس بهذه النظرات فيزداد وجهه توهجا واستخفافا ..

ـ حاكم ولاد البندر دول ولاد قحبه

تصدم الكلمة البذيئة احساس الدراويش ويفضى الحاج كريم كأنما لم يسمع لكن ثمة جو من التسليم ، ياما سافر العايق ، بناته يعملن خادمات فى بيوت أهل البندر ، يسافر لتحصيل أجورهن وحمل ما سرقته البنات له من هذه البيوت المليئه بالأشياء اللطيفة ، كثيرة يغفل عنها أصحابها أو يستغنون عنها ملابس وملاعق وجوارب ومناديل هم مسافرون الى مدينة أولاد القحبه .. تشدهم بكل ما فيها من ألم اليس فيها مقام السلطان ..

حينما يصعدون الى القطار سيكون ثمة دكتان متقابلتان وسوف يجلس الحاج كريم فيما يلى النافذة، والى جواره أحمد بدوى وفى مقابلته محمد كامل وعلى خليل ويتناثر الرجال وبضعة النساء فى المقاعد على جانبى العربه .. وتحل لحظه دهش وغرابة والقطار يهدر متحركا ثم يقبل الكمسارى من بعيد جهما صائحا يجتـــاح العربة خابطا ظهور المقاعد بمقراضه ويلكز الأكتـــاف ويثور على الارتباك التبلد والوجوه الشاحبة بالخوف ويرتدى وجه الحـــاج كريم قناعا باسلا .. ويقتم من الغضب ويهب ليدافع عن رجـــاله

فما دامت الورقة فى يد الرجل فليس لأحد عنده شيء وما القطار الا مركب موطأ لمن دفع أجرة الركوب . .

حينما كان عبد العزيز طفلا كان يبقى وأجف القلب فى انتظار اللحظة التى يلتحم فيها أبوه مع الكمسرى ويفرح فرحا عارما حينما تنكسر حدة ذلك الأفندى على عناد أبيه الصلب وينصـــت لأبيه مشدوها وهو يحكى عن وقائع كهذه مع ناس آخرين رفيعى القدر .. فما كل الاسفار للسلطان وانمـا قد يدعى الأب لمقابلة مأمور المركز .. ويحكى جهما يتفزز فى مكانه من الحنق ..

ـ قلت له على مهلك يامأمور المركز .. على مهلك توصل .. احنا ضعاف مالناس فى نفسنا حاجه ..

ويكاد قلب عبد العزيز أن يتوقف ويكاد المأمور أن يقفز من مكانه وينقض على الحاج كريم ليعصف به لولا أن يدخل طبيب الصحة ودون أن يعلم بما يجرى يسلم على الحاج كريم بحرارة ..

ـ سعادة البيه ما يعرفش الحاج كريم .. ؟ دا راجل عظيم يكتشف الطبيب انهما كانا يتعاركان يضحك .

ـ انتم لازم اختلفتم .. أنا برضه أول ماعرفت الحاج كريم اتخانقت معاه .. وبعد كده بقينا أصـــحاب .. دا رجل عظيم يا سعادة البيه فى وباء الكوليرا كان بيشيل الناس على كتفه .. ويجلسون ثلاثتهم ويتحادثون ويتوادون ويرقد قلب عبد العزيز فى صـــدره .

ـ المأمور صالحنى وجبر بخاطرى .. ووعد يجى يشرب قهوة فى الخـــدمة ..

ويستخفهم الفرح الغامر أحمد بدوى ..

ـ نبقى نقول للست آم طلعت تخلى الكنبتين عشان لو حد جه ما يقعدش عالحصيره

ويرد الحاج كريم

ـ اللى عاجبه حصيرتنا يجينا ·· واللى مش عاجبه ·· يادار ما داخلك شر ·

ها هم فرحون برجلهم المسافر وهم مسافرون معه بارح الكمسارى العربة ، زالت مشاعر التوتر واستراحت القلوب وبدأ الناس يتبادلون الحديث فى المقاعد على الجانبين والقطار يمضى صخابا بين الحقول ··

وفى كل محطه يقف القطار ويصعد ناس مسافرون ودراويش حول رجلهم ، سلال الزاد والوجوه المليئه بالاهتمام والدهش وقليل من الخوف، أحمدبدوى يتأمل الوجوه والطواقى وأطواق الجلاليب، لكل ناس عاده وطريقه فى الزى والكلام ·· ويتذكر الحاج كريم صحاب له كانوا هنا أو هناك يحكى عن كرمهم وتفانيهم فى حب أولياء الله ، ويحكى محمد كامل عن شيوخ لهم قباب فى هذه القرية وتلك والقطار يمضى الى قطب الأقطاب .

أهل بعض القرى يبكرون بالزرع وتلك حكمة منهم ، ما أقبح التأخر وفتور الهمه وبعض أهل القرى يخططون من الشمال الى الجنوب ويضحك فلاح من قرية بعيدة ··

ـ أمال ياعم .. النباته مابتقباس فى الضل ، أول الشمس ما تفج من الشرق .. تشوفها .

والنساء مذهولات يسمعن طرائق نساء القرى الأخرى فى الطبيخ والحلابورقى الأطفال ومن فى قراهن منالعارفين بالكتب والسحر وصنوف العمل ..

هكذا يكون السفر الى السلطان شوق ولقاء ، خوف ودهشه واكتشاف ..

تحرك الذراع الفولاذى الهائل وارتج الرصيف تحت أقدام عبد العزيز وتفجرت النار في احشاء الونش الأسود وبدأ القطار يتحرك وجوههم فى الشبابيك تضحك له والقطار يبتعد يأخذ شيئا معه كان يعمر القلب ، بدأ يخليه فى الفراغ والوحشة وقف مستسلما ينظر الى القطار وهو يبتعد حتى صار شيئا صغيرا بعيدا .

تحدر عبد العزيز راجعا الى القريه ، تجنب الطريق الذى مشى فيه موكب أبيه منذ ساعه مشى فى درب صغير يتلوى بين الحقول وحيدا ، معهم كان جزءا من جسد كبير يمضى والأقدام زحام يصك الأرض والسيقان تخب فى الجلاليب ، أوحشته الطمأنينة التى يحسها معهم لازال فى قلبه صوت القطار وهو يتضاءل موغلا فى السكون الأرض البنيه ممتده الى الأفق جرداء الا من اعواد شاحبه هزيله جلس على شاطىء ترعة الماء ساكن فضى فى الشمس بنى فى الظل ، شجرة شعر البنت تغسل غدائرها فى ماء الترعه .

ازدحم خياله بصور وجوههم ، زيتونيه الجلد هزيله شاحبه فى حياتهم افراح قليله اسفار قليله ، حينئذ تزد هى هذه الوجوه بالسرور . قبة السلطان على البعد فى مركز العالم والحاج كريم سمين ملىء الوجه بالصفاء والعيون بالتماعة الشوق وهم يبتسمون فى المجالس عن اسنان صفراء وقلب عبد العزيز مريض توجعه علة غير معروفه .

فدفعته كربته الغريبة مرة الى دارها ، دفع الباب ، قلبه ملىء بالكلام حتى ليفيض من عيونه ، كانت جالسه تتناول الماء من وعاء امامها وتغسل وجهها نظرت اليه بعيون صافيه بالود واسعه بالسؤال لكنه لم يجد ما يقوله . كر راجعا وأغلق الباب وراءه .

تناول من الأرض عودا وبدأ يمضغه حتى يتخلص من انفعاله ، طعم العود المر ينداح فى فمه ويزحف على كيانه ، سحت الدموع

على وجهه ، أحس ملوحتها فى فمه ، فام متثاقلا كرجل عمره ألف عام ٠

ـ لازم أسافر

لكن الى أين ٠٠ ؛ شريط السكه الحديد يسير مستقيما ماضيا كالسكين وبجواره خط أعمده التليفون ٠٠ ماشيان الى الأفق حتى يغيبا ، ربما فى آخر العالم ، الى أين يسافر لا يدرى لكن لا بد من السفر فلا شىء يبل هذه الحرقه الغريبه الا سفرة بعيدة ٠٠

تذكر الرجل المسربل بالحديد ووجهه الرائق الطيب ، وسليمان العجوز والرجل أبو جريده المسافرون فى الزمان ما يكاد الرجل يجلس حتى تشتعل عيونه بالشوق وينهض للمسير ٠٠

وتذكر الرجل الصالح سيد من محلة منوف .. ربما يعتصر الشوق قلبه فيحزم لفة الحصير ويحملها على خاصرته حتى اذا ما القى بها بين يدى الحاج كريم استراحت بلابله وآب رضى الفؤاد ٠

ـ أنا أحبهم ٠٠ أحبهم

وتدفقت دموعه حاره غزيره ٠

الخـــدمـة

في المحلة الكبيرة ترعة تشــق قلب المدينة ، تذكرها والناس على شاطئيها كأفواج الذباب يغسلون الثياب وأوعية الطبيخ .. ضجيج النسوة وعراكهن واصطكاك حلل النحاس ، وتذكر حديث أخته بلهجتها المحلاوية والنساء حولها ، والأخوات مبهورات بها .. صارت طرية عذبة السمرة كنسوة البنادر ، تذكرها كيف تأخــذ الثياب والأوعية الى هذه الترعة لتغسلهم ، فالبحر لا ينجس أبدا ولو ألقيت فيه الجيف ، أما ماء الأنابيب فمن يعـــرف مأتاه ؟ ! هؤلاء الناس وترعتهم راقده كبقرة قذره طيعة الضرع تخلى بين اخلافها وبين الحالبين .

ما المحلة الا قرية كبيرة بترابها وذبابها وترعتها ، لكن هذا شارع البحر في طنطا، متنزهاته المهندسة وأشجاره المقصوصـة الفروع ، وواجهات البيوت في العمائر الكبيرة ، كان ثمة ترعة هنا ، دفنت وشيد فوقها ذلك النظام الرائع من اشجار مقصوصة وعمائر عاليه يحس هسيس الأصوات بعيدا تحت أقدامه ، النسوه المتعاركات على شاطيء ترعة طنطا ، ضحك في نفسه ، بعيدات غائرات تحت الاسفلت الذباب والبعوض والبراغيث ، مقبرة الليل والنهار في القرية ، ما ابهى النظافه والنظام ، طنين هذه الاصوات بعيد تحت أقدامه غائر مدفون تحت الاسفلت ..

كذلك ذكرى وجه ذلك الصبي ، يتعذب بالغناء ، ضحك في نفسه مرة أخرى ، الولد كان ناحلا كالطيف ، لكنه كان ممتلئا بحياة تنفجر في الغنــاء الحزين .

يا عينى يا بحر طنطا   عملوك سكه حديد

كان يتسول فى قطار يدور على قرى الاقليم يجمع المسافرين الى طنطا وخلفه اخته تسند الغناء بدفها الصغير .. ذكرى بعيده كطائر شاهق فى السماء لا يبدو منه سوى نقطة سمراء ..

البنات فى الشرف ، الشعور المقصوصة والضحكات الرائقة والحدائق الصغيرة المسورة امام البيوت ، وأطفال فى الأراجيح ونسمة نظيفة تملأ صدره كقلع مرح يطير على النيل ، ووقع حوافر الحصان على الأسفلت اللامع ، وعجلات الحنطور تكر كريرا منتظما .. وتصور ...! فى الشجر ورد أحمر ، يراه للمرة الألف لكنه يحب لونه للمره الالف ، أحمر فاقع الحمره .

سار عبد العزيز وحيدا لكنه كلما أوغل سيرا نازلا نحو قلب المدينة بهت ذلك اللون الناصع النظيف وبدأت تشوبه شوائب رماديه وبدأت تنشط حركة الماره وتسرع الحناطير وتمضى السيارات صخابه تنفث الدخان والبخار من انوفها واذنابها وبدأت واجهات البيوت تغبر وتظهر عليها اللافتات معلنه عن أطباء ومحامين ثم تظهر الدكاكين على الجانبين وعلى ابوابها اللافته الهائله معلنه عن البقاله والسجائر وحتى ورش اصلاح السيارات وبدأت المنتزهات فى وسط الشارع تفقد اعتزازها بنفسها وتتهدم الأسوار اللطيفة المحيطه بها ، وتستنزفها اقدام المارة وتهرىء اخضرارها .. وبدأت الثياب تبدو أقل ازدهارا بل تبدو متسخة أحيانا والوجوه تشحب مرهقة وعنيدة .. الضحك المتدفق يعبر عن جلادة صخرية لا عن سرور عذب رقيق ..

ثم بدا يرى وجوها ريفيه ، بدأت الطواقى والجلاليب ترى فى الشارع منتثره فى غير ما نظام ، جماعات متباعدة يمشون مذهولين مفتوحى العيون يتلفتون فى حذر ، عرف عبد العزيز فى عيونهم

ما يحسه داخله من شوق للنظافه والبهاء والجسامه ، وعيهم يتشرب ما حولهم من عجيب المشاهد وعصى الخيزران .. ؟ لماذا .. ربما هى العاده وربما الخوف ؛ الخوف الذى يصحب الريفى اذ يخوض المدينة فالعصا ان تحكم عليها قبضة اليد يتروى الداخل ببعض الطمأنينه ..

ينتشرون بين أهل طنطا كالشوائب فى ببدر الغلال جماعات يتخطف أولاد البندر أطرافها سخرية ؛ جذبا للثياب وخطفا للطواقى ..

ــ زوارك ياسيد .. كل نطع وأخوه ..

وهم كالحدادى المذعوره يخمشون وينفرون دفاعا عن انفسهم لكن لا يكفون عن السير ولا عن التلفت ووامعان النظرات وشرب المشاهد العجيبه .

السيارات تمخر الشارع غبراء صاخبة مهدمة نافثة الدخان والبخار . والحناطير تكر وراء خيول مبرطعه تلهب ظهورها السياط . ودراجات تمرق يميل بها بها أصحابها يمينا وشمالا . مجموعات الريفيين تنفك وتتبدد من هذه الآلات الطائرة على اليمين وعلى الشمال . ولكنها سرعان ما تأتلف مرة أخرى فى حلقات صلبة تنظر للعالم الغريب بعين واحدة مبهورة ، وأذهان متوقدة تحول الرؤى الى حكايات ؛ وعلى المصاطب والكيمان بدور الكلام فى الليالى ضاحكه تلك الحكايات لكن فى قيعان الكلمات آثار القهر .. وفيها السخرية تقلب البطن من الضحك فهؤلاء الناس لهم قدره هائله على السخرية وهذه العمون الفاحصة لاتعدم العيوب والمضحكات فيما ترى .

ميدان البلديه على واجهة السينما اللافتات مكتوبه بحروف فى حجم الاطفال وصور الممثلين فى أحجام مهوله عبر الميدان

الجموع مديرة ظهرها للشارع والأبصار معلقة بالمناظر المرسومة على الحائط وبين لحظة واخرى يتجاسر واحد ويندفع نحو شباك التذاكر وهناك يتكدس زحام الراغبين فى دخول السينما ..

شارع الخان زحام من الناس والبضائع وضجيج مكبرات الصوت ، الباعة يعملون بأيديهم وأفواههم ، كتلة من الأعصاب النهمة للحركة والصراخ ، تسلل بين الناس يميل بكتفه يمينا وشمالا متحاشيا الاصطدام الباعة على الجانبين يناوشون اطراف الحشد ويستميلون حواشيه الى الشراء لكن الكتلة المتدفقة بين الشاطئين تنساب كالنهر .

سوق النحاسين ، الدكاكين الفسيحة الأبهاء حيث تباع جهازات العرائس الدواليب ذات المرايا الكبيرة الصناديق المكسوة بالصفيح الملون .. صفوف الأوانى النحاسية البراقة المجلوة الحشايا والألحفة فى ألوان من الحرير تخطف الألباب .. وبائع جهاز العرائس واقف فى وسط الدكان يبتسم فى فرح .. بائع الأفراح دائما رائق النظرة صافى الملامح .. يبارك ويخفض الأسعار بسخاء .. ولا يبقى له من ربح فى النهاية سوى معرفة الناس الطيبين ..

أين الحاج كريم ، كيف تتزوج عروس فى الدنيا دون أن يكون حاضرا ، البائع واقف بين يديه وأهل العريس وأهل العروس متحلقين حوله .. والتاجر يقسم انه خاسر والحاج كريم يضحك.

ـ اللى عند الله مايروحش .. وبلاش القهوه ياسيدى .

كيف ..؟ تأتى أكواب الشاى النحيلة الخصور ، ذات المقابض والحواف الذهبية مرصوصة كالعرائس على صينية نحاسية رقيقة لامعة .. والبنات من اخوات العريس والعروس يسترن بالشيلان

الوجوه فما يبقين الا عيونا تحدق فيما حولهن .. ماذا تجدن فى بنات المدينة ياخبيثات ..؟ يطرقن فى خوف ويشهقن متغامزات..

ينحدر الشارع متقارب الجوانب رطب بما يرشه أصحاب المتاجر أمام أبواب دكاكينهم من ماء مبارك ، البيوت القديمة المدخنة المشربيات من الخشب المشبك ، أو الشرف الحديثة ، النسوة السمينات العاريات السواعد ، الرجال فى الجلاليب البيضاء الخفيفة وجورنال الأهرام وكوب الشاى الثقيل انحرف الى شارع سيدى مرزوق بدأت المقاهى تنشط بزبائن الريف ، والأرائك تصف على الرصيف فى انتظار أفواجهم القادمة .. وعلى الأرصفة بدأت تنبت حلقات صغيرة فى مركز كل واحدة امرأة سمينة ذات اسنان ذهبية امامها الوابور وعدة الشاى ودلاء ملىء بالجوز .. ضحكات قليلة ورشفات شاى وبعض انفاس حشيش .. اول الغيث ..

على الجوانب تصعد السلالم الحجرية الى باحات مربعة تقوم حولها البيوت وهذا هو البيت الذى ستكون فيه الخدمة .. الواجهات شبابيك مليئة بنساء طنطاويات ، المرأة الطنطاوية لا تبارح الشباك أبدا فى القرية تنحدر من الشارع الى قعر الدار عن طريق الباب وفى قيعان الدور تجد نساءا كالبقر ، أما هنا فهن يتصايحن على بعضهن ويضحكن ضحكات طويلة مغناجة .. طواق الثياب منحسرة عن أنصاف الأثداء الثقيلة فى الثياب الرقاق .. الشعور لامعة تحت الترابيع المنحسرة المصقولة بالترتر ..

ـ تخان ياختى من اكل الفول ابوزيت ..

هذا ما تقوله رشيدة ـ يضحك عبد العزيز فى نفسه ـ وتجاوبها الحاجة شوق :

ـ وماهماش حاملين للدنيا هم ..

وتتدخل احدى اخوات رشيدة :

ـ تيجى وحده منهم تخبز اردب ولا تصلح الزريبـــه تحت البهايم ، أما نشوفها هتبقى تخن ايه ..

وتكايدها رشيدة :

ـ دا من نارك بتقولى كده .. عشان ناشفه على عودك .

عبد العزيز يضحك وهو يتأمل النساء الثقال فى الشبابيك .

ويتذكر الحاج كريم صاعدا هذا السلم الحجرى وئيدا يستند على عصاه ويضم عباءته الى صدره ، ويجول ببصره بين الشبابيك.

ـ نهاركو سعيد يا ستات ..

لا يقول لهن (عواف) هذه يقولها لنسوان البلد ، أما هنا فانه يكتسب لســانا جديدا رقيقا زلقــا .. وتجاوبت الشـــبابيك بالضحكات تصايحن ببعضهن ..

ـ يوه .. ياختى دا بينهم جمـــاعه موالديه .. هىء .. هىء .. شى الله ياسيد ..

وهو واقف يبتسم فى طمأنينة حتى تسفر ضجة التصــايح عن جواب ..

ـ احنا موالديه ياستات .. دراويش السلطان .. عاوزنــكم تساعونا مدة المولد ..

فهنا فى هذا الشارع تستأجر البيوت للموالديه ، العــايق يتقلق فى مكانه بعوده الدقيق ينظر للنسوان فى نهم دون أن يتخلى عن مقبض سلاله ..

لقد داروا فى الشوارع وقرعوا كثيرا من البيبان .. وأطلت وجوه ريانه ..

ــ احنا موالديه ياست ..

ــ أهــــلا وسهلا ياخويا والنبى كان على عينى .. اتفضلوا استريحوا شويه ..

الرجال فى شغل النهار ، تفتح الحجرات المعتمــة الرطبــة المفروشة بالــكنبات العربية الوثيرة ، ويجلس الحاج كريم والى جواره العايق ، وتقدم القهوة ويدور الكلام ، الحاج كريم صناعته الحديث الطيب ، والمرأة تستريح على وسادة الصوت الودود ، لم تعد متوترة تدارى الانفراجة بين ثدييها الثقيلين الناصعين ولا تضم ساعديها وتدارى بياضهما الرهيف بكفيها ، اصبحت طلقة تسمع وترد ، وينتظم عقد الــكلام ، الزمان والناس ، القرى والمدائن ، ما المدينة الا شجرة جذورها فى الريف ، ومن يدرى ربما قــرابة أو نسب المؤمنون اخوة وكلنا لآدم ..

ــ والنبى كان على عينى .. دانتوا باين عليكم ناس طيبين .. صحيح لم يستأجروا البيت لكن .. حبل الوداد قد اتصل وخلال مدة المولد سيأتى العايق كل حين عليه جلبـــــاب خفيف وطاقية وشبشب يطرق الباب ..

ــ ياست أم فلان ..

وتبرز فى ثياب البيت المنحسرة عن كثير ، ويضحك العــايق ويكركع ويحمر وجهه وتبدو أسنان آهلــكتها الكيوف ..

ــ عاوزين الوابور بتاعكم ياستى ينوبكم ثواب ..

ــ من عينى .. سلم عالحج كتير . وقوله ست أم فلان بتقولك افتكرها فى القراقيش والدقه ..

ـ حايشين لك منابك .. هجيبه بنفسى ..

ويوم استئجار هذا البيت مال الحـاج كريم على العايق .. وقال له :

ـ البيت ده يبقى حلو قوى ياعايق .. الوسعه اللى قـدامه دى تسـاع الذكر فى الليلة الكبيرة ..

العايق يتقلق فى مكانه والحاج كريم ينتظر أن يسفر تصـابح النسوان عن جواب ..

ـ ياست أم طلعت .. ياست ام طلعت .. عندها شقتهـا باخويا دور أرضى .. وكانت ناويه تأجرها للموالديه ..

وخرجت أم طلعت للحاج كريم عيونها سوداء واسعة غريبة .

ـ اهلا وسهلا .. .. مدد ياسيد .. اتفضل ياحج .. والنبى انت باين عليك طيب .. وعليك القيمه ..

طلقة متدفقة غريبة العيون (عليه القيمه) حقـا ، والا ماذا يسمى ذلك الذى يتيه فى جوانب جسده المكين وعيونه الرائقـة الفرحانة وثيابه المكوية وعمامته النـاصعة المشرعة على جبينـه الأسمر مثى تتحسس عصاه طريقه على بلاط الصالة فى حـذر مطمئن ..

ـ يا ستار ..

والعايق يضحك من وراءه ..

ـ ربنا يجعل لنا نصيب عندك ياست ..

وصورة الزوج ـ هوالآن فى الشغل ـ معلقة على الحائط فى الصالة ، يدخلون الى حجرة يزحم نصفها سرير نظيف ناصع الملاءة وسائده منقوشه ترى العين طراوتها السخيه .. الوسائد وصدر أم طلعت الثرى ونعومة البساطة والكنبة الوثيرة والعتمة والرطوبة

العذبة .. الغرفة مفعمة بالليمونة .. والحر فى الشارع لافح تأتى ام طلعت حامله صينيه الشاى الصفراء اللامعه وعليها الأكواب الخضراء من الزجاج الرخيص ، والابريق .. ابريق الشاى وضعت الصينية على نمرقة بينها وبين الحاج كريم ، على وجهها غشاء رقيقا متوردا ، كيانا مفعما بالشقاوة ، وتشرق الابتسامة فتضيء الخدود وقمم الوسائد والفرجة بين الثديين الناصعيين وعيون الحاج كريم ..

ـ ولك شيخ برضه

ـ طبعا

ـ هيء .. هيء .. شيخكو له كرامات

والعايق يسرسب الكلام

ـ هوا فيه يا ست شيخ من غير كرامه

لكن الحاج كريم وقور مكين يغيم وجهه بسحابة عابرة من عبثها بالشيخ وتتحرج من عبوسه المفاجيء وترتبك وتشيح بوجهها وتنقل الكوب المليء بالشاى الساخن من يد الى يد ، وتكه صغيره ينشرخ الكوب ويسيل الشاى فى يدها وعلى حجرها وتهب واقفه مذعورة ويصيح العايق ..

ـ الله حى .

ويقف فى وسط الحجره يتقافز ملتاعا والحاج كريم يهمهم فى رجاء

ـ بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ..

وهى تولول فى صوت باك .

ـ يادى الحوسه . شيخكو خلقه ضيق قوى .. ايدى اتحرقت خالص ..

ونعرض فى تردد يدها على الحاج كريم يتناولهـا فى كفـه الاسمر السمين

ـ سليمه انشاء الله .. ما فيش حاجه .. الشيخ بس حب يقرصك فى ودنك .

واغمض عينيه وبدأ يرتل .

ـ (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ..

ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا .. »
تحدرت رموشها على وسائد خدودها الوردية ،ونظر العايق اليها وهو يلعق دون وعى أطراف ورقة البفرة يلفها حول حبة دخـان الفرط .. وتسلل الولد عبد العزيز الى حضن أم طلعت وقبلها فى خدها .. أحبها كما لم يحب أمه ، وضمته هى الى صدرها ورأسها منكسه .. وسرسب العايق كلاما كثيرا ..

ـ الطريق كله خير .. كلنا على باب الله .. مش باقى غير الطيب .. لولا الطريق علينا .. بوس خالتك باوله .. وماله .. والله الحاج كريم أحسن راجل ، شىء فى كرم ربنا .. قاللى يا عايق ايه رايك فى البيت ده قلت له خش يا شيخ ربنا يفتحها فى وشك .. كلنا دراويش السلطان ..

صوت العايق خلفيه متهدجه للصمت المفعم ، ضم الحاج كريم عباءته الى صدره وقام متمهلا مسـتندا على عصا ثم خرج يدب وئيدا على بلاط الصالة نحو باب الخروج .

النسوان يتضاحكون فى الشبابيك .

ـ هىء .. هىء .. اهم يبقوا يفقروا قـدامنا .. هىء .. هىء .. وناكل عيش ودقة من بتاع الموالديه ..

يسمين الذكر (تفقيرا) يالهن عبد العزيز يبتسم جائلا بعينيه بين الشبابك ياله من شارع شارع سيدى مرزوق .. من يومهـا

لم يستأجر الحاج كريم غير هذا البيت .. أم طلعت امراة طيبه بل ثمة قرابه بعيده ، الارحام ، بالقدرتها على وصل احبال الموده بين الناس .. سيكون لهم فى المدينة بيت يملكونه يملأونه خبزا وجبنة ، وقراقيشا .. سوف ينصب الزير فى الركن ، صنابير..؟ من له صبر على سيل الماء من الصنابير .. انما الماء أن يغرف غرفا ويعب عبا ، سيمتلىء البيت بالرجال والنساء والأطفال من كل القرى .. يدخلون فيه ويخرجون منه .. الى اين .. ؟ الى البيت من اين .. ؟ من البيت ، الطنطاويون جيران لهم لا خوف بل سلام ومساء خير وصباح نور .. وكعوب الرجال لامعه فى الشباشب الخفيفه فلا تراب فى الشارع ولا وحل فى الحقل والعايق رسول الخدمة الى كل النساء «هات سكينة .. هات بصلة» .. ابيض ناصع زلق هذا العايق ، من لهذه المراسيل غيره .. وسوف تكون النساء قرايرات هامسات ، والرجال يبتسمون ويقولون نعم بحنان .. وحتى سوف يغسلون الأطباق بأنفسهم أحيانا ..

ربما كان هذا من عادات الطفولة التى بقيت معه ان يمشى شاردا يقرأ اللافتات ويتفرج ويترك للشوارع ان تقوده دون ان يدرى بها .. هكذا كان يمشى و هو صغير يسلم يده لابيه يتولى قياده سارحا يتفرج، انتهى شارع سيد مرزوق الى شارع السكة الجديدة الى ميدان المحطة .. انقبض قلبه ، ادرك كل شىء فى لحظه ، نصبو على الابواب من حيث يتدفق الريفيون القادمون من البلاد آلات العساكر الرهيبه على ظهور الخيل وعلى الاقدام فى ايديهم العصى وفى وجوههم الشراسة .. (كل هذا من أجل ان يتأكدوا من أن كل واحد يحمل تذكره .. يا الهى .. من يصدق هذا .. ؟) .

انقبض قلب عبد العزيز واختنق حلقه ، تقدم ثابتا نحو المحطه السور العالى المحيط بالباحه امام المحطه اغلقت كل ابوابه ماعدا

ثلاثة أحكمت عليها الرقابة ، على كل باب بضمة موظفين وشلة من العساكر ، آلة بشرية لبث الرعب في الأرتال المنسابة ينقضون على الناس بلا رحمه كالحدادى ينهالون بالعصى كينفما اتفق وتخلق كل هجمة حلقة من عيون مذعورة وصرخات عالية ويفلتون الى الناحية الأخرى مشتتون مشعتون طائرى الطوافى لتتجمع الزرافات مرة أخرى بعد الباب بقليل ، تلم نفسها وتلتقط انفاسها، يضحكون للخلاص ثم ينطلقون الى الشوارع مفتوحين لتلقى المدينة بكاملها ..

ـ مدد يا سيد مدد .. جينا يا ابو فراج

صيحات فرحه وزغاريد نساء وحتى بكاء الاطفال يتحول الى شيء دهش مبهور .

تقدم عبد العزيز وئيدا كل انتباهه في عيونه واذنيه يده مشرعة باشتراك السكة الحديد دفعه الموظف الى الداخل والتفت لغيره تلقى الدفعة حاقدا صموتا ومضى مالئا قلبه كبرياء وازدراء نحو المحطة .. وهناك أبصرهم فى الفناء الحاج كريم يتقدمهم ضاما عباءته على صدره ومستندا على عصاه .. وتلك المصفاة الرهيبة عند باب السور ..

مضى نحوهم ، العايق فى الخلفية يبهدله السبت ، والعراقى الأطرش ، ما جدوى اللحية والعمامة الحمراء الآن ينظر حواليه بسرعة كعصفور مطارد .. أحمد بدوى ومحمد كامل وعلى خليل والشركسى ، النجار وغيرهم كثير والنساء في الخلفية ينظرون اليه بلهفة .. تقدم الى الحاج كريم وقبل يده فى حنان غريب كالخوف الذى يكاد يقتله .. والرجل يقبل ابنه فى جبينه ، رأى شيئا منكسرا فى عيون أبيه قفز ذابحا احساسه تتلقفه صدور الرجال ، يضمونه بقوة رجل بعد رجل وهو غارق فى ود لم يجرب

فى حياته أعمق منه ، هؤلاء الناس كان معهم بالأمس فى ردهة الدوار تحت الفانوس .

ـ ازيك يا عبده ..

احمد بدوى متوهج الوجه بالسرور قصير مكين الجسد دفاق العاطفة .. يبتسم على خليل فى تردد ، شاحب الوجه يحمل علامة صلاة كبيرة فى وجهه ..

ـ أهلا وسهلا سى عبده

يحبس بهجته خلف سكينه وجهه الاليمه ..

ـ الله يفتح عليك يابنى

محمد كامل عميق الصوت عميق الملامح عميق العيون ابتسامته حزينه، حزنها جزء من تكوينها تشرق منه وتغرب فيه .. والعراقى يتقافز كقرد فى يده سلة .. والعايق يسرسب الكلام .

ـ دا خلق ايه .. امم .. مدد يا سلطان آى نعم .. بس، حتى بدل القطر ما يدور يتطلع فى المحطات ، يجرى جرى يجيب من الخلق دى كمان دور ولا اثنين .. انما تقول لمين ..؟!

وعيناه تطرفان ناحية البوابة ..

هؤلاء الرجال فى ثيابهم الرخيصه وطواقيهم الصوفية الحمراء ووجوههم النحيلة المدبوغة بالشمس المبقعة بسوء التغذية هؤلاء الناس المستطارون خوفا هى اباء عبد العزيز قلبه وعيونه يتحلقون حوله وينظرون له .. لكنه يتمنى لو كانوا أكثر نظافه أكثر جساره ليسو هكذا فقراء جاهلين خائفين ، فى المدرسه يباهى بانه فلاح أمام ابناء البندر يباهى بذلك بقوة ووضوح لكن شيئا فى داخله ناقم ساخط ... لو كانوا غير ذلك ..

وكأنما يحسون بما فى داخله من صراع نظروا له متوجسين ونكلم احمد بدوى .

ـ لوحد من زملائك يا سى عبد شافك مع ناس فلاحين زى حالاتنا .. من باب الاستحراص برضه خليك بعيد عننا .. وآدى احنا شابفينك وانت شايفنا ..

عروا داخله بعيونهم الذكيه اكتسته لحظة خجل حاده كلذعة برد ..

ـ ايه الكلام اللى بتقوله ده .. أنا مايهمنيش حاجة .

ثم بسرعه افتكر فيما قاله ، فى رده اعتراف بحقيقة احساسه نحوهم ، اراد أن يهتف قائلا « انتوا أحسن ناس فى الدنيا »لكنه لم يفعل ربما شعر مقدما فيما سيكون فى قوله من خور وماسيكون فى صوته من زيف لكن رده ـ على أى حال ـ بعث فى وجـوههم بعض السرور ، وعينا الحاج كريم تتأملان ابنه فى سكينة عاتبة .. كلما التقت العيون تبتعد بينهما المسافة . انه يحب اباه يحبهم جميعا لكن .. ماذا يفعل ، لو كان يستطيع لو طالهم هذه المدينة لأبدلهم ثيابا غير ثيابهم ، هم حـوله ينظرون له كل فلاح يرسل ابنه الى المدرسة ينظر له هذه النظـرة المفعمـــة بالأمل والخـــوف لكنها المدينة الكبيرة عبد العزيز يحب هذه المدينة ويحبهم أيضا لكنهم ينظرون له هكذا ..

ـ ربنــا يصلح حالك يا سى عبد .. وآدى احنا نبقى نمشى نهز أكمامنا على حسك ..

لكنه فى داخله لا يعتقد انه سيكون يوما شيئا خطيرا فى هذه المدينة انه يحب ضجيجها ونظافتها وفتياتها يحب السينما والكتب يغرق فيها ازمته يخضع لها ويسلمها قلبه بكل خلوص لم يرغب

ابدا فى السـيطره عليها كل ما يريده ان تنفذ الى مسـام تكوينه وتستأصل ذلك الألم الممض الكامن فيها كالسرطان ..

انه يعرف كم هى قاسيه هذه المدينة يعرف هذا بخاصة حينما يتأمل هؤلاء العساكر هذه الوجوه الريفيه التى تصب غضبها على الارتال من الريفيين ـ يعرف قسوة المدينة ـ لكنه يغض الطرف عنها ويحاول أن ينساها لكن خاطرا يهاجمه بقسـوة احيانا ترى هل تشده هذه المدينة يوما حتى تحوله الى عسكرى يحمـل وجها ريفيا وخيزرانه وسباب بلغه البندر .. يارب كل شىء .. ياله من خاطر مفزع ..

أشرع الحاج كريم عصاه الى الأمام ، اشرع وجها حزينا وسار عيناه البنيه تطفو على تلك الآلة العصبيه الهائجه المنصوبة عنـد البوابة يحاول أن يتحسسها بنظراته دون أن يراها كالمجوسى المقبل على اقتحام النار .. توقع للايذاء وصبر على ما سيقع منه لابد من المكاره فى الطريق .. آه يا أبى .

الحاج كريم فى المقدمة والرجال وراءه عيـونهم تطرف فى خوف لكنهم يمشـون خطوهم ثابت قدما وصـوت محمد كامل العميق ..

ـ يارب ياستار .. الهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لايخافك ولا يرحمنا يارب العالمين ..

اختطف الرجل تذكرة الحاج كريم ودفعه فى كتفه .. ربما كان الحاج كريم قد سار خطـوة للامام فلم تصـبه الدفعـة .. أو ربما هى كرامة الأولياء .. المهم أن خطوة الأكيد لم يضطرب تضامت الجماعه من خلفه وطاشت النظرات فى كل اتجاه واصفرت الوجوه وارتفعت غابة صـغيرة من الأيدى حاملة التـذاكر ومن الايدى تختطفها ومن الايدى حامله العصى تريد أن تهـوى بهـا

اضطربت الأجساد وتزاحمت مذعورة لاتدرى اين تهرب ، عبد العزيز تحمله الموجه العشوائيه حتى خلصوا الى الناحية الأخرى من السور حبات العرق تلمع على الجباه وتشرق الابتسامات العراقى استخفه سرور مجنون .. كان الحاج كريم قد استدار ووقف تجاههم ينتظرهم عيناه عليهم خارجين .. تبرقان برقا خافتا كنجمه أخيره ..

الغضب يعصف بعبد العزيز والرعشه تهزه .. ادار وجهه بعيدا جسده يفقد تناغمه مع كتلة الرجال ويتخذ لحركته مسارا نافرا مترترا الرجال ينظرون اليه وهم يسوون جلاليبهم ويعدلون طواقيهم حيارى وخزيانين قليلا ..

ـ معلش ياسى عبد العزيز .. احنا يا فلاحين كده .. مخلوقين للبهدله ..

والعايق يسرسب الكلام السبت يملخ ذراعه من كتفه .

ـ لو كنا بنخدم غازيه كانت حفضت لنا كرامتنا شويه .. مدد يا سيد .. آدى احنا جايين لك يا أقرع ..

والناس فى الميدان كانهم سرب كثيف من الحمام واقع على حقل والعرباب الهادره تشق سبلها بينهم تتكون الدوامات والتجمعات والتشققات بفعل الذعر والصوت الهادر ..

ـ يا ستار سترك .. ولاد كلب بتوع كبابه .. سواقين ولاد قحبه يخرمو فى لحم طرى .. ما فيش حكومه .. ياجاه النبى .

عبد العزيز يود لو خنق هذا المأفون المذعور كل يوم مسافر الى مكان ما من انحاء الدنيا فى زيارة بنت من بناته اللائى يخدمن فى بيوت البنادر وكل يوم يعود بحكايات وحكايات عن اسفاره ، وها هو طائر اللب تتخاطفه ضجة العربات المارقة ..

جسد عبد العزيز متصلب من سورة غضبه يتخذ مسارا غير متساوق مع جماعة الرجال تباعد عنهم لكنهم ينظرون اليه بعيون حذره الحاج كريم يسير بخطوه الوئيد كانه سائر الى شرفة الدوار لكن شيئا فى تربع اكتافه .. انكسار .. ميل للانحناء .. لماذا تحالفت المخاوف والغضب والمشاعر الغريبه على عبد العزيز فى هذا اليوم .. ؟

أول شارع السكة الجديدة المنازل القديمه الغبراء علىالجانبين الظلل الممدودة على الدكاكين من الواجهة الى الواجهة ، سقفية كاملة من الخيش ، سرداب معتم قديم يدمث نظرات العيون فما تستطلع المشهد البدوى الا بعد أن تهدأ بلابلها بالرواء الطيب .. الآن المقام .. عبد العزيز يعرف الريث فى خطوة أبيه عندما تتجلى قبة السلطان ، يحزره قبل أن يقع ، وقلوب الرجال موصولة بقلب الحاج كريم .. ذهلوا عن كل شىء وتعلقت الأبصار بمشهد البدوى .

أما عبد العزيز فهو وحيد بينهم ذرات الحديد جميعا افجذبت فى نظام نحو قطب المغناطيس اما هو فمن معدن غريب غير متجانس ..

ـ السلام عليكم يا سيدى احمد يا بدوى .. السلام عليك يا سلطان .

يهمس كانما لصديق اوحشه

ـ جيناك باحمالنا يا جمل المحامل يا ابو فراج

لكنه لا يحى عبد العال ومجاهد الا متأخرا قبتاهما على جانبى قبة السيد البدوى الحاج كريم لا يعنى بهما كثيرا ويضحك عبد العزيز فى نفسه فان نساء قريته مشغوفان بعبد العال تستعين به كل ضرة على ضرتها وكل حماه على امرأة ابنها ينذرن له النذور

وتنسن مقامه بالطرح السوداء .. وربما كان عبد العال شيئا مثل السابق همذا ولوعا بالنساء .. حتى بعد أن مات انغمس فى القضاء بينهن وفض مشاكلهن ..

حينما كان عبد العزيز صغيرا معلقا كالدميه فى يد ابيه يتطلع الى وجوه الاخوان الخاشعين قبالة قبة السلطان .. ضغط الحاج كريم على معصم ابنه .

.. الصالحين يشوفوا القبه دى وبينهم وبينها بلاد وبلاد

وفى القريه يصعد عبد العزيز على السطوح محاولا رؤية القبه لو قد رآها مرة واحدة ..!! عيونه تتسكع بلا معنى حول القبه والهلال ، ثمة خروق وتهتكات فى كساء القبة الذى كان أخضر يوما من الأيام الأولاد الطنطاوية يمرقون بعجلاتهم كالسهام على رؤوسهم الواح الأرغفة أو فى أيديهم بوابير الجاز والكلوبات ..

ـ اوعى الجاز .. يا باب النفس يا سيد .. زوارك يا سيد كل بأف وأخوه ..

السياط تمزق الكبرياء الخاشع .. يود لو يشنق هؤلاء الاوغاد ، الحاج كريم يلتفت نحو ابنه ربما كان يريد أن يقول له

ـ يا ولدى احنا محاسيب السلطان

لكنه لا يقول .. يشرع عصاه ووجهه ويمشى

ساروا فى شارع السكة الجديدة ، الدكاكين والدكك امامها محمله بتلال الحمص النوافذ الزجاجيه مزدحمه بالحلوى بيضاء وحمراء العلاقات محمله بلعب الاطفال وتبرق من وراء الواح الزجاج الاساور والخواتم والاقراط بريق المعادن والوان قطع الزجاج تخطف الابصار تتارجح مع الهواء شيلان البنات وملافح الرجال من الحرير واولقطن ضجه الميكروفانات المعلقه على الجانبين ونشاط الباعه

الهائل فى العرض والاغراء .. ابتسـامات ميكانيكية من وجـوه عصبيه مجهده محمره يسـيل منها العرق ونهر الفلاحين السائر يتلفت فى حذر ..

الحاج كريم يتأمل ما حوله فى ابتهاج يدفع الاكتاف فى هواده تلكهى طنطا المزينه الصخابه النظيفه القوية ..

ـ ياولاد .. عاوز اميل اسلم عالحاجة ..

وتضحك الوجوه ويترك العايق سلاله لمحمد كامل ويترك احمد بدوى سلالة لامرأته ، ويميلان مع الحاج كريم ويمضى الباقون الى بيت الخدمه ..

الضحكه توشوش فى صدر عبد العزيز خطوات الحاج كريم خفيفه نحو دكان تاجرة الخردوات .

ـ سلامو عليكم يا حاجه

تنهض من على مكتبها ضخمه لحيمه بيضـاء تعصب المنديل الاسود يشف عن نصاعة جبينها وتضحك عن صف من الاسـنان الذهبية ، يالجسارة عيونها كيف يستطيع رجل أن يركبها ...؟ الحاج كريم فى جسده مروة غريبة ، يتفزز كجواد ، وهى تميد فى ليـونة ..

ـ سلامو عليكم يا حج كريم .. ما بيجبكش الا العزيز الغالى يلوح بيدبه كانه ممثل على خشبة مسرح

ـ آى والله .. شوفنا للسلطان جايينا على وشنا .

ويجلس قبالتها ، يدها بيضاء منمقة ومعصمها زاخـر بالأساور الذهبية والدكان رفوف مرصـوصه مليئه بالوان الحلى والمناديل وقنانى العطر .. وضحكات الحاجة المجلجلة العايق متـوتر على كرسيه مفتوح العيون تلعق شفتاه بلا وعى ورقة البقرة وأحمدبدوى

يبتسم كطفل فرح كانما خرجت الابطال من كتب السيره وانتصبت امامه يتبارزون ..

ـ تعالى يا حج كريم افتح لك دكان هنا جنبى

ـ التجارة مش شغلتى .. انا شغلتى الزراعه .. احرت .. واروى .. الأرض السوده ـ اخضرها ..

وتفرق فى الضحك جرس ضحكتها ووسوسة الاساور ياما عشقت يا عايق ابدا ليس كهذه ، الحاج كريم فارس خيل وهـذه فرسه المدلله .. النار العارمه فى قلب عبد العزيز لم تسقط عليه من السماء تسللت من هذا الاب لا يكلمها كما يكلم النساء فى البلد له معها لسان بندرى معوج ..

ـ هيا الفلاحين تتسكن يا حج كريم .. هنا الزينه والابهه

ـ تتسكن .. الفلاحين تتسكن .. البندر للزياره نزور ونرجعه لارضنا ..

وجاء الولد خجولا يخبط صينيه بمعلقه الشاى جمع اكواب المشاريب الفارغة ومضى ..

ومشى الحاج كريم فى شارع السكة الجديدة ووراء أصحابه الثلاثة ثم انحرفوا جميعا الى شارع سيدى مرزوق ..

ـ نقول سلامو عليكم لحامولى يا رجاله

سكتو موافقين

من بعيد كان الحمولى يفرش الرده لكتاكيت خضراء على الأرض أمام باب الدكان والحاج كريم ينظر اليه مبتسما ويتقدم نحوه وئيدا اقام الحمولى قامته ، طويلا نحيلا متدلى الذراعيين ضخم الكفين يبربش عيونا محمره الجفون .. ابصر الحاج كريم

ـ آهلا .. اهلا .. اهلا

وقامته تهتز على ايقاع الترحيب

ـ دا نور ايه ده .. دا نور ايه ده

ـنورك يا حمولى .. السلام عليكم ورحمة الله

ويسلم على ضيوفه ويجرى يقلب صناديق زجاجات الكوكاكولا الخشـــبية ليهىء لهم مجلســـا وتنهض امرأة الحمامولى قصيرة سمينه بيضاء عيونها هى الأخرى محمره ملتهبة الجفون ربما من كثرة ركوب الحمولى فوقها .. كانت قد اعدت من قدميها مجلسا لطفلها يخرء على الأرض فى استمتاع والآخر غير بعيد ـ يعجـن التـراب فى بوله ..

ـ يا تلتمت مرحبه .. رجالة السيد عليهم نور

اراح الحاج كريم ذقنه على عصاه .. وطفق يتامل الحمـولى الجالس امامه يخبط ركبتيه بكفيه الكبيرتين ويحكى وهو ينصت له بكليته .. كان الحمولى فلاحا يعيش حياة الريف البائسه الكئيبه كم كوته الشمس الظهيره وكم تمزق باطن كفه من القبض على يد الفاس كم عاش اياما على الخبز الجاف وجبن الجرار القديم كم اخلفته السنين وساء المحصول ومر العام يجـرجر الأيام ثقيـلة فقيرة على صدره عاش حمولى حياة القرية حتى خنقه الضيق .. وذات يوم حمل امراته وعياله الى طنطا .. كيف اجترأ هذا الريفى على اقتحام المدينة .. لكن ها هو ذا له دكان وعيال يخرءون على الاسفلت فى استمتاع عيـونه هاتان البـؤرتان المحمرتان كاسـتى حمامه قادران رغم هذا على أن تعكسا الاحساس بالانتصار امام هؤلاء الزائرين العابرين للمدينة ..

ـ القهوه يا بت

المرأة تطرف فى رضى.. وعبد العزيز متوجس من محنة القهوه

القادمه .. ستكون شابا وسيكون الشاى طعمه جاز او لبان ذكر او شيء من محتويات هذا الدكان القذر ..
الحاج كريم الأنوف الذى تصنع قهوته بحذر كالعبادة .

ــ بابا هو دا شاى يتشرب .. ؟

ــ معمول باخلاص يا بنى .. تتلحس الكبايه كمان

ويلم بدكان الحامولى كلما تعب من الخدمة ومن الوقوف على قدميه طول النهار يطعم الناس ويستقبل القادمين ويودع العائدين يقلب له صندوق الكوكاكولا ويجلس قبالته حمولى يخبط ركبتيه بكفيه الكبيرين ويحكى والحاج كريم ينصت باستمتاع والمرأة جالسه على الأرض تطرف عيونها فى رضى ..

شارع سيدى مرزوق مرة أخرى ، الجماعات حول صانعات الشاى على الأرصفة، المقاهى والناس، أصوات المذياع وميكروفونات تحمل اصوات المغنيين المشروحه وتنشرها فى جو الشارع ، عشرات الريفيين ــ زحمو بالحياة الشارع الذى كان مواتا قبل يومين لقد بدأ المولد ..

الحاج كريم يتقدم عصاه تخبط الارض فى وقع نشيط ..

ــ افراح السلطان يا ولاد

صعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وصعدوا وراءه ، وقف وسط الباحة التى تقوم البيوت القديمة العالية على أضلاعها الثلاثه مزدحمه بالطنطاويات ..

ــ نهاركو سعيد يا ستات

الزمن والغبار والوهن والتدانى خلقوا من هذه الواجهات العالية شيئا غاية فى التأثير ، جلاليب النسوة الزاهية الألوان ، الترابيع ذات الترتر المعصوبة على شعور سوداء مفروقة لامعة بالدهان

الوجوه المزدهية بالفرح مربعات الشبابيك الزاخرة بالحياةمتقاربة على اللوحه المعتمه الحاج كريم ينقــل بصره بين الشــبابيك بأناة والعايق قلق تستفزه فرحة تتوهج فى داخله وعبد العزيز يرقب النحور والفرجات بين الاثداء الصافية اللون فى شبق ، كم خلف هذه الوجهات من سراديب ، سلالم معتمة وغرف خلفية لا ترى الضوء وهو يتسلل كالقط ويصطاد الفتيلت ، وفى لحظات ضبابيه مرتجفه بالتوتر عميقة الى آخر كيانه خاطفه كالبرق يحظى بالقبل واللثمات ويخرج الى هذه الباخه الى مهرجان الزحام والدفوف والعرق والصياح ليفرق انفعاله فى الضجيج اللاغب ..

انهالت التحيات على الحاج كريم من الشبابيك

ـأهلا ياخويا .. والنبى ست أم طلعت مستنياكو مالصبح.. يوه .. هىء هىء ..

ـ والنبى ياختى عليهم نور .. ناس طيبين وبتوع ربنا ..

ويبتسم الحاج كريم فى رضى قرير

ـ كل سنه وأنتم طيبين

غارق فى هذا الاهتمام الناعم .. ويستدير ليجد أم طلعت واقفة عند الباب ، الذراع اللحيم تهدل قليلا ، لكن العيــون هى هى ، من يوم الفنجان المكسور وعبد العزيز لا ينسى .. استجمع من غفلاتها صورا لاثدائها وبطنها وأووراكها ، يراها فى نومه يعجز عن انتزاعها من خياله .. مشى الحاج كريم نحوها ، دمثه كأنثى ، دمثه فى كل ذرة من كيانها الناعم لينه فى عيونها لينه فى يدها التى تمدها للمصافحه ، لينه فى رأسها الذى يميل كأنما يثقل على رقبتها والحاج كريم روى الوجه بالابتسام تقبل يده ويقبل رأسها ، عبد العزيز ليس حزينا لكنه رقيق طيب الى حد البكاء ..

ـ طنطا نورت ياحج ..

ـ نوركم ياست ·· نوركم والله

وتسير امامه فى أرجاء البيت الخالى تنقل قدميها الخمريتين على البلاط المهشم وعصاه تنقر ارض الصالة هنا وهنا حيثما تسير ··

ـ خليت لكم البيت ·· لكن كل حاجه بتاعتكم ·· أى فرش ·· كنبه ·· مراتب أى حاجه بس أطلب ياحج ··

الرجل قائمون اطار من الابتسام حول لقاء أم طلعت والحاج كريم وينظر لهم ويضحك فى وجوههم ··

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام ورحمة الله

ويحل الصمت لثانية مفعمة .. ثم تنفجر ضحكات تلقائية .. فيض من قلوب حافله بالرضى ·

ويخبط الحاج بعصاه على الأرض

ـ هيه

ويتنهد محمد كامل

ـ خلاص وصلنا

وتغمض عيون الحاج كريم يصبح وجهه شفيفا

ـ الحمد لله .. اللهم لاتقطع لنا عادة .. اللهم لاتحرمنا من الوقوف على بابك ·· يا سيدى أحمد يا بدوى ·· احنا فى رحابك يا سلطان

يقولون فى خفوت

ـ آمين

أم طلعت لا ترفع عيونها عن الحاج كريم ، تسأل فى خجل

ـ ما يلزمكوش حاجه ٠٠ أى حاجه
ويضحك لها الحاج كريم راضيا
ـ ربنا يجازيك خير ٠٠ ومايحرمناش منك
ثم لن يراها مرة أخرى الا يوم السفر يصافحها الحاج كريم وهو ماضى الى المحطه ٠٠

فرش الحصير الأبيض على أرض الغرفة ، حيطان مبقعة حائلة اللون، مسامير معلق فيها آيات قرآنية على ورق رخيص ، رسوم اطفال وصور لناس يقفون فى بلاهة كأنهم محنطون ٠٠ خلع الرجال جلاليب السفر، بقى من بقى بالسروال الطويل حتى الكعب والصدار والطاقيه الصوفيه الحمراء وبقى من بقى ـ بجلبات خفيف ، خلع الحاج كريم عمامته، فرشوا لها جزءا من جريدة فى أرضية الشباك، خلع جلبابه الكشميرى الكبير وقفطانه الشاهى وعلق الكل على مسمار فى الحائط لبس جلبابا كتانيا خفيفا كالطاووس اذا خلع عنه ريشه لكنه فى هذه الملابس بدأ بسطا طيبا اليفا تربع على الحصير وتربعوا حواليه خلع عبد العزيز بذلته وعلقها الى مسمار فى الحائط لبس جلبابا افرنكيا مخططا وضع كتبه بجوار عمامة أبيه وجلس معهم ٠٠

فى الغرفه الأخرى النساء ربما تخففن الأن من الطرح والثياب السوداء وبقين بالملابس التحتيه الملونه وربما العيال حولهن يضكن فى دهشه ومرح ولا بد أن سميرة جالسه بينهم تبتسم ستقضى أيام المولد هنا فى بيت الخدمه تكفى نفسها عناء السفر اليومى ومعاناة الزحام ٠٠ ستكون معه فى بيت واحد لمدة سبعة أيام ٠٠ لكنها لاتحرك فيه شيئا يحس ناحيتها بفتور غريب ، ليس فيها حرافة بنات طنطا وتأثيرهن ، تجلس ساكنة هكذا واسعة العيون والبرود يزحف على قبله الى درجة الكراهيه ٠

من غد سوف يأتى الشيخ ورهطه سيخرجون لاستقبالهم على المحطه ويكون العناق والأشواق ٠

وهنا فى هذا المكان ستفرش الحشية للشيخ ، وسوف يتخفف من عمامته الخضراء فتوضع فى الشباك بجوار عمامة الحاج كريم ، وسوف يكون الحديث ، منذ متى لم يلتقو ..؟ الضحك والحديث الطيب وفرحة اللقاء فى مدينة السلطان ..

وها هنا سيجلس المستكاوى وبجواره العايق ركبة لركبة وسوف يخرج من جيب صداره قطعة من الحشيش ويلقى بها فى حجر العايق الذى يضحك مبهورا يتلمظ .

ـ خد لف سيجارة ياوله ..

ويتلقف العايق قطعة الحشيش يقلبها بأصابعه الخبيرة ويكركع بالضحك ويقطع حسن أفندى وعلى خليل حديثهما الودود الهامس وينظران ناحية العايق ويقول حسن أفندى ··

لو تبطلوا الهباب ده ·· ولو مدة المولد بس ·· أكراما للسلطان

ويرد المستكاوى جهما

ـ أنا أكراما للسلطان مضيع فلوسى عالمدعوق ·· لمّا ببقى مسطول بيتهيأ لى أنه أجدع ولى من أولياء الله

ويكركع العايق بالضحك حتى تكاد تبرز عيناه ·· ثم يقول وهو يضحك ..

ـ اسألوا الشيخ عباس حتى .

ويمد الشيخ عباس رقبة كرقبة الزرافه ويقول

ـ ما سمعناش حد من المتقدمين ولا من المتأخرين حرم الحشيش الخمر حرام صحيح ·· أنما الحشيش ·· نبات ·· زى أى نبات ··

ويموت المستكاوى والعايق من الضحك ويصفر وجه على خليل ويلوى حسن أفندى وجهه بعيد ويضحك أحمد بدوى كطفل ويبتسم الشيخ والحاج كريم فى سكون وينطلق المستكاوى يحلف بايمان مغلظه

ـ والله العظيم لو أنا الملك لا عملك مفتى الديار المصريه ... دانت ورده ياشيخ عباس

ويضيق العايق من ضحكه ويمد يده بسيجاره الحشيش للشيخ عباس

ـ خد يا شيخ خد .. وقول لنا شوية في مناقب الحشاشين

لكن الحاج كريم لا يدع المساله تفلت منه يصفق بيده جادا فيسكتون وبعد صلاة العشاء ستكون حضرة مباركه كل ليلة من ليالى المولد حضره وذكر .. القلب يتخفف بالضحك لكن العوده للجد محتومه ..

وأمام هذه الغرفه سيجلس صانع القهوه سيخلق لنفسه بقعة ساكنة وسط الضجيج ، فى الليلة الكبيرة حينما يضير البيت زحاما وطعاما وضجيجا يكون صانع القهوه ملجأ من يبحثون عن لحظة سكون ، حالما تجلس يمد لك يده بالقهوة باسما طيب الوجه .. وبجواره الشيخ سوف يجلس صـــانع الرقى ، تدخل المرأة على الشيخ بطفلها فتشير له فيكتب حجابا يأخذه الشيخ بباركة ويعلقه فى رقبة الطفل وعبد العزيز فى الركن يبتسم فى خبث ..

،وسوف يكون للرجال في بيتهم هذا مهمام توكل لكل واحد منهم دائما دون اخلال ، سيتولى على خليل نقود المصاريف وســوف تأتيه رشـــيدة .

ـ عاوزين بصل يابا على

ـ بايه ٠٠ بقرش

ـ لا مايكفيش . . بخمسة ساغ . .

ـ على مهلك شوية يا رشيده ٠٠ هجيب لك بقرشين ٠٠ آهو يبقى كفاية

ولا تعارضه رشيده ، عليها أن تطبخ بما هو متاح ، وهى تعرف أن الحاج كريم سيقول

ـ شوفى أبوكى على ٠٠ واللى يقوله اسمعيه

فتذهب الى المطبخ طائعه وهناك تتولى قيادة النساء تجلس فى المطبخ المعتم حازمه والحلل الكبار على البوابير الصخابه والجو مخنوق بالدخان ورائحة الطبيخ ٠٠

ويموت العايق لكن سيبقى فيه بعد الموت هوى التحرش بالنساء كل آن يمر على المطبخ ٠٠

ـ البوابير حلوه يا جماعه

ـ حلوين يابا محمد ٠٠ تسلم ايدك

والا فمرسال البيت هو الى كل النساء

ـ يا عايق ٠٠ روح لحبيبه هات منها حصيرة ومخدتين

ـ على عينى ياعم

ثم يأتى يلقى حمله أحمر الوجه من المجهود

ـ بتسلم عليك كثير السلام ٠٠ هواها تشوفك وتطمن عليك

ويبتسم الحاج كريم فى حنان

ـ الله يجازيها خير

لكن الشركسى النجار سيحلب الماء صفيحة اثر صفيحة هذا العمل يبعده عن الاحتكاك بالآخرين فانه عصابى سريع الغضب أما

محمد كامل وأحمد بدوى فهم عند ذراعى الحاج كريم وسط الناس يبتسمون ويرحبون ويطعمون ويهيئون المجالس والمراقد ‥ الى أن تصلى العشاء جماعه بعدها تقام حضرة المساء ‥

بدأ العايق يلف لنفسه سيجاره اصابعه الناصعة الرقيقة تسوى حبة الدخان فى ورقة البفره ثم يلعق أطرافها بشفتيه ويحبكهـا بمهارة ‥ لكنه شارد اللب بعيدا عن الجالسين ‥

ـ عاوز أقوم بقى ‥

ويسأل أحمد بدوى مصطنعا براءة طفلية ..

ـ على فين ..؟

ويشوب صوت العـايق قلق ..

ـ أصلح البـوابير ..

يتلفت حواليه متشككا ويواصل حديثه ..

ـ أصلحهم الليله واحنا فاضين ‥ بكره مانضمنش ظروفنا

الرجال سارحون تطامنو فى مجلسهم يمدون أجسادا اتعبهـا المشوار لكن أحمد بدوى يبتسم فى مكر ‥ وعبد العزيز يبادله الابتسام يعلمان ويعلم سائر الرجال أن العايق ذاهب للقاء الجازيه، حالما يصل الى طنطا تكون قد سبقته واقامت عند أقارب لها ، ويظل يتحين كل فرصة للقائها ‥ يبتسم عبد العزيز فى نفسه غريب أمر هاتان المرأتان ‥ روايح والجازيه ‥ تتعاركان على العايق ذلك الطفل النزق المدلل كل واحده منهن تريد أن تملكه لنفسها وهو منقسم بينهما صباح اليوم أوصلته روايح الى المحطة وهنا تتلقفه الجازيه يتامل عبد العزيز وجهه المحمر بالأنفعال وتململه فى مجلس ويبتسم لنفسه تدور على وجوه الرجال ابتسامات عارفه ويكشر الشركسى النجار

ـ اقعد ياعايق ماتقباش ناقص ..

ويحمر وجه العــايق ..

ـ دا شغلى وأنا عارفه ..

وابتسامة الحاج كريم أكثر تعبا ..

ـ الصباح رباح ياعايق .. النهار له عينين ..

لكن رغبة العايق فى الانطلاق لا تقاوم كطفل ضاق بالقعود فى الدار ، أحمد بدوى يتدخل ضاحكا ..

ـ قلبه مش حيقعد فى بطنه الا اذا أصلح البواجير .. سيبوه

ويضحكون جميعا ويضك العراقى معهم بلا فهم وينفجر العايق

ـ البوابير مالهاش أمان وأن وقفت كلكو حتقولو يا عايق

ويطرق الباب وتسمع منه ضجه وهيصه وضحكات عيال وصوت طفله عابثه ..

ـ والنبى ياعم تدينى قرقوشتين وحبة دقة ..

ويجرى العايق ناحية الباب ويسمع صوته محاورا البنت الشقيه

ـ بالعجل جيتو تقولو دقه وقراقيش هو احنا لسه ارتاحنــا مالمشوار .. عالم نهــابة ..

ويهش الصغار بعيدا يفرون من وجهه متصنعين الذعر زائطين تاركين وراءهم الشتائم ..

ـ يا فلاحين يا بهـــايم ..

ـ امشى .. جك مشش فى ركبك صنف صايع ..

وتغيم الوجوه بسحابات معتمة من شتائم البنت ... صمت يقطعه أحمــد بدوى ..

ـ احنا بهايم ياعم محمد يا كامل

وينكس الرجل وجهه مستنكرا السؤال فى حياء

ـ ربنا بيقول « ولقد كرمنا بنى آدم .. »

ويزداد وجه على خليل المرهف شحوبا

ـ لا حول ولا قوة الا بالله

ويغضب الشركسى النجار .

ـ بهايم ازاى ياخى .

ويكن احمد بدوى سارحا يتتبع حكاية فى دماغه .

ـ مادام بنام مع البهايم فى حته.. ومن بدرى سوا فى الغيط فى الوحلة والتراب يبقى حكمنا حكم البهايم .

ويبتسم الرجال أو يمصمصون الشفاه .

ـ كنت نوبة راكب للقطار .. وقاعد قبالى واحد أفندى والست بتاعته .. اللفندى بيقول الفلاحين كلها خير ، قشطة وزبدة قلت ياعم دا كلام .. داحنا بنقضى السنة ناكل عيش وجبنة وسريس.. الست ميلت على اللفندى وقالت له « سريس ياحمدى .. دا اللى بنرميه للوز .. اللى بيطلعوه من برسيم البهايم ..؟ » قلت لها ايوه ياستى بناخده من قدام البهايم ونأكله احنا .. حكمنا حكم البهايم .. !!

وكل الرجال ساكتون ، القهر يمشى فى عروق عبد العزيز ثقيلا كالزئبق ، هو يحب المدينة لماذا لاتحب المدينة آله ، القهر يكاد يخنقه هؤلاء ناسه رغم كل شىء ، ذلك الذى يتوهج فى عيونهم ولا ينطفىء يحمله فى روحه :

ـ احنا احسن ناس فى الدنيا

وتلمع ابتسامات فى العيون وترف على اطراف الشفاه ربما لانه يتكلم عنهم يضع نفسه بينهم ··

ـ أيوه احنا أحسن ناس فى الدنيا ..

ويريحه قليلا هذا التباهى .

هاهم قد اقاموا بيتا فى المدينة سيفرضون انفسهم .. وانفاسهم سيفرضون جرجرة نعالهم على هذه المدينة اسبوعا ، استراح اذ يفكر هكذا وضحك على العايق ينفجر فى سيل من الكلام مقلدا سيدة القطار ..

ـ « سريس ياحمدى » ·· ؟ آى ياختى سريس ·· مرة قحبه ·· تلاقى اشداقها محروقه من أكل البصل ·· ومش عارفه السريس ·· فلاحه لب اللب ·· بس تلاقى ربنا رزقها بواحد افندى الشمس لطشاه .. خدها ورقاها ..

يتدخل النجار بطريقته العصبية ..

ـ بنى آدم لما ربنا بيكرمه .. بيبقى جبار ..

ويعود طرق الباب وضحكات العيال والشتائم المقذعة ، عنف الهجوم وقال العايق ..

ـ امشى يابت جك سلاية فى كوعك .. الله الواحد يجرجرهم عالبندر ..

ويتذكر عبد العزيز عساكر الشرطه عند المحطه ويبتسم فى مرارة ·· العايق يروح ويجىء فى الشقه حبيسا فجاه يجمع البوابير ويمضى خارجا ·· ويتبادل الرجال فيما بينهم تفاهما ويتنهد محمد كامل ..

ـ كل ميسر لما خلق له ..

ويقول أحمد بدوى مغيرا الموضوع ..

ـ ما فيش فيلم حلو كده فى السينما يا سى عبد العزيز

ويدور احمد بدوى بعينيه فى وجوه الرجال كانما يرى أثر سؤاله عليهم أو كانما يرجو أن يتحسوا لاقتراحه ويتريث عند الحاج كريم .

ـ ولا ايه يا عم الحاج

هاش ياسم يهز رأسه هزات رتيبه كانه على الاريكه فى صالة الدوار يشرع فى حكاية وعبد العزيز يضحك فى نفسه تلك هى ليلة السينما منذ ماوعت الذاكره مولد السيد البدوى والسفر الى طنطا وتلك الليلة تكرس لمشاهدة رواية فى دار العرض الوحيده فى طنطا (سينما مصر) ومنذ ما وعى عبد العزيز والصور فى ذهنه متخالطه امراه جميله الوجه تغنى حركة شفتيها تسبق مخارج الحروف أو تتاخر عنها رجل قاسى له شوارب يصرخ ويهدد شاب نحيل الوجه طويل السوالف تعذبه الوحده وقسوة الناس ، والحاج كريم على مكانه من الأريكة يحكى والاخوان ساهمو الوجوه فى ضوء الفانوس ويكون عبد العزيز قد رأى الرواية مع ابيه لكنه يراها من جديد فى حكايته ينبهر ربما أكثر من انبهار الذين لم يشاهدوا الرواية اصلا ويعيش احداثها ويعايش شخصياتها من جديد وهكذا فى كل مرة حكاية فى كل زيارة لطنطا بعد قضاء الحاجات وزيارة السلطان يتطلع أحمد بدوى الى الحاج كريم ..

ـ الواحد نفسه هفاه عالسينما ياعم الحاج

وفى المساء فى مجتمع الاخوان يحكى الحاج كريم ويضحك احمد بدوى مراقبا الحكاية اما عبد العزيز فان شيئا ما غريب يحيزه ، هؤلاء الناس يرون من الأشياء غير ما يرى أو أبعد مما يرى ..

ـ لكن هيا حبته ياعم احمد يا بدوى

ـ لا يا سى عبد

ويتجاهم كاسيا وجهه قناع جد

ـ هيا ما حبتوش .. انما عاوز تاخده بعد ماصح وبقى كويس

ويحتار عبد العزيز ويتنهد محمد كامل

ـ بن خولى الزراعه خش البرلمان .. سبحان الله

ويقول الحاج كريم باسلوب فخم

ـ يوسف وهبى راجل عظيم .. رواياته فى الصميم

ويقول احمد بدوى شامتا

ـ وبن باشا طلع خايب

ويضحك الرجال ويلح عبد العزيز

ـ بس بنت الباشا حبته فعلا

ويعاند احمد بدوى

ـ دى بنت كلب طمعت فيهبعد ماصح .. لوكان بيعزق بالفاس كانت اتجــوزته ..؟

وينجح منطـق أحمـد بدوى فى مجلس الرجـال ويدهش عبد العزيز بكيف يرون الأشياء هكذا .. انه يذهب الى طنطا كثيرا لكنه يجلس معهم فى المساء اذ يئوبون من زيارتهـا وينصت الى حكاياتهم دهشـا ، كيف رأوا كل هـذا كيف ملاتهم المدينـة بكل هـذا الانفعال ..

يبتسم عبـد العـزيز ..

ـ فيه رواية حلوة فعـلا ..

ويفرح احمـد بدوى ويبتسم على خليل فى رقة وعدوبه ويوجه له عبد العزيز الكلام

ـ رواية محزنة ..

وتتوجه الوجوه كلها الى الحاج كريم ويضـحك الرجل لهم وهو يتهيأ للنهوض .

ـ مادام كلكم عاوزين .. ما اجتمعت امتى على ضلال .

وطرقات العيال على البـاب لا تؤرق سرورهم ، محمد كامل يقـول ..
ــ نفرج عن نفسنا شوية .. آهى عاده اتعودنا عليها .. ربنا ما يقطع لناش عادة .. مدد ياسيدى أحمد يابدوى ..
وعاون احمد بدوى الحاج كريم على النهوض
ــ مش جاى معانا يا سى عبد
ــ لا والله ياعم احمد شفت الفيلم ده مع اصحابى امبارح ويقول على خليل مخافتنا
ــ ما تقطعش عادتك معانا ياسى عبد
ويخجل عبد العزيز لكنه لا يحب أن يرى فيلما راه بالامس .. تلفت العراقى حواليه دون أن يفهم شيئا اشار احمد بدوى لامراته فخرجت تدارى نصف وجهها بطرحتها خجلا انه يدلل امراته ذلك الانسان الودود .. لكن صديقة الحزينة لا تأتى ..
خرج الحاج كريم وخرجوا وراءه ، سمع عبد العزيز وقـع اقدامهم على السلم الحجرى ، نظر العراقى الى وجهه متسائلا ، طفق يشير له شارحا تململ العراقى ودار فى البيت يهمهم بكلام غير مفهوم ، وأخيرا دخل الغرفة طوى جلبابه تحت راسه ونام ، نظر الشركسى النجار الى عبد العزيز ..
ــ ما تقعد ياسى عبد العزيز .. قلقان ليه
احسن عبد العزيز ان الشركسى النجار يريد أن يكلمه .. هذا الرجل الذى لا يجد ناسا كثيرين لذه فى الاستماع له .. لكنه يريد أن يتحدث الآن .. يريد أن يكلم عبد العزيز احس عبد العزيز بالرغبه فى أن يجلس وينصت اليه لكن طنطا كانت فى الخارج اضـواء النيون والبـنات المقاهى ودكاكين الحلوى والمرطبـات الصغيره .. ربما بعد أن يسكن البيت تاتى سميرة تسـاله أن يشرح لها شيئا فيه حنين نحوها لكن عاديتها وسكونها يثيرانه ، يريد شيئا آخر أن يغرق فى اضواء المدينة ..

الليـــلة الكبيـــرة

أكداس من الأحذية والبلغ والشباشب والقباقيب ، شوهاء متقلصه الجلد متزاحمه متراكبه تتلوى ملامحها فى تعب متقوسه النعال ، اكداس بلا نظام وهو جالس القرفصاء ـ عبد العزيز ـ يحتضن ساقيه ويريح خده على ركبتيه ، البلاط ممتد تحت عشرات الأقدام التى تتحرك في نشاط متحررةمن أى مداس، أو فى أشكال غريبه من النعال البلاط ممتد تحت هذه الاقدام مكسو بالتراب والدهن ، طراز أصيل من القذاره ، البلاطات متخلعه من الارضيه طافية تميد تحت دوس الاقدام ، ربما تحتها الان صراصير وخنافس تبرق عيونها فى الظلمه الحالكه وتتحرك شواربها فى تحسس خائف متربص ٠٠ متى تبدأ جولتها الليليه ٠٠ ؟ مملكتها تتعرض للغزو ٠٠ والاقدام تدوس ثقيله مصممه ٠٠ فى اقصى الصاله يقبع المرحاض بؤرة بلل ونتانه الريح تهب منه أرتال وئيده تفعم الرئه بالعفن يكاد يخنقه الريح العطن والانفاس والزحام والصياح ٠

الصاله مزدحمه كتف لكتف والحاج كريم وجهه لامع بالعرق وضوء الكلوب ، طاقيته الصوفيه الحمراء تقلصت حتى استقرت على مؤخرة رأسه طوق جلبابه متثنى الاطراف وسخ عند اكتافه من العرق والغبار يخذب انفاسا من عقب سيجارة بين أصبعيه ، يتلفت هنا وهناك بسرعه ويصدر الاوامر ٠

ـ يا عايق ٠٠ الكلوبات نامت خالص يا عايق

وصيح العايق ملبيا ، خلع جلبابه وبقى بسروال قصير ينكشف ساقيه المشعرين الأبيضين الوسخين ، يقفز فوق كرسى ويعالج

الكلوبات بابرته وينزل من كلوب الى آخر ويدور في الصالة يتلمص بين المتزاحمين غاضبا ..

ـ اسعوا كده وصلو عا النبى ٠٠ خلونا نشوف شغلنا

ويتأمل الكلوبات بجديه وقد تدفق منها الضوء والطنين وتفتحت عيونها فى السقف على الاخر ٠

نبتت اللحيه فى وجه محمد كامل الاسمر والعرق يسيل على وجهه المعروق ضاحك العيون يسير فى كل اتجاه متحررا من جلبابه، قميصه منسخ عند اكتافه وظهره مبلول بالعرق منحن ، فى يديه حلة كبيرة يغرف الماء من الزير ويدلقه فيها ثم يسير بها ناحية المطبخ .. وعلى خليل يرص الأطباق فى الشباك يحص عدد الملاعق ، معزول عن كل هذا الضجيج كأنما هو نحت ناقوس زجاجى حتى لا يفقد واحد منها .. جلبابه متسخ كانه يعمل فى سرجة ، العايق يصيح به ..

ـ نسلمونى لصحن دى تمام زى ما سلمتها لكم تمام ٠٠ انا شاحتها من كل ست صحن

صياح العايق لا يؤرق عكوفه على احصاء الاطباق الحاج كريم يصيح

ـ شوف شغلك يا عايق بلاش غلبه

احمد بدوى يضحك ويغرق فى الضحك

ـ خايف على زعل الستات

الشركسى النجار يدخل من الباب حاملا دلاء الماء ويصرخ غاضبا

ـ الزحمه على طرمبه الميه بضرب الخناق ٠٠ ينعل ابو دى بلد

يضحكون فى سرور ، حتى فى صياحهم الغاضب انما هم يضحكون فى هذا الزحام الغريب يروحون ويجيئون بسهولة ..

العـــراقى يتلفت بسرعة يريد أن ينطلق زاعقا بالمـدد لكن الزحام والضجيج والانصراف التام عنه يخنقه يدور يتلفت متربصا منتظرا حزمة اهتمـام حتى ينطلق ..

فى المطبخ البوابير واقفه واحدا وراء الاخر يحملون على رؤوسهم حلل الطبيخ السوداء ·· رائحة الطبيخ والدسامه ، يكاد عبد العزيز ان يقىء ، البوابير تئز فى صبر كانما يقرأون دلائل الخيرات لكن بلا حياة ولانغم ·· البوابير تحمل الحلل على رؤسها كانما اخترعت على شاكلة النساء السـود فى القرية .. منحنيـــات على الحلل يكشفنها ويدسسن وجوههن فى البخار ، وتولج المغارف فى الحلل وتخرج وفيها المرق وقطع اللحم السوداء فى اطرافها براويز من الدهن .. الغرفة المعتمة ، البوابير والسخونة وحركة النســوة الغامضة كأنهن يتحركن فى رحم ، امرأة محمد كامل التى طلقها فى العام الماضى تسبح فى بخار الطبيخ الدسم ودخان المصابيح والبوابير افقد التاث عقلها قليلا، تلقى بالكلام وتصلى على النبى دون مناسبة وتنادى السلطان ، وامرأة أحمد بدوى تقلب الســـائل فى الحلة وعينها على صديقة خائفة ورائية .. وأمرأة الشركسى افترشـت الأرض واكبت بسكينها على البصل ودموعها سائلة من رذاذه .. وبنات الحاج كريم تخفى ابتساماتهن كثافة الدخان والبخار والعتامة

نظر عبد العزيز الى وجه رشيده المطل على الحلـــه والمحوط بالبخار ، ألهذا جاءت من القرية لتبقى حبيسة المطبخ ثم الى القطار مباشرة اهكذا كل سرورها ..؟ التفتت ، همست له عيـونها الذابلة همسا حنونا دست المغرفة فى الحلة وخرجت بها عارضة عليـــه قطعة من اللحم مدهنة رفض مشمئزا اعادت القطعة الى الحلة بيد باكية ·· النساء ينظرن اليها وهى لا تتكلم يتحرك جسمها وتتلفت فيفهمون ، حزم أشد من حزم أم عبد العزيز ، السخونة مفروشة

على أرض المطبخ ، سخونة مبلولة قذرة ، لا فسحة لسير أقـدام النساء الحافية ، تشوى على الأرضية وهى مفروشة عليهـا فى صبر ، الدخان الأسود يصنع قبة فوق مشهد الحلل والنساء المضاء بضوء خافت وفى الحيطان مسامير معلق عليهـا قفف وأقفاص ، وحزم بصـل وثوم ، الدخان يرتكز على الأشياء المعلقة بأقـدام غير مرئيـة .

ظهر وجه الحاج كريم على باب المطبخ عرضت عليه رشيدة مغرفة طبيخ ..

ـ دوق كده يابا .

ـ حلو قوى يابنتى .

صوته يسمع ولو كان يكلم نفسه .. عبد العزيز يعرف كيف يسرى صوته فى الجمع الحاشد ، الجالسون على الحصر فى الغرف تحت أضواء الكلوبات التى تون فى بلاده ، كل الأشـداق الآن تتحلب الخمائر فى جدران المعدات تنشط نشـاطا مريبا ، أيام الشقاء على مدار العام ، العناء تحت الشمس المحـرقة ، الطعام الخشن لأيام طوال ، المعدات تتلوى فى انتظار شىء دسم ناعم طرى .

ـ أفتت يابا .. ؟

ـ فتى وكترى يابنتى .. احنا لنا غير الفتة .. حطو الصوانى

تتفرع كلماته الى فروع تدق وتتكاثر حتى تملأ المطبخ تتحرك الأيدى تحت بصر رشيدة وتوضع الصوانى .. ولا تدرى كيف وجدوا لها مكانا .

وتزرع شبرا بعد شبر بأشكال من الأطباق وألوان من السوائل أحمر وأخضر وأبيض وعيون الدهن تسبح على وجهالأطباق .

الحـاج كريم يتحاشى النظـر الى عبد العزيز كذلك الاخوان الوجوه تبتسم ثم تقص الابتسامة قبل نهايتها .. الوجوه المدبوغة

الجلد من وقدة الشمس فى الحقول ، اذ ينتشرون على وجه الأرض يعملون فرادى متباعدين ، ها هم قد تسربوا من الطرق فى تصميم وجاءوا زحاما رهيبا الى المدينة .. ها هم ، ماذا أتى بهم أى معنى لما يفعلون ؟ .

ـ كل سنة وانت طيب يا عم .

أصوات ضحكات وعبد العزيز يريد لو توقفوا ثانية واحدة وقالوا له كلاما يفهمه لكنهم يتجاوزونه ابتسامات مجزوزة عند نهاياتها ، ويتجاوزنه ، وتتفجر ضحكات هنا وهناك كقطرات العرق على ظاهر اليد ساخنة ولزجة ، والأصداء تملأ المسافات البينية سرور ساخن لافح .

ـ مدد يا سلطان .

متواصلون بأسلاك كهربائية هؤلاء ، وهو فى داخلهم قطعة عازلة ، لو يمسك أباه من ذراعيه ويوقفه ويسأله ..

ـ ما معنى هذا ..

لكن لا يوجد مكان خال على المسرح لمشهد كهذا الحركة الطاحنة تجرف كل شيء .

ـ من فاته اللحم يشرب مرق .

ـ كله فى حب السلطان .

عبد العزيز يبحث عن بقعة هادئة فى هذه الخلية ، صانع القهوة .. ؟ غارق فى وش الوابور الذى أمامه عبد العزيز يتأمل اناء القهوة ويتصور انه مثله تماما داخله ملىء بشى أسود مر ، وجه صانع القهوة مضاء بظلال غريبة جلس بجواره للحظة .

ـ فنجان قهوة .. ؟

ـ لا ..

الغرف المفروشة بالحصر مكدسة بناس جالسين لكنهم قائمون فى داخلهم مشرئبون متشدقون بلا قداسة ، المعدة محركة التاريخ، تاريخ هذه الكائنات التى ولدت فى الوحل كميات من الهلام لزجة رجـراجة ظلت ترتجف وتستطيل وتلتهم وتنتفخ وتختمـر بلايين بلايين من الأفواه الميكروسكوبية ، ملحمة التهام شره بشع ذلك هو تاريخ البشر المخلوقات الهلامية التى ظلت تتخلق على مدى الحقب حتى صارت ناسا يبتسمون لكنهم يحتفظون فى داخلهم بهـــذه المعدات الوجوه المدبوغة الجلد مرايا تظهر التواء الأمعـاء المؤلم ، زحام من الجوع المرصوص والكلمات المبتورة نهاياتها يتزاحمون بالأفخاذ وعلى الأبواب أكداس من الأحذية كأنها أطراف أجساد هؤلاء الجالسين بترت وألقيت فى اهمال ..

ـ الفتة رئيسة النصبة .

ـ والرز شاويش الطعام .

ـ مدد يا سلطان .

سقيم ثقيل فى داخله يتأمل وجوه غرفة الشيخ ، أكثر هرما وأكثر امتلاءا ، صانع الرقى يبيع الحروف المقلوبة فى وريقـات هزيلة للمأفونين الذين يحملون على الأذرع أطفالا معلولين ، ناعس العين يتفزز كل حين ليرى هل وصلت صينية الطعـام ، يود لو يخنقه ، يخنقه بشال عمامة الشيخ عباس الكذاب .

ـ أثردوا ففى الثريد بركة .. هكذا علمنا الأوائل رضوان الله عليهم .. الفتة مبروكة ..

والمستكاوى ممتلىء جحظت عيونه يسعل بلا انقطاع ويبصق بلا انقطاع وبين سعلاته يسأل الشيخ عباس .

ـ مافيش حديث كده عن اللحمة أم صلصة يا شيخ عباس .

والشيخ بؤرة الزحام ، اله صغير ، الوسامة والطمأنينة والعبث الرتيب بحباب المسبحة ، الصفاء المتكىء على حشية ، سليل رسول الله ، يتفل فى أفواه الأطفال ويمسح جباههم ، أى مهزلة ..

الكلوبات أقمار ساخنة تمد شوارب ملتهبة كصراصير مضيئة تنوش الوجوه ، الصور المعلقة فى مسامير الحيطان عيون باهتة المقل تطل فى تساؤل أبله أخرس .. يتصور أنهم سوف يدقونه بمسمار فى الحائط ويرقصون تحته هذه الرقصة رقصة المضغ الهمجية ..

فى غرفة قصية كدس العيال والبنات ، يتعابثون يضحكون يقرصون بعضهم بعضا .. وهى هناك ، سميرة ، نفس العينين ، واسعة بنوع من السكون بارد مقيت .. ها هو قلبى حطى فيه شيئا ما ، لكن سميرة تنظر له بعينين غير مدركتين كرهها بشدة .. يود لو تذهب بعيدا بعيدا فانه يحس بالاختناق .

الجوابون ، القطاط الجرباء الظهور الدائرة فى الريف ، اللحى والشعور المرسلة والعيون البراقة ، سرابيل الحديد ، المسابح الهائلة ، أشكال العمائم المزينة بكل شىء حتى بأحذية الأطفال الصغيرة صنوف الهراوات والسيوف الخشبية يملكون ضحكات كالخناجر ، سحن وأردية غريبة .. هذا هو الاجتماع العظيم للجوابين ، وجوه صنعت لتبث الخوف سفن خبيرة بشق الموج ملامح تشق لنفسها سبلا بين المشاعر .

هذا هو .. رجل عبد العزيز السربل بالحديد الطائر بين صفى الذاكرين كمهرج يخرج عن نمه رغاءا مقرفا .

ـ يا أهل الخدمة .. على باب الله .. فى حب السلطان .

ويقبل الحاج كريم عليه مرحبا باسطا ذراعيه ٠

ـ أهلا أهلا أهلا يا عمى ٠

ويحاول أن يأخذه الى الغرفة لكنه يرفض ويتخذ لنفسه مكانا فى الركن ٠

ـ لقمتى وقهوتى وامشى .. ما أقدرش أقعد .. الدرج بتاعى ماأسيبوش أبدا ٠٠

وتوضع الصفحة أمامه يلوث فمه ولحيته وثيابه .. ثم فنجال القهوة المر ثم يمضى متجشأ .

الصوانى قادمه ، لتخلى الافواه من كل شيء حتى الدعـــوات الصـــالحات

ـ وسع يا جدع ٠٠ اوعى يا خويا ٠٠ حاسب ٠٠

المعدات كائنات هلامية مقبلة من قاع التاريخ ، اميبات مصممة فاتكه مبيده لم تتطور منذ وجدت فقط نبت تحتها رجلان يحملانها وبدأن يناولانها الطعام أغمض عبد العزيز عينيه واحس بذات الرجفه التى أحسها فى ذلك الصباح المبكر حينما وقف حزينا وسط حقل القطن وبيده آلة الرش الهرمه يسمع قرض الديدان فى النوارات الفضه ٠٠ تأمل ذلك البساط البشرى القارض ٠

الديناصورات حكمت العالم مليون عام ، أجساد هائله بامخاخ صغيره وافواه قارضه يتزاحمون هكذا دون تدبير ، عبد العزيز يكاد يبكى حزينا انه ابن هؤلاء المنقضون على الطعام فى بهيميه غريبه يود أن يقف ويصرخ فيهم أن يكفوا وان يتعقلوا العالم يقسموه الى مربعات صغيره ويتاملوه ذلك التزاحم الرهيب ينفى الفكر ، ينبذه ويدوســـه ٠٠

بقايا السيجارة فى يد الحاج كريم ملوث بالدهن يقف وسط الصـــالة يتـأمل المأكلة الرهيبـــة فى فرح مبهم غريب ، نظر الى عبد العــزيز ..

ــ أقعد كل ..

ــ ماليش نفس ..

ــ كل مع النـــاس ..

ــ لا ..

فهو ليس معهم أبدا بل يود لو وقف امامهم باســـطا ذراعيه ليمنعهم ..

فرغت الاطباق على الصوانى فتات الخبز وبقايا الطبيخ والعظام اللامعه بقايا الموقعه التلمظ والضحك وصحيات الانتصـــار .. ثم مدت الايدى وأحاطت بحافة الصينيه قبضة بجوار قبضـــة رفعت السواعد الصينيه لأعلى وانطلقت الحناجر معا فى كورس جماعى

اللهم هنى من اكل .. واخلف على من بـــذل
بســـر النبى .. والفاتحـــــه

ثم تقرأ الفاتحـــة بصـــوت عال مدو شبع متجشىء .. وفى المطبخ السنة النار تلعق قيعان الحلل السوداء والنساء قابعات فى الأركان كأنهن راقدات تحت هذا الصوت الوحشى فى استسلام .

انطلق عبد العزيز خارجا من باب بيت الخدمه .. البيـــوت القائمه على اضلاع الباحه منقطة بأضواء الشبابيك ضحكات النسوه وتناديهن فى العتمه هسهسه حليهن وذيول ضحكاتهن المغناجه .. لمح طرف رداء الفتاه الطنطاويه التى يعرفها يبرق تحت شرخة ضوء تشق عتامة بئر السلم فى المنزل المقابل ..

البنت تتنفس فى الركن ، تنفسها المسموع يشده بقوة ذراعاه يتقدمان جسده كقرنى استشعار ، ارتطم كفاه بالحائط الخشن ضغط بجسده وسادة جسدها المركونة على الحائط ، دس فمه فى فمها المفتوح ، أسنانه تصطك بأسنانها ، شفتاها وسادتان من نار صغيرتان طريتان ترقصان فى فمه كأفعوين يمرغ وجهه فى وجهها وقد تلوثت الشفاه الاربع باللعاب يكاد يقتلع شعرها من رأسها وهو يشدها اليه يريد ان يحتوى جسدها الخاطىء الساخن بالاثم ‥ لكنها انفلتت من تحته هاربه ٠

تبرطشت جبهته بالدم كانت قد ارتطمت بالحائط حين انفلتت الفتاه مسح الدم بكفه ، كفاه ايضا دميتا من خشونة الحائط ‥ عيناه اعتادتا الرؤيه فى الظلام ‥ هناك تحت السلم رجل وامرأة يشد شعرها ويدفن وجهه فى رقبتها ، عبد العزيز يتأمل ذاهلا ، العايق والجازيه ‥ كتم صرخه كادت تخرج من صدره قام العايق يسوى هدومه ، جرى قبل ان يدركه العايق يمارسون الجنس فى جماعه كقطع الارانب ‥ انطلق يجـــرى الى الباحه هسهســـات الفوايش وذيول الضحكات وتنادى الطنطاويات من الشــبابيك ، مربعات الضوء المعلقه على الحيطان في العتمه ومن شباك بيت الخدمه يأتى ذلك الصـــوت ٠

اللهم هنى من أكل
واخلف على من بذل
سر النبى والفاتحه
بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠٠

أى زواج بين هسهسات الحلى المرتجفه والتنادى المغناج وهذا الزعيق ‥ قفز درجات السلم هاربا ‥ ومشى فى شارع سيدى مرزوق ، عشرات من بيوت الخدمة الشبابيك فى الأدوار الأرضية

مفتوحة على ردهات مزدحمة بالناس الوجوه والطواقى الأيـــدى والأكتاف طقطقات التمطق وصفق الملاعق فى الصحون وضحكات الأمعاء الفرحانة ..

مشى عبد العزيز مسرعا .. والأرصفة على الجانبين مزدحمة بحلقات الجالسين حول نوبات من نساء لحيمات ثقيـــلات المعاصم بدمالج الذهب يضحكن عن اسنان ذهبية تاجرات الحشيش ، أمام المرأة الوابور وعدة الشاى ودلاء الماء مليئة بالجوز .

الناس نهر يسيريين دفتى الشارع الآف الأقدام تصك الأسفلت فى اضطراد ، حفيف مصمم عنيد يسير تقيـــل الوطء بلا تردد والوجوه مشقوقة بالضحكات .

ـ الى أين يا ناس .. ياقومى .. الى أين

كانما حيوان خرافى الحجم غريب الشكل يستطيل جسده فى شوارع المدينة ، يســير لا يلوى على شىء ، واسع العيون بالبلاهة لايسأل ، خواره يصدر من أعماق مجهولة يهز الأرجاء فى رتابة وهو يمشى يسعى نحو هدف غير معروف ..

البيوت العالية على الجانبين واجهاتها معتمة تتقسمها مربعات الشبابيك المضاءة حيث تتكدس النساء .

الضحكات الناضحة بالجنس يود لو يعتصر الرقاب الناعمة حتى الاختناق المدينة الماكرة الناعمة بالغنج والزواق ..

الشارع مسقوف بقبة من الغبار المضاء ، مشى ضائعا فى غابة من الأجساد ، الرجال والنساء والعيال ، التجار على الجـــانبين أذرعتهم ممدودة أمامهم على البنوك فى قنوط ، لا أحــد يشترى فقط يمشون فى الشوارع وينظرون اشتروا أمس مســاءا ، وقد يشترون غدا لكن تلك هى الليلة الكبيرة .. أسطح البضائع الملونة

اللامعة تناضل بآلاف العيون البراقة ضد ذرات التراب التى تتساقط عليها فى اصرار والجمع يسح فى الشوارع كرذاذ لا ينقطع حفيف الأقدام متصل بلا هواده ·· وهو يمشى ··

دخل مع الجموع تحت قنطرة سمنود نفق طويل مظلم من فوقه تمر القطر كالزلازل أصبح المسار ضيقا فتكاثف الزحام ، أولاد طنطا يطلقون الصفافير .. فترن فى جنبات النفق تئز ازيزا ، العساكر على ظهور الخيل ينوشون أطراف الحشد بخيزرانات مذعوره ·· زلازل القطر العابرة ·· لكن خفيف الأقدام لا ينقطع ، الحشد السائر يملك جلال النهر لا تعوقه خبطات تهز سطحه ·· انتهى النفق ليبدأ مهرجان الضوء والغبار وضجيج الميكروفونات ·· مساحات شاسعة من الأرض الزراعية كانت مزروعة قمحا ، أخليت من أجل المولد وامتلأ الامداد الشاسع خياما ·· كل شيخ طريقة نصب خيمه لا تباعه وأقام على واجهتها لافتة كبير تحمل اسم الشيخ وطريقة ومن أى القرى جاء ، وفى كل خيمة مقرىء أو مطرب أو قارىء سيرة أو شاعر شعبى والميكروفونات المنصوبة على ظهور الخيام كأنها خطباء خرافيون ·· يتصايحون بأصوات هائلة فى البرية ··

دخل عبد العزيز الخيمة .. البنت واقفة على نصب عال وجهها كقمر معتم ملفوف بطرحه بيضاء وأعضاء التخت جالسون عند أقدامها والآلات تئز فى أيديهم كذنابير حمراء مسمومة ، شيوخ يلعبون حواجبهم ووجوههم تضحك فى خبث ، عيونهم منفصلة عن الأيدى التى تعبث بالآلات ·· والبنت تغنى بصوت مبحوح حزين ·

ــ يا ظالمنى ·

والحشود الواقفين أمامها يصرخون ·

ــ آى والله ·· يا ظالمنى ·

الميكروفون يزعق يريد أن يمزق سحابة الغبار المضيء المحلقة فى السماء .

ـ لو جتنى فى منامى يوم يا ظالمنى .

وصدرت عن الخلق الواقفين صيحات اعجاب مدوية .. والبنت أغمضت عيونها فى استسلام ، ود عبد العــزيز لو ينتزع ثوبها ، يعرى نهودها يتشبث بخصلات شعرها وينظر فى عيونها بامعان ..

وقارىء السيرة مجنون على الدكة يرقص ويقفز يصارع خصما وهميا .

السيف يقــول للنبى ..
يازين ودينى ..
وبلحم كافر يا زين ..
هيــا غدينى ..

والحشود الجالسة أمامه على الأرض تتفزز من الجنون .

ـ آه يا نبى .. يا نبى ..

والمطرب الشعبى مفتون بذاته .. أمال طربوشه ووضع كفه فى طوق جلبابه وهو يهز أكتافه تيها ..

عيون حبيبى عسل والكحل ربانى
وآلاف الحناجر ..

ـ يا حبيبى .. الله يطول عمرك يا شيخ تانى ..

والرجل يميل راسه محييا فى كبرياء ..

وسط حقل الخيام الشاسع يمر طريق كبير على جانبيه نصبت السركات والمراقص والمــلاهى ، النصــابون ولاعبى الثلاث ورقات والرجل العجيب الذى يدور بموتوسيكله الطائر داخل كرة هائلة

من الحديد ، العجل الذى له رأسان ·· الرجل الذى بلا رأس على الاطـلاق ·· الفتـاة الكهربائية ·· الســت صفية الاســكندرانية وفرقتها ·· أحمد الكسار المنولوجست العجيب ·· خيام هائلة من الخيش والخشب ودكك عالية منصوب أمام هذه الخيام يعـرض عليها عينات مما يجرى فى الداخل الطبل والزمر والراقصات فى الفساتين الصارخة الألوان والوجوه الغارقة فى الطلاء ·· والمعلمة السوداء اللحيمة جالسة الى بنك عال تصرف التذاكر وأمامها درج متخم بالنقود تنظر الى فتاة واقفة أمامها تترقص ··

ـ اطلعى يابت فوق ·· خدى خمسة وعشرين قرش أهم ·· جمعة مولد اكسبى لك قرشين ·· اطلعى عالدكة هزى نفســـك ساعتين وخالصين ··

والنداءات تنصب على الناس من الميكروفونات ··

ـ حود يا راجل شوف يا جـدع ·· هنـا مروض الوحوش المرعب ··

الضجيج والمشاهد الصارخة تنجح فى اجتذاب أطراف الحشد السائر ، يقفون أمام الدكة الشاهقة ينظرون ويتجمعون ويتجمعون وتمتلىء بهم الخيام الضخمة وفى الداخل على خشبات هذه المسارح تتقافز أمامهم هؤلاء الناس فى ملابس من كل شكل حركات زرية ووجوه ممسوخة « وتخور » أسود جبانة كالبقر ويخرجون من هذه الخيام قانطين ليواصلوا السـير ، السـير الذى لا يكف ولا ينقطع والعساكر على ظهور جياد الحكومة أو راجلين يقفون على الجانبين وجوه ريفية فى حلل من الكاكى كأنما يودون لو خلعوا هذه الثياب وساروا مع الحشد لكنهم مشـــدودون بخيوط لاترى كالدمى الى خيمة القيادة .. ضـباط مســـنون جاهمون ينظرون يائسين الى الكتل التى تستحيل السيطرة عليها ، قد تصدر الأوامر وتنهـال

العصى ويصنع الذعر دوامات ، لكن الفتـوق التى أحدثت فى ذلك الجسد الانسانى تلتحم ويبقى العساكر مهتاجى الوجوه حائرون .. كيف يمكن السيطرة على مارد خرافى ممدد على الأرض يتلوى فى حركة دودية ..

ومرة أخرى عبر النفق المظلم عائدا الى شارع السكة الجديدة ، موكب أبناء المحلة الـكبيرة ، غابة من الكلوبات ، كلوبات هائلة الحجم يتفرع الواحد منها الى شـعلتين أو ثلاث الرجال يحملون الكلوبات الضخمة ويسيرون لا يلوون شيئا ولا يهتزون بالأذكـار فقط يحملون هذه الكلوبات ويسيرون ..

دخل وسطهم دون التفـات ، وش الكلوبات والضوء الأبيض الباهر والأجساد النحيلة فى الجلاليب الحريرية اللامعة والرؤوس فى اللاسات التى تتدلى عذباتها وتسرح على الزهور .. عمـال الغزل لا يخرجون بموكبهم فى النهار ، يعملون فى عنابر معتمـة بغبار القطن ومضاءة ليلا ونهارا فهم لا يعرفون ضوء الشمس فى وجوههم الشاحبة شراسة وتصميم ، ينفثون سجائر الحشـيش ويخبون فى الجلاليب وسط غابة الكلوبات والطنين زحمت رائحة الحشيش خيشوم عبد العزيز .. رجلاه ثقيلتان مشى مسلما نفسه للاشيء تجاوزه الموكب ومشى أمامه كحزمة أقمار ساخنة وهو ينظر غارقا فى الزحام حوله ..

لكنه غرق فى موكب آخر ، صفان من الراقصين فى يد كل طبلة صغيرة يجلدها بلسان جلدى ، أصوات حادة قاطعة على بحـات صوت الراقصين المجنونة صفان من الفلاحين يرقصون بجنون صفان عرقانان والشيخ راكب على فرس هزيلة ماكر الوجه تحوطه البيارق الشاهقة الملونة فى أيدى الرجال .. الخبطات المسعورة فى رأس عبد العزيز ، يكاد يقىء تعلقت ثمالات وعيه بذلك الشيخ المستعلى على الفرس المسكينة يا لله .. كأنما لكل كيان شامخ مطية ذليلة ،

هذه الفرس أو حمارة الواعظ العجوزة القميئة نفس العيون البهيمية الذليلة ، تكاد رأس عبد العزيز أن تنفجر ، وعيه يتخدر وينسحب مع هذا الصخب العارم السائر فى المدينة ..

غدا صباح الجمعة زفة الخليفة اجتماع كل الخلق وكل البيارق وكل الطبول تتدفق الجموع تحت الظهيرة وفى مقدمتها (الخليفة) يرتدى طيلسانة ويمسك عمامته بيده أن تطير ، يضيق شارع السكة الجديدة المسقوف بالظلل بهذا الحشد تكاد البيوت أن تميد على الجانبين من الزحام والشبابيك والشرفات مثقلة بالنساء المتفرجات تلقين حبات الفراولة وحصى الملح ، الخلق كأنه يوم القيامة الجسد الخرافى الممدد فى المدينة يحرك عضلاته الهائلة ويمد خرطومه ليدسه فى مقام السلطان ..

فى الصدر ، عند منتهى النهر البشرى المتدفق ــ مزروع الجنبات بمصابيح الكهرباء ــ وجه العروس الباهر الغارق فى الزواق ، عروس هذه الرغبة العارمة الممددة فى شوارع المدينة .. دفقات من جسد الريف الأسمر تندفع ارتالا متساوقة الى هذا القلب المضىء ، تستطيع عين المؤمن أن تراه على بعد آلاف الفراسخ بهذه الكمية من الأضواء .. الريف الغارق فى الظلام المشتاق لليل مضاء ، أى قلب ميكانيكى خرافى القوة يضع هذا البهاء على صدر المسجد الشامخ ..

انجذب بقوة خارقة الى مقام السلطان .. غارق فى الضوء الأبيض تحوطه الحشود جالسون حوله من كل جانب فى تراص لا يدع موقعا لقدم التصق بالنهر المتدفق ، اندفع مع الارادة الساثرة التى تصنعها آلاف الأجساد الماضية نحو مقام السلطان .. لكن تساؤلا قويا ملحاحا داخل عبد العزيز الى أين هو ذاهب ..؟ لماذا ..؟ أهى عيون الحاج كريم البنية المحلقة

بالشوق . . .؟ أهى التى خلقت فيه التوق لأن يرى مقام السلطان . . .؟ أهى التى خلقت فيه العجز عن أن يرفض رفضا تاما ويقف قائلا (لأ) حقيقية قوية وينطلق بعيدا عن هذا الجموع ..

انحشر الناس فى باب المسجد ، أيدى خدم المسجد تعمل بالمقارع فى الناس .. الناس يتملصون وجوه متراصة ، وجوه ، وجوه ، تكاد تلتصق الخدود والأنفاس والتأوهات والصرخات لا يمكن أن يفلت ، الجمع يأخذه الى المقام .. الكتلة الزاخرة بالقوة المتريثة بفعل هذه القوة التى تحتويها وتكاد تنفجر بها لحد باب المقصورة .. ومقام السلطان ..

كيان نحاس هائل لامع ، آلاف انعكاسات الضوء الساقط من ثريات السقف تتحوى حول المقام كتلة الخلق ، آلاف القلوب آلاف العيون آلاف التنهدات والآهات وصرخات العذاب والهيام ، طاقات الزهور المشنوقة على شبك النحاس خنقت رئات وريقاتها بالأنفاس الزاحمة .. الناس متلاصقون تماما كأنهم كتلة لحم واحدة بالآلاف الرؤوس تلتف حول المقام من شبك النحاس اللامع ، جسد واحد يزخر بكل ما يزخر به الجسد من وسوسات غريبة يلتقطها جسد عبد العزيز المرهف .. فذلك الضوء الباهر عاجز عن الغوص بين الناس وخلق المسام بين كتل اللحم المتراصة .. هناك تقبع وتتحرك وتتململ كدودة وسوسات وهمسات لا يمكن السيطرة عليها .. تسعى وتتحسس وتلتحم وتغرق فى الابهام .

ـ مدد يا سلطان ..

هنا البؤرة المحمومة بأشواق تمتد فى دائرة قطرها عشرات الأميال ، من هنا تخرج دفقات الوجد تتفرغ وتنقسم وتدق تسبح وتسرى وتمشى فى عروق الريف فى السكك والحارات ومن قيعان البيوت فى المنادر المضاءة بالفوانيس ، عبد العزيز فى ذلك الفرن الساخن دائخ يكاد يقىء .. جفونه ثقال الحاج كريم واقف فى ردهة

بيت الخدمة قرير السرور يشير فتتحرك الصوانى وينطلق طوفان الشبق والتمطق الملتذ ..

خرج الجمع بعبد العزيز محمول على أكتاف قوية متزاحمة ، طول عمره محمول على هذه الأكتاف تأخذه فى مسارها الذى تدقه فى الأيام بملايين الأقدام المتشققة والأحذية المتهرئة عاجز تماما عن المقاومة ..

أمام باب المقصورة نصب الذكر، صفان لا آخر لهما المسجد كله يهتز من جذوره من دق الأقدام وصوت بحات الحلوق ، وقع مدوى هادر ساخق لا يناقش ، لاتردد ازاءه ، يستلب كل رجع مخالف ، يطارد الهمسات والهسهسات بحات قلوب جاءت من أقطار الأرض وتجمعت فى شلال هادر من الأصوات الانسانية يجتاح الصخور ويحفر بيد فولاذية هائلة ..

الصفان يقفزان ويدقان الأرض بأقدامهما ، قلب طنطا ذبيح تحت هذه الأقدام العريانة ، جسدها المصنوع من آلاف المنازل القديمة والحارات الملتوية والشوارع المزوقة ينسحق تحت الكيان اللحمى المدمدم ، لا مهرب من هذا الرعد الذى يمد أذرعه فى كل الجنبات ويمشى فى أرجاء المسجد فى كل اتجاه .

بلاط الرخام مفروش بالناس جالسون جسد بجانب جسد تنتزع رجلك من بين جسدين لتحشرها بين جسدين آخرين وتظل تخوض رمال الناس متجمعين دوائر حول وابور جاز يوش واناء قهوه ضخم وقراقيش ودقه ورجال معممون بأشكال من العمائم حمراء وخضراء وبيضاء ، يبذل الطعام والقهوة بسخاء، ملايين الافواه تأكل وتشرب وتدخن بلا انقطاع أشكال عن الوجوه تحت العمائم الهائله سرابيل الحديد وسيوف الخشب والمسابح الكبيرة والصرخات

والتراتيل والادعية لكن بحة صوت صفى الذاكرين شاملة مسيطرة شامخة فوق الرؤوس ·· وعبد العزيز يبذل كل ما فى طوق اراده انسانيه لكى ينفصل ويعلو ويقول (لا) لكن لا جدوى ··

مقرعة خفيفة على كتفه ، ضربه هينه ، التفت ليجد ازاءه وجها مشرئب الأنف لامع العينين يضحك فى تحد ساخر شامخ حنون ويمد يده بحركة مسرحية ·

ــ ولع لى

لم يكن معه سيجارة ليشعلها ناوله عبد العزيز سيجارته كالمنوم ضحك الرجل منتصرا ضحكه تدعو قلب عبد العزيز ليحلق

ــ الله يولع قلبك بمحبة السلطان

وانطلق ضحكه مجلجلا وهو يشق طريقه بين الجموع وعبد العزيز يتامل اكتافه التى تساوق حركة اقدامه الماهره الخفيفه حتى غاب ··

تذكر سميرة بقوة رنت فى داخله ضحكتهـا الرائفه النقيه وثناياها اللامعه الصحيحه وعيونها المشرقة دائما . . لكن قلبه ثقيل . . مشى خارجا من المسجد دلف الى الشارع من باب جانبى ·

حتى فى الحوارى الضيقة المظلمة كان يرى اشباح الريفيين ، يسرحون فى دورة المدينة الدموية حتى الشعيرات الدقيقة وحلمات الأعصاب ، الريف آلاف لف الأزرع حول جسد المدينة واحتضنه وسرب انفاسه الى رئتيها فى لثم متواصل اكيد ·· مشى ··مشى ·

فى الاركان المعتمة نصبت اخبية الخيش، صناديق يتفجر الضوء من خروقها ابيضا باهرا ، فى الداخل يتكدس الريفيون وينحبس ضوء الكلوبات الباهر والدفوف والطبول والسباسب اكواب الشاى السوداء عواصف دخان الجوز تنطلق من بين الشفاه ، عيون تجار

الحشيش تبرق فى الاركان ، زار نوى الضربات يذبح القلوب ، وعشرات القلوب تتقدم للذبح والبنت شاحبه تحت الطلاء الثقيل الصناجات تطير فى محبس صـــندوق الخيش كعصافير ، الترتر والبرق على جبينها يخطف البصر ، ثنيات جسدها فى ثوب الحرير الأصفر ..

ـ مدد يا سلطان

خرج الى الحارات المعتمة الساكنة اطراف المدينة المظلمة التى تقصر عنها وقدة الكهرباء المتلالئة فى القلب ، الكلاب والمومسات ومخبرى البدليس ، امتلأ خياله بصورة الحاج كريم مشوق العينيين على الطريق الىالمحطة ، تلك هى المدينة التى يطير نحوها قلب الحاج كريم وعيونه البنية الهائمة .

ـ أنت هناك

صيحة تسق الظلام كفرقعة السوط ، تساؤل صارم قاطـع كالاتهام الحاسم الذى لا يدفـع ، أحس ـ عبد العزيز بأحســاس الفريسة يريد أن يهرب يلتئم بالجسد الهائل السائر باقدام ثقال ترج المدينة شوارب الصراصير المخبوءه تحت البلاطاترفعت رؤوسها من العفن واقبلت عليه تهاجمه يكاد يختنق ابله زجاجى العينيين كالخروف الذى ذبح أمام باب الخدمة .. جرى باسرع ما يستطيع حتى لا تفترسه الخيزرانات المشرعة لأعلى جرى حتى انتفخ كبده وعميت عيناه بالمجهود .

بدأ يصعد درجات السلم الى الباحة أمام بيت الخدمة مهدمـا مسحوقا ، والحاج كريم واقف فى الصدر عباءته سابغة علىجسده المكين .. يستند على عصاه وعيناه جليلتان بالصفاء والرضى وشفتاه تهينمان بالتراتيل المبهمة والرجال على الحصر مجهدون اثر جولات الذكر فى الليلة الكبيرة ، زحام هائل من الذاكرين المجهدين يمسحون

العرق فى المناديل وذيول الجلاليب صوت محمد كامل يجلجل يقترح الفواتح للاخوان والصحاب والشبابيك مزدحمة بالنساء المتفرجات وضحكاتهن الطائره ٠٠ وجاءت الصوانى محملة باكواب القرفة الصغيرة ودارت على الناس ودار السرور والزياط ٠

والحاج كريم واقف فى مكانه شامخا يتأمل ما حوله فىّ سرور، عبد العزيز يتطلع الى أبيه لكنه لا يدرى لماذا يذكره مكان الحاج كريم بموقف عنترة العبسى فى كتب السيرة اذ نصب جدثه الميت على فرسة قبالة الاعداء ، فظل هيكله المنصوب يلقى الرعب فى قلوبهم أياما ٠٠ حتى استفزت الفرس وقفزت وانهار الهيكل الجليل ٠٠

رجال الخدمة كلهم يتكلمون فى نفس واحد ويضحكون الكل متكلم ومستمع وضاحك فى نفس واحد والشيخ جالس على حشيته يبتسم فى رضى صانع القهوة يسلم سمعه لوش الوابور العايق يكركع بالضحك ويكشف من اسنان أهلكتها الكيوف والعراقى يتلفت حواليه ويضحك بلا معنى واحمد بدوى يسأله عما يضحكه ويشتمه ومحمد كامل يبتسم فى رضى ٠٠

والنسوه بجوار البوابير الهامدة والحلل الفارغة رشيده تبتسم وتحكى عن الطبيخ وكيف شرب هؤلاء الناس ترعة من الملوخية وامرأة محمد كامل أو مطلقة محمد كامل واسعة العيون بنوع من البله لا تكف عن الثرثرة بالوان التسابيح والصلوات على النبى ٠

وفى الغرفة الأخرى العيال والبنات و « سميره » بينهم ضاحكة تعابث البنات الريفيات وتضحك من قلة معرفتهن ٠٠

والحاج كريم جالس على خشبة وسط الصالة وحوله الناس

ـ كل سنة وأنتم طيبين ياولاد

فرح طيب دمت وهم يحيطونه باطار الابتسام والوجوه الفريرة ،لكن كيف ينامون هذه الليلة ..

ـ حصير الصيف واسع ياولاد .. كل واحد يميل مطرحه

هو أيضا سينام حيث ينتهي به المكان يطوى ذراعه تحت راسه نام عبد العزيز يتأمله وهو يجذب آخر أنفاس سيجارته .

ودون مقدمات حى أحد الناس عبد العزيز من ركن قصى
ـ كل سنه وانت طيب يا سى عبد لعزيز

وعبد العزيز لا يعرف ما الذى فجر في صدره سـخطا عارما اجئا ، ربما أرتال الرائحة النتنه من المرحـاض ربما جموع حشرات وقد بدأت تشرئب شواربها من الشقوق بعد أن هدأت ركة الناس لم يكن يدرى سر سورته المفاجئه لكنه أحكم السيطرة على نفسه متصابرا وصوت الرجل يسرسب الكلام كالنعيق ..

ـ كل سنه وانت طيب ياسى عبد العزيز .. المولد السنه دى ان ماشاء الله .. حاجه عمرها ما حصلت .. مدد يا سلطان .. الخلق ايهأمم .. أمم

لم يعرف عبد العزيز كيف انفجـر ، لكنه كان أعمى بغضب عارم ..

ـ أمم من غير عقل .. من غير تفكير .. أمم بتدوس زى البهايم .. مش عارفين رايحين فين .. مش عارفين جايين منين ..

كل كيانه يصرخ صرخات ترن فى بيت الخدمه شدهت الوجوه خرست كل الألسـنة تعلقت به الأبصـار والأفواه مغفوره وفى العيـون ذلك الذعر الذى تصنعه كلمات الواعظ حين يصرخ فى الناس ، انتابه الخوف وبردت اطرافه لكنه استمر فى الصراخ ..

ـ بتعملوا ايه ٠٠ رايحين فين ٠٠ جايين منين ٠٠ ياعبـــاد الأصنام

ارتجف صوته لكن بقوه خارقه منع دموعه من الانهمار وجه الحاج كريم قاتم السمره ينظر اليه بثبات ويتكلم بقوة عارمة .

ـ ناسك ٠٠ أهلك ٠٠ بهايم يا عبد العزيز ٠٠ خلق الله اللى جايه من آخر الدنيا فرحانه ٠٠ خطوتهم ينهز لها العرش ٠٠ ياجاهل ٠٠ وسع من طريقنا ٠٠ ابعد عننا يا بولبـــاس نجس ٠٠ ابعد لا تدوسك الرجلين وتسويك بالأرض يا كافر ٠٠

انتهى عبد العزيز تماما كانما هو راقد وملايين الأقدام تدوس صدره ووجهه وتسحق مخه واحشاءه وتخلطها بالتراب ، هو ميت قاعد ٠٠ وصوت الحاج كريم متهدج الى درجة البكاء ٠٠

ـ عباد اصنام ٠٠ ؟ !! الله يلعنك ٠٠ احنا قلوبنا مليانه بمحبة أولياء الله ٠٠

وانتشرت الهمهمات ومصمصات الشفاء فى الأركان

ـ لا حول ولا قوة الا بالله

ـ اسكت ياحج كريم ٠٠ اسكت

ـ استغفر الله يا راجل ٠٠ ما تلعنش ابنك

ـ لا اله الا الله ٠٠ لعنة الوالد وحشه ٠٠ غضب الوالدين من غضب الله ٠٠

ـ ساعة غضب ٠٠ اللهم لا تسمع

ـ ولد طيب ٠٠ لكن الشيطان شاطر

وعلى خليل فى الركن القصى أصـــفر كالموتى والعـــايق ذليل الوجه ككلب واحمد بدوى ينظر الى عبد العزيز دون تصديق ٠٠

وعيون محمد كامل تسح بالدموع ·· يرفع يديه ومن خلال دموعه ··

ـ الفاتحه يا رجاله ·· الفاتحه ان ربنا يهدى عبد العزيز ابننا ويبعد عنه الشياطين ··

اغمضت العيون وبدأت هسهسه القراءة ، الحاج كريم يقرأ رافعا يديه فى ابتهال ، انهمرت دموع عبد العزيز بلا حساب مشى يجرجر نفسه مبتعدا ··

بدأوا يتساقطون يفرش كل واحد لفاعه ويطوى ساعده تحت راسه وينام رجال ونساء واطفال بلا تمييز وبدأت الضجة تخبو رويدا رويدا ·· عيون قليلة ساهرة وثمالات احاديث متباعدة فى الأركان والحاج كريم يدور بسوى مراقد النائمين ويقضى الحاجات ويرشد السائل ثم يجلس متهالكا يمتص آخر انفاس سيجارته ··

دخل عبد العزيز غرفة العيال، ابعد جسدين ونام بينهما ، طوى ساعده وأراح رأسه ·· ثمالات الحديث فى أرجاء بيت الخدمه حزبنه، لانوم .. دموعه تسح .. تساقطت الكلوبات واحدا وراء للأخر حتى ساد الظلام أنفاس الخلق الرتيبه دبيب حشرات الليل .. وهولا ينام كأنما هذه الحشرات تمشى داخل دماغه لا نهايه لهذا العذاب لا نوم مع الوخزات فى داخله ، جسده مجهد لكن رأسه يقظه بشكل كامل ·

بدأت الغرفه تستضىء بضوء باهت خابى ياتى من شقوق الشباك رأى وجه سميرة بجوار وجهه ، تبتسم فى نومها . حلوة ، طفلية الوجه ، احبها من شغاف قلبه ، تحدرت دموعه ساخنة ، قلبها بشفتين مرتجفتين ، قبلها فى فمها ، أنفاسها رتيبه ساجيه ، تأمل صفاء وجهها ، .. لقد عرت نفسها من حرارة الغرفة أول مره يرى جسدها عاريا هكذا ، خمرى ساج اللون فى هذا الضوء

الكابى ، جســــد متميز ممتلىء متناســق رفيق ، ضــمها اليه
طاوعه جسدها النائم ، وضع رأسها على ذراعه وضمها اليه أكثر ،
ملتصقة به تماما بشغف عميق مد كفه تحسس بطنها العــارى
طرى ناعم دقات قلبه تسرع قرب وجهه من وجهها ليقبلها ، ثم فجأ
فتح عينيه كانت تنظر اليه بثبات والدموع تنهمر من عيونها ..
انتهى كل شيء . . سقطت يده ، تحول الى لوح ثلج ، قام متثاقلا ينقل
رجليه بين الأجساد النائمة حتى خرج من باب بيت الخدمة ، رؤوس
تفزع تنهض تنظر اليه بعيون مستفهمه يتجاهلها فتعود الى النوم ..
الشارع ناعس مصابيح متباعدة مومسات يتسكعن فى الأركان مخبرو
بوليس يسيرون بنشاط كنسمات فجائية عساكر الدرك يتمشوز
فى عناء ..

وفجأ اندفع سكير طويل متقوس يسير متخبطا ويصرخ بأعلى
صوته

ـ يا داهيه دقى .. حوشونى ياخلق هوه

وخلفه بضعة عيال مشعتى الشعوى يلبســون اثمالا غريبة ،
لصوص وجامعو اعقاب سجائر يطاردونه بالحجارة تتساقط عليه
كالمطر .. وهو يصرخ مستغيثا بأعلى صوته فى لمحات انقض عليه
المخبرون والعساكر بالعصي وكعوب البنادق حتى سقط فى مكانه .

الـــــوداع

أصبح الشرود جزءا من طبيعة عبد العزيز ، ينعزل عما حوله يغرق فى تصوراته ، لكنه يفيق كل آن على حديث أبيه مع ابنة خالته حبيبه .

ـ سوق اتنصب .. اللى كسب كسب .. واللى خسر خسر .. ربنا يطلعنا منها على خير .

ـ بدرى يا حج كريم

ـ جوار ربنا أحسن يا حبيبه

ـ بس الفراق صعب

الموت هو النتيجة النهائية للصراع بين عوامل البقاء وعوامل الفناء .. حقيقة صغيرة وثابتة وأكيدة .. فلماذا الألم ؟ لازال فى صدر عبد العزيز قلب ذلك الطفل الصغير الخائف والعيال متكومون على ظهر الفرن حول اختهم الكبيرة والمصباح عين ساجية مرسومة على الحائط وكلاب القرية جميعها تقيم مناحة هائلة فى جوف الليل وتقول الأخت الكبيرة هامسة

ـ الكلاب ماسكة .. لازم حد حيموت الليله دى

فان عزرائيل اذا الم بالقرية لا يراه الآدميون وما تبصره الاعيون الحيوانات .. ويبتسم عبد العزيز للذكريات القديمة

الحاج كريم يتأمل ما حوله بامعان شديد ، الكنبات التى بليت اكسيتها ، البساط الباهت ، الآية القرآنية .. ينظر للاشياء فى الحجرة القديمة محدقا كأنما يراها للمرة الأخيرة ..

المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم لكن اذا مات الحاج كريم فأنه سوف يفنى فانه ليس حالة من حالات المادة انه جوهر فرد ، انه الحاج كريم . عبد العزيز يحبه كما لم يحببه أبدا .

لكنه يا للأسى ، الحقيقة العلمية خالية من الشعر ، بسيطة وقاسية عرف عبد العزيز كثيرا .. تعذب أكثر ليؤمن بما يعرف لكنه لا يستطيع أن يجلس على الدكة فى ردهة الدوار وحوله الرجال منصتون ..وجوههم مضاءة بضوء الفانوس وهو يصفق باطن قدمه ببسطة كفه ، يحكى والرجال حوله مشدوهون .

فرغ الحاج كريم من فنجال القهوة وما عاد الا السلام والوداع

ـ ابقى تعالى يا حاج كريم .. كل ما تزور السلطان ميل على

ـ ان كان فى العمر بقية يا حبيبه

ـ لو كان بايدى كنت جيت لك كل يوم

ـ طول عمرك وداده ياحبيبه

كان الحاج كريم حكى لعبد العزيز كيف كان طفلا صغيرا يجلس خائفا على مصطبة الكتاب يتلو قصار السور مع كورس الأطفال الخائفين من عصا الشيخ الطائرة فى الهواء الواقعة على أجسادهم تستحثهم على مزيد من الصراخ .. وحكى ان عينيه دائما كانت على باب الكتاب ترقب مجىء حبيبه ابنة خالته ، تأتيه كل يوم فى جلبابها المورد وشالها الأزرق والصرة الصغيرة فى يدها ، تستأذن الشيخ وتأخذ كريما فى ناحية ، تفرد صرة الطعام أمامه تطعمه وتذهب خوفه ، تحادثه قليلا ثم تتركه راجعة ..

كانت تأتيه كل يوم الى أن زوجوها ، ويوم زواجها راح الى هناك ، احتضنته الى صدرها وهى فى ثياب العرس ، لازال يحس حريرها على وجهه ، بكت وضمته الى صدرها ، انفلت من ذراعيها مخنوقا بالدموع وعاد الى قريته ، الى دار أبيه دار كبيرة

مائجة بالعيال والنساء والبهائم لا يألف فيها أحدا ولا يأبه له فيها أحد .. ماتت أمه يوم ولادته .

هكذا تكون الزيارة ، قصيرة دائما لـكنها أبدا مشحونة ، نزلا على السلم المعتم المتأكل الدرجات يستندان على السياج ، لحبيبه هذا البيت القديم فى طنطا ، ولها أولاد كبار يطيفون بها أحيانا للزيارة والسلام ·· عبد العزيز يسند الحاج كريم من تحت ابطه كم صعد هذا السلم جريا وهو بعد صبى وكم سار خلف ابيه مؤدبا والأب يدك الدرجات بخطوة المكين .

فى ضوء الشارع ابصر عبد العزيز وجه ابيه مذبوحا بخطين من الدموع خجل الرجل لما احس بنظرات عبد العزيز، مسح دموعه بكفه وشفتاه ترتجفان بما يشبه الابتسام ·

ـ أنا بعيط يابنى زى العيال الصغيرة

أرضع كريم الصغير من اثداء نساء كثيرات لكن لبان الغريبات لا تبل حرقة الرضيع ربما كان يبكى حرقته التى لم تبل ابدأ ·· ربما كان يبكى العبرات التى كتمها يوم عرس حبيبه ·· لكن عبد العزيز يحبه كما لم يحببه أبدا ..

مشيا يصعدان فى حارة رطبة ، يتجنبان الحفر التى تكونت أمام البيوت من القاء الماء القذر اصول الجدران متأكلة تماما حتى لتكاد البيوت ان تسقط من علوها ، لـكنها هكذا دائما ، تبهظ القلوب باحتمال انهيارها ولا تسقط أبدا ..

شارع سيدى مرزوق خال الا من بقايا ريفيين مسرعون بسلالهم وعيالهم ونسائهم الى المحطة وعلى ابواب الدكاكين التجار ينظرون ناحيتهم فى تعب وخوف والعيال يلاحقونهم بالشتائم ·

ـ وسختوا البلد يا بهايم

جمل عمر فرهود الهائل بارك عند أسفل السلم الحجرى انفه الطويل الضخم المتكبر وعيناه الواسعتان وشفتاه المتهدلتان على فكه الأسفل فى لا مبالاة وازدراء ٠٠ وفى أعلى الشارع جمال أخرى حملت صحاحير أخرى ومشت تنقل كلاكلا ثقالا وتمضى راحلة .

عمر فرهود يدور حول الجمل البارك يعدل العدة على ظهره ويفرد الحبال ويستوثق من الاربطة واذ يرى الحاج كريم يشرق وجهه ويقبل مسلما ٠

ـ كل سنه وأنت طيب يافرهود ٠٠ تعود له بخير

ـ وأنت طيب ياعم الحاج

ويصعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وئيدا مستندا على عصاه فى الواجهات الثلاثة النسوه اللآتى بقين هنا سنين وسنين تهدلت الصدور تترجرج خلف شيت الثيـاب لم تعد الضـحكات مجلجلة مغناجه ٠

ـ نهاركو سعيد يا سات

ـ سعيد مبارك يا خويا ٠٠ النبى عليك نور يا حج ٠٠ مدد يا سيد ٠٠ البنات الصغيرات كبرت كثيرات منهن تزوجن وتفرقن والباقيات قلقات لم يعد لهن مكان هنا ٠٠ لم تعد هذه بيوتهن يردن أن يطرن يخلينها لزوجات الاخوه .. ريح الرحيل تهب على كل شيء الرحيل عن الأماكن العزيزه والحـاج كريم فى وجهه أسى الفراق يخالطه الأمل فى الرجوع مع دورة العام ٠

ـ العوده بخير يا أهل الله

ـ ألف عوده يا حج

وصعدت السلم فتاة سمراء فتيه تضرب على دف فى يدهـا أبوها العجوز ينفخ فى سبسب

العاده يا رسول الله
العاده زى عمنول

ويقف الحاج كريم هنيبيه يتأمل فى المغنيه الصغيرة وأبيهـا العجوز منذ سنين وهذا الرجل يأتى فى هذا اليوم بالذات ليطلب العادة تأملهما الحاج كريم مبتبسما متفائلا ونادى على العايق

ـ اديلهم يا عايق ٠٠ اديلهم ٠٠ ربنا ما يقطعناش

ويملأ العايق حجره كسرا وقراقيشـا ويعطى الرجل العجوز والأطفال من عيال الحارة يتقافزون ويطلبون الخبـز والقراقيش والحاج كريم يبتسم

ـ اديلهم يا عايق اديلهم

ويوزع العايق لقما صغارا فى الاكف الصغيرة وهو يسرسب الكلام

ـ خدوا ٠٠ خدوا كام مره ٠٠ مش نخلى حبه للناس اللى طول مدة المـولد مغلبينهم .. هاتى حلتك .. هاتى برادك .. هاتى وابورك ..

العايق يرتدى نظارة سوداء رخيصة بصرة يستلب رويدا رويدا ولا احد من الذين يدور عليهم يسألهم دواءا أو وصفه عرفو لذلك سببا عيونه تظلمان بعض الناس يقول : لموت الجازيه ٠٠ من يوم ماتت لم تقم له قائمة وبعض آخر يقول بما أكل من حرام ٠٠ لكن عبد العزيز يرقب فناء نور عينيه بحزن

ـ حملوا يا عمر ، حملوا يابنى .

وانطلق عمر فرهود داخلا الى بيت الخدمة ووقف الحاج كريم وسط الباحة مستندا على عصاه ضاما عباءته الى صدره وخرجت

أم طلعت من الباب تحمل كرسيا ناولته لعبد العزيز قدمه لابيه الذى نظر ناحيتها شاكرا دون أن يتكلم وجلس على الكرسى واضعـا عباءته على حجره وكفيه على عقفة عصاه ناظرا الى الأمام وعبـد العزيز واقف خلفه ٠٠ وأم طلعت جالسة على درجة السلم الأولى فيما يلى باب البيت مباشرة والنساء فى الشبابيك ٠٠ أصـوات تناد أو صرخات عيال لكن ثمة صمت جاثم خلف الاصوات المتقاطعة صمت مكين لا يناقش كارضية سوداء قاتمة تحمل نقوشا ملونة متباعدة ٠

خرج الرجال من باب الخدمة يحملون بينهم الصحارة الكبيرة مشوا بها وئيدين ثقيلى الاقدام على الأرض ونزلوا بها على السلم الحجرى ووضعوها على أرض الشارع بجوار الجمل البارك ، وعادوا صاعدين ساكتين ليأتوا بالصحارة الأخرى وعراقى الأطرش يتبعهم نازلين صاعدين لا يحمل معهم نقط وجههغارق فىالاهتماموشفتاه تتحركان بكلمات لا تسمع وعيناه تكادان تقفزان قلقا ٠

كدست اشياء بيت الخدمة حول الجمل ثم حملت عليه واوثق الحمل بالحبال وبعد الرجال متحلقين حـول الجمل العظيم أطلقه عمر فرهودمن عقالهوصرخ فيهوالرجال يهتفونباسم اللهوالسلطان ويدللونالجمل بألقاب الاعزاز والتمجيد والجمللم يخيب رجاءهم الملهوف فى عيونهم فنهض بالحمل نهضتين ثم قام شامخا رافعا رأسه الى الأماك وفرك الرجال أيديهم مبتسمين وسلم عمـر فرهود على الحاج كريم وقبله بين عينيه .. تندتا بدمعة صغيرة أجهش عمر فرهود بالبكاء ورفع ذراعاه داعيا .

ـ يارب انت الرب واحنا العباد .. الطف بنا

وابى عبد العزيز ان يسلم عليه من مكانه نزل معه السـلم الحجرى ومشى معه قليلا ..

ذلك الانسان الطيب امرأته مريضة من زمان على فراش صغير على مصطبة وسط الدار ناحلة المعصم تهش الذباب عن وجهها بحزمه من خوص النخيل وابنهما الوحيد ازهرى فاشل يرهقها بالعراك والمطالب ٠٠ الرجل يلزم جمله طوال النهار ٠٠ لو كان يتكلم لربما كان استغنى عن الناس أجمعين ٠

رجع عبدالعزيز يصعد السلم الحجرى الرجال يخرجون من بيت الخدمة فى يد الرجل سلالة وطفلة وخلفه امرأته يسلمون على الحاج كريم ٠٠

ـ كل سنة وانت طيب يا عم الحاج..ألف عوده

ويتأمل الحاج كريم وجوههم المتحلقه حوله ويتنهد

ـ أنا خلصت يا ولاد

وتغيم الوجوه بسحابات الحزن

ـ يا عم الحاج ما تقولش الـــــكلام ده ٠٠ الدنيا من غيرك ماتتسكن

ـ يا عبيط طول ما فيها ناس ٠٠ فيها خير

يسلمون ويمضون يتحدرون على السلم الحجرى نازلين .

ها هم آيبون فى السلال بعض الحلوى ولعبة للطفل قلوبهم ثقيلة يتاملون على الجانبين وجوها معادية وفى أدمغتهم التساولات اترى خدعوا فيما اشتروا أم لا..؟وسوف يظل التساؤل بلاجواب، لا شفاء لهذه المخاوف انها هذه المدينة الغريبة تتركهم دائرى الرؤوس منذ فجر غد سيكونون على رؤوس الغيطان اقدامهم غارقة فى الطين وايديهم ملتهبة بواطن اكفها من القبض على الفاس والعرق يندى الجبين من جديد دوامة الكدح والعناء لكن لبضعة أيام آتيه ستكون ثمة حكايات وضحكات، جلسات على أكوام التراب وعلى المصاطب أمام الدور وحديث عما جرى وكان فى أيام المولد ومنذ هذه الجلسات

ستولد بذرة الشوق الى سفر جديد ٠٠ بذرة تنميها أيام الكمد والشقاء تحت وطأة الظهيرة حتي يدور العام وينادى المنادى لمولد السلطان ٠٠

اتت رشيده ووقف كسيرة بين يدى والدها

ـ أنت مروحه يا بنتى

ـ كل سنه وأنت طيب يابا ٠٠ ألف عوده ٠٠ أطبخ لرجالتك ألف عام

ـ بنت أبوكى يا رشيده ٠٠ الله يبارك فيك

ويخرج من جيبه ورقة مالية

ـ هاتى حاجة من السكة لولادك ٠٠ أبوكى محمد العايق هيوصلك انتى واخواتك لحد المحطة ... ركبها يا عايق .

ـحاضر يا سيدى

العايق يحتاج من يقوده لكن تلك هى العادة ٠٠ العادة التى لا يريد أحد أن يخل بناموسها ولو فى تفصيل دقيق. .تسلم رشيده على أبيها وتقبل يده مرات كثيرة ويعرف عبد العزيز انها ستقضى الطريق سائحه الدموع ٠٠

الحاج كريم ينظر ناحية المسافرين ساهما عيناه مسافرتان وراءهم لكنه التفت الى يمينه ونظر مليا حتى ادرك أخيرا أن هناك محمدكامل واقفا يحمل سلالة وفى يده طفلة صغيرة. .ليس هو محمد كامل الذى طالما وقف بين صفى الذاكرين طائر الذراعيين تتدلى أكمامه كنبي ليس هذا هو محمد كامل المنصت لحكايات الحاج كريم ووجهه غارق فى ضوء الفانوس شخص آخر ضائق حتى بمراسيم السلام يريد أن يخطف المصافحة ويجرى ٠٠ تأمله الحاج كريم مذهولا هذه أول مرة يسافر فيها قبل الاخوان ٠٠ يسافر دون زيارة الوداع للسلطان ٠٠

ـ حنودع السلطان الليله يا محمد يا كامل

ـ سألناكم الدعا ·· ما ليش نصيب

ـ مستعجل ليه

ـ الميه جايه الليله ·· عاوز أروى

ـ خليك لبكره ·· كل ناخيره وفيها خيره

ـ ارادة ربنا

لا محالة مد له يدا يصافحها أقبل محمد كامل على اليد الممدودة وفى هذه اللحظة فجاة اصفر وجهه كوجه ميت وزاغت عيناه ثم اندفع ناحية السلم جاريا لا يلوى على شيء ·· لا بد أن دموعه تجرى الآن على وجهه تفكر عبد العزيز ، الم يكن من حق الحاج كريم أن يرى هذه الدموع ؟.. ثمن صغير لأيام العمر ، للسهرات والأسفار والكلام الطيب ...؟

وكأنهما مقبوض عليهمايدفعان منظهورهماتقدماالىالحاجكريم وخلفهما ابنهما الشحات ، الشركسى النجار عجوزا ناحلا كئيبا زيتونى الوجه يستند على عصاه وامرأته طويلة فحلة جهمة الوجه وجه الشحات وجه مجنون حاجبه الأيسر يميل على عينه حتى يطمسها فكه الأسفل هائل مندفع الى الأمام شفتاه رقيقتان مزمومتان وجلده مبقع غريب تذكر عبد العزيز كل ما يقال عنالشراكسةهذا الشاب بؤرة جمعت كل اشعاعات الخبال .. كلمة عبد العزيز .

ـ مستعجل ليه ياشحات

ـ كده

ـ طب سافر انت وخليهم

ـ لا

ثم استدار لعبد العزيز كفاه متقابضان خلف ظهره وفوقكتفه تجتمع عضلات عظيمة تكون مايشبه الحدبة .

مد الحاج كريم يده للمسافرين دون كلام ، كان وجهه قاتما نهض داخلا الى بيت الخدمه أسنده عبد العزيز من تحت ابطه احس انه مختنق لا يتنفس بسهوله مخلب مسموم اعتصر قلب عبد العزيز منذ متى والرجل مريض لكنه لا يستشير طبيبا فقط يسال الاخوان والحكماء ..

ـ يابا روح للدكتور

ـ يابنى ما تشغلش بالك .. حاجه بسيطه

البيت خال مربعان كبيران من القذاره المتراكمه مكان الصحارتين اللتين كانتا مركز هذا البيت تخرج منهما ارغفة الخبز واحفنة القراقيش دون انقطاع للناس..

جدران الصاله وسخه متقاربة يسمع وقع أقدامهما فى السكون كأنما يمشيان فى فراغ سحيق .. قبالتهما احمد بدوى ووراءه امراته، صاربها حفيا فى الفترة الأخيرة بعد ان تركهما ابنهما الى القاهرة سيوصلها بنفسه الى المحطة ساكن الوجه يمر بالحاج كريم دون كلام يشير له الرجل براسه ويمضى .

بجوار الحائط يجلس على خليل عيناه بؤرتا حزن وجهه شاحب شحوب الموتى ، طول عمره يكابد العلة ، شىء فى داخله ينمو ليهدم هذا الكيان ربما كان ثمة ادراك غريزى وراء انطلاق كورس الدراويش عقب كل حضرة ..

« اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت انك على ماتشاء قدير » ..

ادراك غريزى لهذه الكائنات الدقيقة التى هى جزء من حياتهم والتى تلتهم هذه الحياة يعزمون على حيواتهم العزائم لكن لا راد للمصير ..

ـ قاعد لوحدك ليه يا على ..؟

قام على متسندا مشيا معا الى غرفة الشيخ جلسا على الحشية بجواره ، جلس عبد العزيز عن كثب ..

طول عمر الحاج كريم وسط هؤلاء الرجال وسط خشيش القماش الخشن .. هاهم حزانى بائسون المستكاوى يسعل حتى يكاد يلفظ روحه ..

ـ آه يانى .. رحمتك يارب .. جوارك احسن .

وعباس لا يفتى فى أمور الدين يخرج من جيوبه صنوف الزجاجات الصغيرة ويتأملها ويحدق فيها ثم يستخرج منها بلابيع صغيرة ويزدردها،اماصانع الرقى فهو تمثال شاحب لايريم،وصانع القهوة يخرج من جيبه منديلا محلاويا ويمسح عيونه التى تسح منها الدموع بلا انقطاع ..

ـ الحمد لله قضينا أيامنا على الأعتاب ..

وخط الشيب راس الشيخ متكىء على حشيته سارحا صوت حبات مسبحته يعمق الصمت ..

سمع صوت صديقه المخبول ..

ـ مالناش فى نفسنا حاجه .. نعمل ايه .. نعمل ايه ..

حل الصمت بلفتوا الى بعضهم صامتين أخرج صانع الرقى قلمه وورقة صغيرة وكتب رقيه مديد بها للشيخ باركها وناولها للحاج كريم ربما هذه أول رقية مجانية يصنعها هذا الرجل فى عمره .. اخذها على خليل الذى لا يكاد يقوى على القيام .. خذها من يد الحاج كريم وقام الى صديقه أخذها من معصمها ، وخرج بها ربما يطيف بها حول مقام السلطان ثم يركبها قطار الى البلد .. كانوا ساكنين ودموع حسن افندى تسح بلا حساب ..

اجتمع شملهم جميعا بعد ان اب احمد بدوى وعلى خليل، جلسوا جميعا ساكنين الثلة الحبيبة .. تطلع الحاج كريم بعيونه البنية المشتاقة ..

ـ آن الأوان يا عمى .. تقوم تودع السلطان .

ـ ايوه ياحج كريم .. انشاء الله ..

قام الشيخ سوى جلبابه واخذ عمامته الخضراء من الشباك وحبكها على جبينه ومشى وئيدا خارجا من الغرفة الى الردهة الى الباب وخلفه الحاج كريم وباقى الاخوان فى البساحه التى امام البيت .. وقف الجميع هنيهة وتبادلوا نظرات ساكنة ثم بدا الشيخ ينزل درجات السلم الحجرى والجميع وراءه .

لم يعرف عبد العزيز بعد لماذا تثقل هذه الساعة من النهار قلبه بالكآبة حينما تشحب الشمس وتمتد رقائقها الذهبية على الأشياء ، جماعة الرجال متكسرة الظلال على أرض الشارع تذكره بظلال النخيل امام شرفة الدوار ساعة الاصيل .. يومها رآهم آتين بها من طنطا كان الكل يعرف ماعدا هى .. الكل يعرف ان اليوم ستزوج سميره من شاب من الفلاحين .. وفى المساء كانت تصرخ كلبؤة حبيسة بين جميع النساء فى غرفة دارهم رافضة ان تصرح لوكيل يزوجها لهذا الرجل الذى يريدون يومها بقى ينظر ناحيتها حينا ثم قال لها :

ـ وكلى ياسميره .. وكلى ماتوقفيش الرجاله .. بلاش فضيحه ..

لم يكن يدرى مايقول ، كان فاتر النفس ثقيلا نظرت اليه من خلال دموعها ..

ـ طيب وكلت خالى ..

ثم لم تبك بعد ذلك ابدا .. الى اليوم وعرف بعد ذلك انه كان بوسعها ان تقول طول عمرها لا .. من اجله ..

ظلال الرجال على أرض الشارع طويله متكسره كانهم يشيعون ميتا تقدم اليه احمد بدوى محاذرا ..

ـ سرحانه الفزاله أوى ياسى عبد

ـ ..

ـ قلل لى ياسى عبد .. لو متنا .. تفتكر تقرا لنا الفاتحه

ـ كل يوم

ـ الله يرضى عليك

اختزنت الارض حرارة اليوم والان تبوح بها انفاسا زخمه بالوساخه والماء المرشوش امام الدكاكين التجار قاعدون فى كسل أو متنادون عبر الشارع،جرسون المقهى يزعق بالمطاليب القليلة المتباعده امراة تنادى من الشباك على بائع او تنشر ثوبا مبلولا او تدس يدها فىسلة تاخذ بصلا لطبيخ العشاء فتاة تسرح عيونها بعيدا لا تقعان على شيء واجهات لبيوت قديمه فقيرة بالحياة ..

ترى اسعيد محمد كامل الآن أم تعيس ، غارق السيقان فى الطين ملتهب الكف بالفاس وحيد دون الاخوان .. ظهر الفرن ملىء بالعيال بعد سنين من الصمت لكن عيون امراته خاليه من الحنان والمحبه مهمومه بالمعاش..هل يذكر صديقه..هل يحن الى مباهج الطريق التى يجافيها الان الانسان .. الدم واللحم والعظام واخلاط العصارات كيف تفرز كل هذه الحيره والألم هل بجهل كل شيء أم نعرف كل الأشياء أم ان علينا أن نكدح ايام الحياة كلها لكى نعرف اقل القليل ..

انحرفت الجماعه فى درب الحمام طويل معروش معتم

ملىء بصانعى الدفوف ، اكداس من اشـــلاء الجلد والخشب من هذه الأكوام تصنع الدفوف خالقة الحياة فى الليالى ، الصناع متكاسلون يتحادثون ويضحكون قليلا ..

من الدرب تتفرع سكه صغيره تقود الى باب الحمام الواجهه مزينه بتهاويل تمت الى العصر الفاطمى والباب كتله صالده من الخشب مزينة برؤوس غلاظ المسامير كم فتنت هــذه الواجهــة والباب عبد العزيز وحكايات النساء العواقر وزيارتهن للحمــام بحثا عن الخصوبه وعن الرجال موجوعى الظهور وعن بركة المــاء اللهاب السخونه ..

ثمة قبالة الباب الغربى لمسجد السيد البدوى بناء آخر ، تحفة من الرخام يقولون كانت ساقيه تمد الجامع بالماء وكان تدور فيهــا ثيران النذور ليلا نهارا ، المسجد والساقية والحمام ، ماذا كانت جغرافية المكان فى الزمن القديم وكيف كان الناس والكلام والبيع ربما تلك الثلة من الرجال يمتون بأرواحهم الى العصر الفاطمى اكثر ممــا يمتون الى اليوم .. لكن هذه العمائر السخيفه زحمت الميدان وضيعت رواءه ..

انفتح الزقاق الضيق على رحابه الميدان ، المقام ، المصابيح فى صدره بدات تنبثق فى لمعة الغسق ..

وجهه الحاج كريم طائر كحمامة برية سمراء مشتاقة الجمع يهتز بالهمهمات والتحية والدعاء .. وعبد العزيز حائر وحيد وهو معهم لا شىء يهز قلبه بارد هامد يتلفت مكسوفا .

أحس العايق انهم بازاء المقام هتف مولولا

ـ يا سيد .. طول عمرى أنور لياليك .. نور عينيا يابو فراج

الميدان هادىء خال تقريبا حجم المسجد المضاء الجوانب بمصابيح الكهرباء له جلال ، وسيطرة ونفاذ شىء فى صلادة الجدران ولمعة

الضوء على شبابيك النحاس الهائلة وهم يمشون وئيدين نحو المقام وجه العراقى منصب على الجامع ٠٠ مخبولا يهينهم بفتات حروف لا يكون معنى كانما لبست جسده روح مارده فهو يرنجف بعنف خارق رغبة خرافية فى الالتحام بهذا البناء الضخم المكهرب ٠٠ كان وراء الانسانية الخرساء رغبات كهذه جعلتها تمد المدائن على وجه الأرض .

كان عبد العزيز طفلا صغيرا حينما رأى لأول مرة فى حياته رجلا يطأ بساط الجامع لابساحذاءه، حينئذ اصابه الفزع وسأل اباه وعلمه الأب أنه طالما كان الحذاء نظيفا فلا بأس فى أن تداس به بسط المسجد يومها كان هذا الرد مسكتا لكن المسألة ظلت كما هى ثمة من يدوس بسط الجامع لابسا حذاء البللور الشفيف الذى صيغ منه عالم عبد العزيز شابه شرخ طفيف كبر واتسعت عيونه أصبح يرى عددا أكبر من التعلات تطرد صغاء روحه توقعه فى التشك والألم أصبح يستنكف من الدوس حافيا على بلاط مسجد السلطان الذى توسخ من عشرات الآلاف من الفلاحين .. لكنه استبقى حبه لهؤلاء ويقوا دائما هنا ينظرون بطيبة وحب الى كل الأشياء .

خلع حذاءه وحمله فى يده ومشى وراءهم صامتا يرفع قدما بعد أخرى من البلاط اللزج بالوساخة .

لعله سر الابهاء الشاسعة والعمد القائمة والسقف العالى انها تحيل الهمهمات واللفظ والتنادى والتشاحن والترتيل والصياح تحيل فوضى الأصوات هذه الى شيء آخر . تخلطه كله وتجعله له اصداءا وابعادا وتردادا ٠٠ تخلق منه صوتا واحد جليلا مهيبا يصيب القلب ٠٠ ابهاء مسجد السيد البدوى أول ما يملك القلب بعد أن يخلص الداخل من الممشى الصغير الذى يلى الباب ٠٠ والذى يصطف على جنبه حراس الاحذية وصناديقهم ذات الخانات ٠٠ مشوا جميعا

عبد العزيز يعرف مايهز هذه القلوب من الأعماق فلكم ذاب قلبه من جلال الاصداء فى المساجد الكبيرة ·· شىء فى مؤخرة دماغه يبتسم فى حزن ، وداعا لمسرات الطفولة المسرات العميقة ..

هؤلاء الشيوخ على الجانبين بمقارعهم خدم المسجد حراس الابهاء الجليلة العالمون بما يحرسون يخبطون الناس بالمقارع خبطات هينة يقصدون القلوب يريدون تسليما تاماً لايريدون نظرة شاردة اوزائفة أو فيها جسارة ··

ـ أذكر الله ياراجل ما تغفلش

ويضيق عبد العزيز بهم يراهم لزجين اكسبهم الطعام الكثير والظل سمانه مرضية مقززة ويراهم قلقين ويرى فى عيونهم شراهة وربما كراهية عميقة لهؤلاء المتدفقين على المقام الكهان ثمنهم هذه القروش التى تودع فى ايديهم فيسرعون بها الى جيوبهم ··

لكن الرجال لا يلتفتون ، لا يعانون ما يعانيه عبد العزيز يمضون الى ابهاء المسجد .. هؤلاء الذين عاشوا لالاف السنين فى أكواخ الطين ممتلئين حنينا لروعة الابهاء وروائها .

بهذه اللهفة والاقبال والخلوص بهذه الأيدى الخشنة شيدت القباب والعمد والابهاء نحتت المعابد فى صميم الصخر ، خلق الظل الطرى فى حميم الصحراء .. وقفوا هنيهه ساكنين قلوبهم تهر هريرا بالتسابيح والدعوات تبادلو معا نظرات وابتسامات مسروره ··

ـ ما شاء الله العظيم

استخفت أحمد بدوى فرحة طفوليه

ـ الخورنق كان ميه وتلاتين طابق كلها من عمدان الرخام

نظروا له ساكتين الفرحة تزدهي في وجهه كطفل لم يرد عباس أن تفوته المناسبة ..

ـ المساجد جنة الله على الأرض

وعاجله المستكاوي

ـ دا حديث ولا قرآن ده يا عباس

لكن الشيخ والحاج كريم مضيا فقطرا وراءهما باقي الرجال .

المصراعان مركونان على الجانبين والباب مفتوح على آخره عن هيكل النحاس البراق المتلالىء في ضوء النريات الهائلة المحملة بمئات العيون الباهرة الضوء وقفوا في فتحة الباب هنيهة خاشعين ساروا دائرين حول المقام يمسكون بشبك النحاس ويمرغون الوجوه ويبتهلون بالدعوات كان عبد العزيز هنا في الليلة الكبيرة كادت جموع الفلاحين أن تخلع المقصورة من مكانها أما الآن فان أشباحا قليلة تمر متكسرة حولها وهي في الوسط شامخة مسيطرة متلالئة

مال أحمد بدوي على الركن ثمة صخرة عليها رسم قدمان هائلان هنا وقف النبي حافيا فلان الصخر له كرامة وقفزت الى ذهن عبد العزيز بشدة صور الاقدام الغليظة الخرافية للجوابين في الريف هذه الاقدام التي تمثل تحد حي للمسافة وسخرية من العناء والمشقة هل يلين لها الطريق وتنسحق تحت وطئها الحصباء،أحمد بدوي يبحث عن عالمه فيما يرى حوله ذلك العالم الذي اصطنعه لنفسه من صحائف الكتب الصفراء وكلما وجد شيئا استخفه الفرح يلثم الحجر وينظر لعبد العزيز ، لا يدري ماذا في راسه لكن شيئا فيه يجذبه ويحيره

جلسو بجوار الحائط فالمغرب وشيك وهم عازمون على الصلاة في المقام بهاء المقصورة مسيطر على الحاضرين تماما مصطفون بجوار

الحائط معلقى الابصار بها ، كل يرتل هامسا بالادعية والتسابيح لو كان محمد كامل هنا أكان يستطيع أن يجمع اراداتهم على رغبة واحدةيجهرون بها أمام المقام،أكان يقترح الفاتحة لعلة على خليل الأكيدة العاتية التى تبدو ضراوتها فى التماعة عينيه تمسكهما المستميت بالحياة ·· أم بصر العايق السليب أم لمرض الحاج كريم أكان يجلس بجوار الحائط يهمهم وحده بالدعاء .

اصطفوا حول الأمام لصلاة المغرب تحت القبة الكبيرة وحينما مد جار عبد العزيز له يدا للمصافحة بعد انتهاء الصلاة كان سارحا ، خجل من شروده لكنه سلم على الرجل فى سكون وحينما بارحو المقام كانت روح الحاج كريم مازالت هناك وكانت عيناه نديتان بالدموع ··

جمعهم قليل يسيرون على أرض المسجد يتلفتون يحملون نعالهم فى ايديهم ويدبون واهنين عادت عيون الحاج كريم تحدق فيما حولها بامعان نظرة يعرفها الحكماء من أهل القرية فى عيون الرجل الميت اعتصر الألم قلب عبد العزيز .

خلصوا الى ممشى صغيرمعتم،طرقوا بابا فتح الباب شاب صغير أمرد يطل الأدب والرقة من عيونه ، غرفة شاشعة مفروشة بالحصير فى الصدر اريكة هائلة يجلس عليها رجل عار الرأس مرسل اللحية والشعر كأنما هو من أهل الكهف عليه جلباب وحيد فقير متسخ حالما رأى ضيوفه قام مرحبا

ـ أهلا بالافاضل

واصر على تقبيل يد الشيخ

ـ بضعه من رسول الله ·· بضعه من السلطان

وكلما ذكر اسم السلطان قمص وتثنى كأنما برزعود من الحائط من ناحية المقام وغمزه فى جنبه،كان شيخا فى المعهد الدينى الثانوى

فى طنطا ثم استغرقه حب السلطان وحرفه عن عمله وبيته وانتهى به لان يعتكف هنا .. يجرى عليه من اوقاف السيد رزق قليل ويخدمه فى عزلته هذا الشاب الأمرد الرقيق ..

فيه جلافة وخشونة وطلاقة آسره أقبل عبد العزيز على حديثه بشغف، شخصية خرافية انطلقت من جوف الكتب الصفراء، فصيح البيان واضح العبارة كنبى مسيطر ينبش ويهيل عليك تلالا من لون خاص من المعرفة يبهرك عمقه وذواقه وعاطفته وصفاؤه. أحمد بدوى يكاد يطير فرحا لكن عبد العزيز بدأ ينصرف من حديثه رويدا رويدا ويراقب هذه القمصة ينتظرها ويضحك منها فى نفسه لولا هؤلاء الرجال لكركع بالضحك لكن كيف وهم حول الرجل غارقين فى الانبهار ..

خرجوا الى الميدان مرة أخرى رحب قليل العابرين والمقاهى من حوله مشحونة من داخلها بالضوء وبعض الرواد مشوا ينظرون ساكتين .. ماذا صنعو بشارع السكة الجديدة .. هدموه ـ وانشأوا مكانه شارعا واسعا، بقروا بطن الرواء القديم ، لازال يذكر صفى الدكاكين القديمين وسقيفة الظلل الممدوده من الجانبين على واجهات الدكاكين للشارع عتامه وانغلاق حميمين هدموا كل هذا اصبح مفضوحا للشمس بنيت على الجانب المهدوم عمائر صغيرة سخيفة قميئة .

كانوا يدرجون من المحطة الى المقام فى شارع مسقوف له عبير يرقق النفس .. الأن يتلفتون فى عراء غرباء عن الشارع تجار جدد أو بعض القدامى فى دكاكين جديد لم يالفوها .. بعد يرتبون اشياءهم مرتبكين .

متى يعتاد الناس هذا الشارع الجديد ويألفوه ويحبوه وأى ناس سيكونون ليس هؤلاء الرجال على أى

حال تلك الشـــله غريبة عن هذا الشارع انما هم عيون تبحث عن شيء كان لهم فيه مسره قديمة ..

ذاهبون لزيارة الصارى تحدروا ليجتازوا النفق تحت كوبرى سمنود فى عنفوان المولد يرتج هذا النفق بالأف الاقـدام وصـفير الشباب وصرخات العساكر والباعة اما الأن فان الظلام يسود وقلة من العابرين ومتسولون يرددون القرآن بآليه وترداد٠٠وهم يسيرون صدى اصوات اقدامهم يرن رنينا كئيبا فى الجدران ٠٠

انكشف النفق عن الخلأ الشاسع الذى يكون فيه مهرجان المولد عملية هدم شاملة تثير الفزع الرجال يتقافزون كالقرود على النصب التى كانت شامخة يلمون احبال لمبات الكهرباء والمناديل والاعلام واللافتات التى كانت تحمل عبارات صارخة وصورا غريبة تجمع الأن وتكوم على الأرض اجزاء الخيام وخشب الاكشاك السركات تفك مفاصلها وتكدس اشلأها الرجال والنساء الراقصات المهرجين الذين كانوا مزركشـــون فى الحراير الملونه يلعبـون على اراتك العرض ٠٠ الأن يرتدون أى شيء ويشتغلون كفعله خشنون كئيبون متوترون ساخطون يشتمون ضائقون بالعيون القليلة التى تتاملهم فى دهشه وفضول ٠

ـ سوق قام ثم انفض ٠٠ أمال يا عم ٠٠ زى الدنيا

يسمون هذا الشارع (شارع الفرجه) من هنا مر مئات الألوف (يتفرجون) والنصب الشامخة الصخابة على على الجانبين اين هؤلاء الأن ليروا الهدم الشامل هم الأن فى القرى على المصاطب أسام الدور أو على الكيمان فى ضوء القمر يحكون عن المولد فجـأة ومرة وحده يرجعون يتركون المولد فى عنفوانه لا ينتظرون ليروا هذا الهدم ربما يريدون أن تبقى فى اذهانهم صورة وقده المولد فى أوج ونفعالها يظلون يحكون عنها على مدار العام وفى الشوارع

يتفابلون الذين لم يذهبوا فى عيونهم نظرة استطلاع واســـتفهام والذين ذهبوا في عيونهم فرحة من رأى وشاف وعلى الأرض المتربة فى قيعان الحارات تتناثر أوراق الحلوى الملونة وقشر الحمص وفى ايدى بعض العيال زمامير وشخاشيخ والأخرون ينظرون فى حسرة ..

أصبح الطريق سائرا فى مهمه من الظلام مصابيح مخذوله متباعده سقيفة النجوم متلالئة باهرة الخلأ الشاسع تتنفس فيه نسمات رهيفة لكنك تدرك انها عملاقية جبارة .. سائرون الى الصارى .

ربما الصارى هذا شيء من الزمن القديم حيث كان قائد الجيش يرشق حربته أمام خبائه أو عصا طويلة وسط المعسكر يعلق فيها رايته أما الأن فقد اختص الشيوخ بالصوارى لكل شيخ صار .. عود طويل من الخشب يرشق فى الرحبه من الأرض التى يقام عليها المولد ويختلف الصارى ضخامة وقماءة حسب مقـــام الشيخ فى الأولياء ..

فكيف يكون صارى السلطان ..؟ عملاق هـــائل من الخشب مرشوق فى قاعدة مكينة .من الأسمنت يصعد نحو الســماء حوله حشد من الجالسين متحلقين حوله أو الطائفين به فى استمرار لا يشوبه كلال ..

كلوبات خافتة ، باعه ناعسون .. ثم حشد من الجوابين لا يقرلهم قرار يرقصون حول الصاوى رقصة غريبة تطير هراواتهم وصرخاتهم فى السماء ، الأهازيج والصيحات فرحة وغضبة وثورة دموع وألم الصارى عمود مولد السلطان وروح سره ..

وقفت ثلة الرجال ساكنون يبسملون بالدعوات ويرفعون ايديهم وعيونهم نحو السماء حيث يشمخ الصارى بعيدا .. ها هنا فى قلب الليل فى عزلة عن الدنيا يقف هذا النصب وتلك الكلوبات القليلة والرقصات والأهازيج الغريبة .. انبثق الرجل المسربـــل وطلع عليهم فى هيئة مرعبه شا خ وجهه لكن عيونه فى الليل والاضواء

الشتيئه اكتسبت بريقا اخاذا .. العرق يسيل من وجهه خطوطا والحديد تحت ثيابه له صليل رائحة العرق تفوح منه نفاذه .. نظر فى وجوههم بشده ثم انطلق يرقص على قدم واحده ويلوح بهراوة ثقلية من الحديد ويصرخ

حت الجبال يمة الهادى وطاطت ليه

صاح النذير فى الفلا عدى إلبحور والتيه

دبح الحبيب قلب محبوبه بدمع العين

وعند كل مقطع كان ثمة كورس هائل من الجوابين يصرخ بقوة

حـــــى .. .. ..

ثم انخرط السربل في بكاء حارق

ـ آه يا سلطان .. يا حبيبى

الطـــريق

من المحطة الى الدار ، سكة فى القلب كم قطعت ذهابا وأوبه فى زحام الرجال وخشيش الثياب المغسولة والضحك والوجوه المزدهية بالسرور ، وكم قطعت ذهابا وأوبه فى الوحدة والسكون ..

وحينما نزل عبد العزيز من باب القطار الى عتبة الرصيف اختنق قلبه واستدار ليرى القطار ينسحب متمهلا ، مربعات الضوء تجرجر على حصباء الأرض والقطار يمضى ، العربات مكنونه على الضوء وحديث الركاب وصمتهم اختنق قلب عبد العزيز حينما بعد القطار وماتت ضجته .. وبدأ يلقى بنفسه فى قلب الظلام ..

مهمه عميق من الظلام مرقط على البعد بنقط صفراء ، اللمبات ذات الشعل تتحرك متباعدة ، الظلام الثقيل يتنفس .. جرجرة النعال المتعبه نخرات أنوف البهائم الآيبة من الحقول شبعى .. نقيق ذكر من الضفادع مهجور او جندب كسير الجناح ..

ألقى بنفسه فى قلب الظلام فهو لا يخافه ، يشرع وجهه للأمام ويفتح عيونه التى لا ترى ويمشى ، يعرف الطريق وقع أقدامه فيدق المسارب وينحى الحصباء وحينما يرتفع الطريق فوق تل صغير أو ينزل الى وهدة غير عميقة فانه يبصر ذلك فى قلبه وينزل أو يصعد عارفا مطمئنا .. ثقيل القلب .

انفرش له الطريق ، ازادا عرضا واستواء ! وأسرعت قدماه تنتقلان فى خطوة تكاد تكون ركضا وعلى جانب الطريق ازدادت الرقطات الصفراء فى الظلام تشق مساراتها وئيدة وبدت هياكل

الأكواخ وقمم النخيل والأشجار أكثر عتمة فيالليل الأدهم ، القرية الأخت .. توام قريتهم رابضة فى الظلام تنضح ريحا دافئة منتنة تخالط ريح الليل البارد ..

نحن قليلون ويعرف بعضنا بعضا أو يحس بعضنا ببعض وحينما يتميز شبح القادم قليلا وتخلصحدوده من قلب الظلام فانت تعرف من القادم وهو يعرفك ..

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام ورحمة الله

وبين السلامين تحكي الحكاية ويتقلص القلبان .. ويختنق عبدُ العزيز مايستطيع استخلاص الهواء لرئتيه وتتفجر الدموع فى مآقيه ويسرع كأنما يهرب ومن ورائه مصمصة الشفاه تأتى وتخرز القلب كأبرة مسمومه مسلطه .. ابصر النجوم للمره الأولى بيضاء لامعه طائره فى جو رقيق من ضوء شفيف ياللجمال وتحدرت الدموع نهر ساخن يغسل خدوده لم يمسحها .. تركها تسح تنزل على قلبه تواسيه ليس ما هو أكثر حنانا من الدموع ..

الدب الأكبر ترك ذنبه على الدار والنجم القطبىرائع البريق.. لقد مات الحاج كريم ، وتســمع .. الليل الأخرس ذو الأنفاس الرتيبه ألم يستحضروا ميكرفونا ومقرئا .. أعمامه السبعه ..؟ والرجال ؟ الأخوان والصحاب رفاق عمره .. اذن ماذا ؟

كان الوقت ضحى حينما جاءه ذلك الرجل ، دق جرس الباب ودخل صامتا يرتدى بذلة وقميصا متسخا دون ربطة عنق ، عليه صدار ريفى يضع على راسه طاقية صوفية وعلى وجهــه قنــاعا كثيفا من الحداد ، بين شفته السفلى وصف ثناياه فجوة مليئــة بدخان المضغة ..

ـ قوم سافر

ــ ليه

حاجباه كثيفان بارزان كقرد وعيونه مستديرة ، يعرفه ، طيب الى حد البله لا بد أن يقول له ماذا هناك

ــ ليه

ــ ما فيش

ــ أبويا مات

ــ لا ٠٠ بس تعبان شويه

لكنه لا يصدق ٠٠ أسرع يكاد يجرى ، ماذا ياربى ٠٠

الشارع بين صفى البيوت مفتوح كذراعى أم عجوز نحيله عمياء، القى بنفسه فى العتمه البيبان مفتوحه ظلت مفتوحه ابدأ فى تجاويف الأكواخ الضوء الشاحب للمبات ذات الشعل،ى الصدرالفرنهامد كرئه معطله وعلى المسطبه كومه العيال وفى السقف عند عريشه الحطب الحمائم فى البناني راقده تبرق عيونها محاذره وعلى البيبان جماعات النساء ٠٠

ــ مساء الخير

ــ مساء الخير يا خويا

يعرفنه فى الظلام

ــ يا عقلى يا خويا ٠٠ يا ضنايا يا بنى ٠٠ ياروحى ٠٠ شد حيلك .. يجعلك خلف خير .

ومصمصة الشفاه .. يجرى كالمطارد .. يوغل فى الطريق.. ماذا ؟ ماذا جرى ..؟

وفجأة ينتصب أمامه من العتمه رجل يمد له يده ويشد على كف بيد خشنه قوية ووجه صارم حانى العيون

ـ أنت جيت ، الحمد لله على سلامتك ٠٠ مين اللى قالك ٠٠؟
ـ سليم
ـ ربنا كبير يا سى عبد
ـ الحمد لله

ويخلص جاريا ٠٠ ومن بعيد يحسها واقفه على باب دارها وقبل أن ينحرف تجاهها يجيئه صوتها يشق طيات الظلام اليه

ـ عبد العزيز ٠٠ أخويا

ويأخذها الى صدره ، رأسها تحت ذقنه ويضمها اليه ، هذه الانسانه الدقيقه الحجم الراجفه بالحنان كالقلب يود لو يستوعبها داخل كيانه ويلجأ الى صدرها كطفل خائف ٠٠

ـ أبوكى مات ..؟ ماله يا رشيده ..؟

ـ مافيش حاجه يا روحى ٠٠ ما فيش حاجه يا ضنايا ٠٠ أبوك جرى له أيه ٠٠ ؟ ولا حاجه أبدا ٠٠ حلو يا خويا ٠٠ حلو ٠٠٠ هيا الناس ما بتعياش ٠٠ ؟

وانهمرت دموعها وبدأ جسدها ينتفض بالنشيج وتضاما مرة أخرى وكلاهما ينشج بقوة ومن حولهما فى عتمة الليه المصمصات والتأوهات وكلمات الرثاء ٠٠

خلص عبد العزيز من عناقها وانطلق جاريا

ـ على مهلك يا عبد العزيز .. حاسب .. انا جايه وراك جرى

حنايا البيوت المضاءه بالضوء الشاحب النساء والرجال المصمصات وكلمات المؤاساه ، يمشى فى غابه من القلوب الحبيبة ودموع قلبه تجرى ويمد له عمر فرهود يده

ـ ألف حمد الله على السلامه يا سى عبد ٠٠ ألف حمد الله على السلامه

كسير صوت عمر فرهود مهدم القامه فى جلبابه القائم ، وقل داخلا داره وعبد العزيز يجرى دكان على خليــل معلق ، لابد أن اللمبه نمرة ١٥ الآن باردة معلقه فى السقف كجثه المشنوق ، مات على خليل ، الموت فى الزوايا المظلمه يطل بعيون عمياء على عبــد العزيز ٠

على البعد الدار ، الباب الكبير الاشباح داخله خارجه ومربع الضوء فى شباك الغرفه غرفة الحاج كريم ، دفع الباب داخلا وجوه أخواته الذابله الغارقه فى الظلال والضوء الشاحب تطل عليه من انحاء الدار ، أندفع الى الغرفه ، مزدحمه بالرجال أفسحو له مكانا. الحاج كريم سجى على السرير النحاسى الكبير ، اللحاف محكم حول جسده ، لا يبدو سوى وجهه ساكنا مغمض يتنفس بصوت مسموع الفى عبد العزيز بنفسه عليه وتدفق البكاء من كل كيانه من كل عمره نشيجا وولولة كالنساء ٠

ـ آه يابا ٠٠

مسكت يد قوية بساعده ، رفعوه تأمل حواليــه وهو يشرق بدموعه حلقة كثيفه من الوجوه الصلبه الذابله العيون غــارقة فى الظلال لا يصيب ضوء اللمبه الشاحب سوى قمم الأنوف والوجنات والجباه ٠

اخوان الطريق شواهد العمر تحت عيونهم أشرقت شموس ايامه وغربت معهم ضحك وبينهم بكى اليوم هم حوله فى بلائه العظيم قلبه ذبيح

ـ ان كان عالعياط ٠٠ آهم الجماعه الحريم عيطو كتير

لائم يشير الى بكاء النساء ٠٠ من أين يأتى الصوت لا يعرف صاحبه ، عميق كأنه روح صنعت من حزنهم جميعـــا وتتــكلم نيابة عنهم

– احنا مش باعتين لك عشان كده ·· احنا بعتنا لك علشان تشوف حالك

وها هو الآن « يشوف حاله » ·· أى حال ·· ؟ كلما خلا الى نفسه من الهموم المتزاحمه تذكر ذلك المساء حينما خلاه القطار على الرصيف ومضى ·· وخاض هو الظلام الى ذلك البيت حيث انهـــار كل شىء ، يمتلىء قلبه بظلام ذلك المساء واللمبات ذات الشـــعل تتحرك فى مساراتها وئيده وجماعات النساء على البيبان والرجال يبرزون من الظلام يشدون على يده ويؤ اسونه ·· .

وتذكر رشيده اصبح زوجها هرما عملاقا منحنيا هشا مصدورا يجلس طول النهار على المصطبه لا يتكلم يدخن ويمتص الحلوى وهى طول النهار تشتمه وتسب تبذيره وتستحثه وهو هامد جامد يبتسم فى بلاده وهى طول النهار تعمل فى الدار رثة الثياب على راسهـا خرقة باليه وشعرها الابيض ضائق بالعصبه الوسخه تعمل فى الدار طول النهار تسوى التراب تحت الجاموسه وتحمل روثها وتعلف حمارتها الهزيله وتطعم الافواه العديدة تخبز خبزا وطبيخا رديئـا وتخرج بالبهائم لتسقيها وتعنى بابنها الكبير كريم الطويل النحيل الملىء الأمعاء بالدود تنظر اليه بحنان وخوف دائرة طول النهارفى ساقيه العذاب وفى المساء تأتى الى الدار الكبيرة دار الأب تجلس الى جنب عبد العزيز ··

– ازيك يا روحى·· البركه فيك يا حبيبى

ثم تئوب الى دارها لتنام على ظهر فرن عـار وتلتحـف حرام الصوف الخشن .. ربمـــا تطيف أحلام الزمان المـاضى ، أحلام كسيرة ، أيام طنطا والمولد والخبيز وامسيات السرور .

عبد العزيز يبتسم فى مرارة ففى ذلك المساء عانقته وقالت له
– أبوك حلو يا خويا

وفى قاع الكلمه كانت المأساة التى يعيش عبد العزيز تفاصيلها الآن ·· كم ضحكت رشيده وكم ضحك معها عبد العزيز والآن كم يبكيان معا

ليلتها كان يجرى وهذا هو ما وجد فى الدار ، لن يهرب ، سيحمل النير على رقبته ويسير مثل بقرتهم القديمة السوداء كسير هو مثل فرهود لكنه يسير حاملا قلبه فى صدره ·

ليلتها سلم عليه ، فرهود ثم استدار ودخل الدار ·· أى دار ·· فقد ماتت امراته الحاجه ، الموت قدر لا يرد يقطع من القلوب حباتها المرأة ذات الكيان الدقيق النظيفة اليدين الضيقة العيون المبتسمة دائما عن صف اسنان دقيق ابيض كان عبد العزيز وهو صغير يأتى الى دارهم وهى تنظر لعمر فرهود بحنان باسم

ـ الصبح تتكل على الله بالصحاحير يا عمر ·· فى الصلاة البدريه ·· ؟

ويهز محمد فرهود رأسه فى رضى

ـ ان شاء الله ··

ويقف عبد العزيز على حافة ودهما يتفرج ، صغير لكنه شاعر بهذين القلبين الحبيبين .

لقد كبر ابنهما .. فشل فى دراسته فتركها ·· وهو الآن سمين أبيض له سنه ذهبيه وهو احمق متسرع قاسى تزوج بفتاة سمينه قاسيه العيون لها ارداف تمشى تدق الأرض وهو يجتاح الدار وأبيه بالصياح ··

وعمر فرهود مسكين فى ركن الدار جالس أمام جمله البارك يطعمه لا شىء سوى هذا الجمل ··

يشبك مقوده فى ذراعه ويسير وراءه، عملاق طيب شامخ الراس

ذلك الجمل وفرهود متهدم الكيان ذليل العينـــين يتأمل مواقع اقدامه ..

عالم يهوى تتساقط لبناته كبناء قديم ٠٠ التراب زحف على المكان الذى كان نظيف أمام باب دكان على خليل .. وكنس الريح القش والقذاره وكدسها هناك حيث المصطبه ومجالس الرجال ٠٠ ثمة الآن رجال آخرون يجلسون فى أماكن أخرى ، باب الدكـــان مغلق كعين جثة مغمضه ٠٠ لقد مات على خليل ٠٠

قالو هو فى الدار يقىء دما فى تلك الغرفه على السـطوح ، والغرفه النظيفه والباحه أمامها والسلم الطينى الضيق والكانون من حيث صعدت الصوانى للدراويش محمله بالطعام حيث امتلات الغرفه بالرجال والسرور حتى لتكاد تقع .. هناك جلس يتلوى ويميل يدلق الدم على الجانبين وحوله الرجال ٠٠ قالو للحاج كريم أنه فى الدار يقىء دما،العربة تأخذه الى طنطا وتأتى به والعـربه تأتى بالطبيب من طنطا وتذهب به والرجال يسربون شاحبين حزانى الى صالـة الدوار والفانوس مدلى من السقف على خليل يقىء ، وتعلق عينـا الحاج كريم بالفانوس ولا ينبس ببنت شفه .

كان على عبـد العـزيز أن يعـرف حينئذ ، شىء بدأ ولا شىء يســتطيع أن يوقفـــه لـــكنه لم يدرك ذهب الى الاســـكندرية الى كلنيته يدرس ويناقش ويضحك وينشر أحيانا اشعارا حزينه فى مجلة الحائط ويرسل الخطابات الى أبيه يطلب النقود ٠٠ لماذا لم يفهم لماذا لم يبق هنا معهم ٠٠ كان ثمة شىء يجب أن يعمل ٠٠ صرخة أو كلمة أو دمعه لكن أن ياتيه رجل صغير الحجم طويل الذراعين ويجلس أمامه ساكنا ثم يقول له

ـ قوم سافر

ثم يبدأ كل شىء ... لا ، لكن ذلك ما حدث ثم خاض الظلام

لا يرى الا الاشباح وقطرات الضوء الصفراء تسير لتعمق ابهامه وبهمته .

لا يزال الليل بهيما لا يدرك منه سوى حقائق شاحبة لا يستطيع الامساك بها ، ضرب على أم راسه حتى لا يكاد يرى ..

جلس الرجال حوله فى وسط الدار ، الكل صامت وعلى الرف الطينى فى الحائط مصباح يرسل من الظلال أكثر ما يرسل من الضوء وفى الخلفية تتحرك الأم وبنات الحاج كريم فى مسارات مبهمه وهمهمات غامضة تنوش هوامش وجدانه ، الحقيقية تزف الى وعيه مؤطره باطارات الحداد والغموض ..

اتى به من المحطة محمولا على أذرع الرجال ، سرق من جيبه حق العنبر ، كل هذا الطريق من المحطة الى الدار محمولا معروضا على العيون يدا مريبه تدس بين جلبابه الكشمير الكبير وصداره الشاهى لتفتش أشياءه ..

وينكش أحمد بدوى الأرض يعود فى يده وهو متربع على الأرض دون فرشه

ـ أنا كنت معاه

ذهب الى المركز ، الى بنك التسليف ليقترض مبلغا من المال لا أرض كانت قد بقت تقدم بحيازات اخوته للضمان صرخ فيه الموظف الشاب وقف ذليلا أمامه يستمع للشتائم ويقول أحمد بدوى

ـ قلت له يا فندى عيب ما يصحش ٠٠ دا راجل كبيرا له قيمته

وصرخ الأفندى

ـ أطلع بره

وسقط الحاج كريم ..

ربمـــا يكـــون هـــذا ما قـد حدث أو ربمـــا غيره .. لم يعـد عقـله يبحث عن التفاصـيل .. لقد غفل عن الحقيقة حينما بدات تتكون فعما يبحث الآن ، كان عليـه ان يدرك من الأول أن عالم الحاج كريم بدأ ينهار .. حينما كان يجلس وحيداً لساعات طويلة فى شرفة الدوار والناس يمرون فى ظلام المســاء يقـرئون السلام فى همس ثم يواصلون السير .. حينما يجلس وحيدا .. صامتا لساعات طويله وهو الرجل الذى صناعته الكلام والموده .. كان على عبد العزيز أن يدرك وقتها ، لكنه غفل فاذا عمـا يبحث الآن .. أصبح كل شيء قليل الأهميه .

انعقدت مجالس الرجال بجوار الحيطان على الكيمان .. وعلى المصاطب فى طراوة العصر أو عذوبة الضحى أو طلاوة القمر .

ـ ابوك شطب قبل ما يقع .. ربنا معاك .

احضروا له الطبيب وصـــف له ادوية كثـــيرة وقال يأكل الفراريج الصغيرة والخضروات المسلوقة .. لكن لا شيء الآن فى الدار .. لا شيء ، كلهم يأكلون الخبز والجبن وهو يأكل الخبـــز مغموسا بالسكر .. لا شيء عندهم سوى هذا .

ليلتها اخذته أمه الى غرفة المعاش .

ـ عندنا كل حاجه يا خويا

قصيرة سمينه مكينه الجسد نشيطة عيناها با حثتنان لا تنظران لأعلى ابداً ، تدور فى الدار لا تكل تنقل هذا وتشيل ذاك تكنس وتغسل تخبز وتعجن لا تقول لا ابداً دائما

ـ طيب حاضر

نظر الى غرفة المعاش الاوعيه فارغه الا من بقايا هزيله تريد أن تخدعه لكنه يعرف .

ـ عندنا كل حاجه يا خويا

ـ طيب

وحلقات الرجال المحيطة به على المصاطب او الكيمان أو سحوار الحيطان

ـ بيع القيراطين اللى فاضلين .. مالهمش لزمه. .مانزرعوش .. كفاية فدانين الوقف دلوقتى .

والدائنون ، باعة جائلون واصحاب دكاكين وفلاحون كلمهم لاترد .. يعرف عبد العزيز انهم لا يكذبون ، لايكذب أحد فى حق الحاج كريم أبدا، كل لحظة يسدد دينا جديدا.. القناة تنضب باسرع مما يتصور وهو يعمل ذهنه لتدبير ذلك البيت الكبير .

لكن ما جدوى أن يسلم الانسان نفسه للهم ، هذا هو النهار يطلع ، نهار جديد ، مواجهة جديدة للكروب تمهل عبد العزيز وهو ينزل السلم الى وسط الدار ليس متسرعا لخوض العناء لماذا لم يخلق على شاكلة أمه .

انها لا تفكر أبدا طول عمرها هكذا حازمة جهمة تنهض من فراشها لتجد شيئا بجوارها تعمله وتبقى طول نهارها تعمل حتى تصمت الحياه من حولها وتسلمها للنوم .. الا تفكر .. ؟ الا تفترسها الهموم وتسلمها لان تفتح عيونها فى الظلام سحابة الليل .. ؟

نزل عبد العزيز درجات السلم متمهلا ، الدار شىء جديد يعرفه ويصحوا عليه كل يوم ، الأم والاخوات يدورون كالذنابير الحمراء .. الوجوه متعبه قانطه وغاضبه ومغمه بالخوف والمراره والاب جالس على المصطبة كتف انحل من الأخر قليلا وأكثر ميلا ووجهه مغبر ربما من غبار الطريق الذى يقطعه كل يوم الى المحطه بلا كلال لكنه غبار لا يعالجه الغسل الدائب ..

يداه متعـــانقان فى حجـــره وعصـــاه بجواره ، لم يعـــد يستغنى عنها وقد بقى له الشلل النصـــفى بعـــد صـــدمة المرض الاول.. وذلك الذهول فى عينيه ، عيناه البنيتان البارقتان بشوق لا يبل فيلتفت حواليه كطائر مطارد صرخ حينما راى عبد العزيز .

ـ افتحوا الباب .. افتحوا الباب .. سيبونى فى حالى .. عاوز اسافر ..

تمزق قلب عبد العزيز للمرة المليون اسرع الى ابيه ، لم يعد البنات يحتملنه اصبحن يشكين منه ومن عذابه لهن .. اثنان فقط الأم وعبد العزيز يترضيانه بلا كلال .. الام تسرع نحوه وتقف امامه كانما تفرد معه شـــال العمامه وتســـاله عما يريد وتترضاه وعبـــد العزيز يجلس الى جواره ويحـــدثه عن الطريق والاخوان ومزارات الاولياء ويخرج به يمشيان على هذا الطريق طويلا ثم يعودان .. هكذا بلا كلال ..

لكن عبد العزيز فى هذا اليوم فرغ صبره توجه نحوه

ـ يابا ما يصحش كده

قالها صارخا بكل ما فى قلبه من الم ويداه مرتفعان فى شكاية مريرة ، لكن الاب المذهول تصور ان عبد العزيز يهم بضربه ذعر ورفع يده السليمة مدافعا عن وجهـــه ومال مرعوبا .. انقلب عبد العزيز منهارا طعين القلب وهو يعـــوى من الالم ولو عاش عبد العزيز بعد ذلك الف عام لما غفر لنفسه ان ترك الحاج كريم يتوهم ما توهمه ..

خرج ، جلس على المصـــطبة أمام باب الدار طلب من احدى اخواته ان تعد له الحماره الســـوداء الكبيرة ، لا تزال صابره ، عجوز وصابره، وضع على ظهرها عدة الساقية وركب عليها وناولوه حبل الجاموسة، كان داب الحاج كريم ان يقتنى كرائم البهـــائم

وتلك الجاموسة فريدة فى البلد ، لا يزالون يحتفظون بفدانين فى أرض الوقف واليوم موعد الرى .

ركب عبد العزيز الحماره السوداء وسحب الجاموسة وأمامه على الظهر الطويل عدة الساقية وسرح الى الغيط ، يرتدى جلبابا ريفيا وطاقية صوفية حمراء والطريق امامه يصـــعد بين الحقول وشمس الطباح طرية مغرية ..

قال الاطباء لقد ضاقت الشرايين والدم يعانى لكى يتدفق فى هذه المسارات الضيقه فتنضح الشعيرات الدموية عنـــد منتهى الاورده ماءا يتجمع فى بحيرة صغيره فوق المخ فيعطله ويربك دوره .. ولابد من ان تحقن الاورده دائما بمحلول الجلوكوز ولابد من اتباع نظام تغـذيه دقيق ولابد من عقاقير كثيرة لتعمل على توسيع الشرايين .. من اين .. لا يملكون شيئا .

اصبحت الحقائق عارية اصبح الحــاج كريم شرايين واورده ومخا ترقد عليه بركه صغيره من الماء اصبح الحاج كريم مذهولا صــائحا شــبه مجنـــون ودارت الأيام حتى ذعر من تلويح عبد العزيزبيديه فىالفضاء،لن يغفرعبدالعزيز هذا لنفسه ابدا .. المعرفه والالم والعجز ، المخ والشرايين والاورده والمأساة ، اين العالم الماضى .. اين الكرامات والأولياء ودعوات الرجال والنساء سيبقى البيت مفتوحا .. ستبقىدارا للطعام والضيفان .. لاشىء ياكله الحاج كريم ، انهار العالم بلا رجعه تمزق بقســوه .. ما العمل .. لا شىء .. سواد وقهر لا يوصف ..

حمارة صديقه سمراء ، طيبة تعراف المكان ، قبالة الساقية وقفت .. نزل عبد العزيز عنها واطلق مقود الجاموسة وأنزل عدة الساقية على الأرض تنهدت الحماره تنهدا عميقا .. مسح عبد العزيز على رقبتها وتامل كابة وجهها « **مخلوق آخر وحيد** » ركن

راسه على رقبتها واغمض عينيه ثم احتضن رقبتها وهى ساكنه تتنفس ببطء ، ربطها فى الشجرة ركب العدة فى الساقية علق الجاموسة وربط العصابة على عيتها وزعق فيها فانطلقت دائرة بالساقية وصوت التروس المحتاجة الى التشحيم وانهمار الماء فى المجرى يصنعان الحياه فى قلبه ، جاموسة رائعة مكتنزه سوداء لامعة الجلد متناسقة التكوين عامرة البطن بجنين .. ستلد بعد فترة وجيزه .. ضحك قلبه ربما ياتى الخير ويشفى الحاج كريم فالأطباء يقولون شفاءوه ممكن مجرد ضغط دم وهو سليم فيما عدا هذا ، غنى عبد العزيز وصوته غارق فى ضجيج الساقية ..

الحلو لما نعس صحوه بالقانون

والورد لما دبل رشو عليه لمون

ثم ضحك لخفة عقله وسار متتبعا مجرى الماء فى القناة مشمر الذيل والاكمام يطهر مجرى القناة امام تيار الماء .

تلك هى أرضهم - تملكها الأميرة فاطمة هانم - لكنها ارضهم صفراء كالذهب بجذور أعواد القمح المحصود ، منشققة واسعة ذات سمرة مذهلة الثراء .. رقد على بطنه مدد ذراعاه وساقاه على آخرها يريد أن يشتمل أرضهم فى حضنه فى بطنها آلاف العروق والقنوات الدقيقة كونتها المسافات بين ذرات الفرين الأسمر البراق ، رئة هائلة تتنفس وتخصب وتجدد .. ياربى .. هو ابن هذه الأرض وهؤلاء الرجال ..

جلس ضاما ركبتيه الى صدره من بعيد رأى محمد كامل مقبلا فى سرواله وصداره متمنطقا بشمله من الصوف وجه مدبوغ بالشمس ..

- سلامو عليكم يا سى عبد

- اهلا ازيك يا عم محمد يا كامل

له عذوبة الصوت القديمة،العمق والرقة، الصوت الذى اسر عبد العزيز طول حياته وفى وجهه تلك الطيبة التى لا حدود لها . لكن شيئا ما قد تغير شيئا مالا يستطيع عبد العزيز ان يمسك به .. ذلك الجار في الأرض وفى الدوار رفيق مجالس الاخوان طول العمر ..

لقد طلق فاطمة منذ مده وتزوج امرأة اخرى ، امرأة ممتلئة كبيرة الأثداء .. ملأت داره بالعيال امراة لا تكل ، منذ الفجر على الأشجار كالغراب لا تمل الحفر بيديها فى الأرض ، شدت محمد كامل وراءها لم تعد تراه جالسا أبدا ، طول النهار فى الحقل بسرواله وصداره متمنطقا بشملته الصوفية ومنحنى يضرب بفأسه فى الأرض لا يتكلم كثيرا .. واذا تكلم فبنفس الصوت القديم لكن عيناه لم تعودا تحلمان ينظر الى الأرض فى انكسار ويحمل فأسه ويسرح الى الحقل قلقا قليلا واحيانا ماهوجا قليلا ثم خجلا وضاحكا فى تردد هذا الوجه ليس من صنع الفانوس فى صالة الدوار بل من صنع شمس الحقل القائظة فى وقدة الظهيرة لم يسأل عن الحاج كريم وانما كلم عبد العزيز .

ـ حاتروى النهاردة ياسى عبد

ـ انشاء الله

ـ ربنا يعينك يابنى

ـ هقف على الحد اللى بينا وبينك .. مافيش ولا نقطة ميه هتيجى عندك .. انت خضرت بدرى ياعم محمد .. ميتنا مش حتعدى عندك

استدار ومشى وهو يقول

ـ كل شيء بيد الله .. ماتتعبش نفسك .. ادينى هنا .. وربنا المعين

عبـــد العزيز يتأمل المـــاء يبرق فى الشقوق كعيـــون مختفية .. ســـار على شاطى القنـــاة حتى الساقية ، الحمـــارة ساكنـــة بجوار الشجرة والجاموسة دائرة فى ضجة الساقيـــة مكتنزه عازفة زعق بها فتسممت عمياء العينين ثم اندفعت تدور

لكنها قفزب الى اعلى ثم سقطت على اربع ثم وقفت ساكنة رافعة يدها اليسرى عن الأرض ..

وقف صرير التروس وبدأ الماء يتمهل فى تدفقه .. ثم بدأ ينز ضعيفا كالدموع وقف عبد العزيز مذهولا مفغور الفم ثم جرى الى الجاموسة فحل عصابة عينها .. وفك خناق رقبتها وازاح النير عن كتفها وقفت فى مكانهـــا لا تريم سحبها من مقودها عجزت عن الحركة تحسس كتفها عند اتصال ذراعها بجسمهـــا تململت من الألم انشقت الأرض عن فلاح شاب لم يعرفه عبد العزيز ساعتهـــا فقد كان أعمى لا يرى ..

ـ اوعى انت

وبيد خبيرة قصد موطن الداء

ـ الجاموسة انكسرت

سحق عبد العزيز .. سحب الشاب الجاموسة من عقودها مشت على ثلاث تكاد تقع ، خطوتان ثم وقفت تماما ..

ـ لازم عربية عشان نروحها البلد

لم ينظر عبد العزيز ناحيته ، حل وثاق الحمارة ركبها عارية الظهر وسار بها ناحية القرية ظهرها طويل وهو فى وسطه تماما ساقاه متدليان كهندى أحمر ، والحمارة الحكيمة تمشى متراخية ربما تعرف الا جدوى من العجلة ..

لم يكنْ ثمة شيء فى راس عبد العزيز ولا فى قلبـــه خفيف الراس لا يعى ثم فجأة تدفق من كيانه الغناء

كنا بنعمة وكان السعد خادمنا

صبحنا نقول يامين يتاوى الفرايب

غريب ياولدى .. .. ..

.. .. آه

ثم ضحك بأعلى صوته ، وحيد هو والناس على شطئان الترع ومن المسارب الصغيرة بين الحقول يجرون نحو الجاموسة المكسورة لا تدرى كيف عرفوا الخبر لكنهم بالمئات ذيول ثيابهم فى اسنانهم وسيقانهم تسابق الريح والحمارة تسير به رخية الخطوة مدلاة الرأس وهو على ظهرها يخضه سيرها الوئيد ويترنح كأنه مصنوع من هلام ..

وقت طويل بلا نهاية حتى وصل الى مشارف القرية وأمام باب دار أحد أعمامه جلس هذا العم وحوله الرجال ، تجاوزتهم الحمارة حاملة عبد العزيز دون وعى ترجل وتركها تمشى الى الدار وانشقت الأرض عن امراة نحيلة دقيقة معروقة حولاء مشعشة الشعر اندلعت فى وجهه ، يداها مشرعتان مفرودة الأصابع كأنما ستخنقه وصرخت فى وجهه

ـ ماتخافش يا خويا .. فداك .. فى دهية يا خويا .. لونك مخطوف ليه كده يا خويا

فى هذه اللحظة افاق عبد العزيز وادرك كل شىء وسالت دموعه على خدوده مسحها بباطن كفه الملوث بالطين .

اطل من باب الدار ، دائرون كالذنابير الحمراء المسمومة ، ثمة شىء غير عادى وجوههم منفعلة كل واحد على وشك الصراخ رجع والقى بجسده على المصطبة .. هنا كان يشرب قهوة العصر وكان يأتيه ابراهيم الجمل بالجريدة حاملا له خبر المولد تركابراهيم

لجمل القرية دون سلام ترك فى النفوس شيئا لكنه مشى دون سلام .. ، اللعنة على كل الأشياء .. اين الحاج كريم

خرجت اليه احدى اخواته

ـ ابوك طلع المحطة

طيب .. ثم ماذا .. اقتلونى ..

ـ ومرات ابوك سابت الدار ومشيت .. عند اختك .

احــــد أبناء أعمامه مشى وئيدا متجها اليه وساعته فى يده يملأها ببطء وينظر فيها ثم يضعها فى جيبه

ـ هيه .. يا عم عبده .. زهقت أ ..

وابتسم له

ـ انا بس .. هيه .. على راى المداح

لو كنت يابين تدادينى .. تتدادينى

الا انت يا بين بتكيل وتدينى .. وتدينى

ـ قوم شوف ابوك .. زمن المداحين راح

نعم راح زمان المداحين .. وراحت اشياء كثيرة ، دون سلام، كما راح ابراهيم الجمل ، مشى على الطريق الى المحطة ، الناس مشغولين ، لكنهم يلقون عليه نظرات عاطفة ويمصمصون شفاهم ويمضون ..

فى دكان على خليــل يقف ابنه الصغير .. نسخــة صغيرة خضراء من على خليل يزن فى تردد ويعد النقود فى حرص وخلفه امه تنظر اليه فى قلق وحنان كما كانت تنظر الى على خليل .. ابتسم عبد العزيز ..

وهنا دار عمر فرهود ، هو جالس امام الجمل يطعمه بلا كلل والجمل يمضغ واسع العيون مستطيل الأنف كابله صغير ..

وهذا زوج رشيدة اين هى ربما يشغلها أمر من أمور الدار انتهت صفوف المنازل وانبسط الفضاء والطريق ماش فى اعتدال الى المحطة وهناك يمشى الحاج كريم فى وقدة الشمس يتسند على عصاه صغير الحجم مائل الكتف وذراعه المريضة جامدة فى جنبه متعثرا على الطريق الطويل الذى يمتد وراءه وامامه يمضى لا ينحرف وراسه مشرعة الى اعلى دق قلب عبد العزيز اسرعت خطاه حتى أدرك أباه مد يده وسنده من تحت ابطه جسده هش متهالك ووجهه مغبر لكن ملامحه هادئة رقيقة وعيونه البنية مليئة بشوق يقطع القلب ..

ـ رايح فين يابا

وتكلم الحاج كريم بصوت رقيق هادىء النبرات كأنه موشك على البكاء

ـ مسافر يا بنى أروح الشرقية .. أشوف الناس .. بقى لى مدة ماشفتهمش يا عبد العزيز .

حاول عبد العزيز برقة شديدة أن يغير مسار أبيه ويعيده راجعا على الطريق ، الناس فى الحقول يتركون فئوسهم وينظرون، على الطريق وبضعة عيال يلعبون يتركون لعبهم لحظة ثم يغرقون فى الضحك ويفرون هاربين ..

ـ سبنى يا عبد العزيز .. سبنى اسافر يا بنى .. حرام عليك

ـ لسة بادرى عالقطر يابا

ـ استناه .. استناه يابنى

ـ طيب .. مش تغير هدومك .. هتسافر كدهه .. فى الهدوم دى ؟ ..

ـ أيوه .. زى مانا كدهه .. هيجرى ايه ..

ويعود به .. تهــدم الرجل تهدم الكيان كله وبقت العيون المشتاقة عبـد العـزيز يسير به كأنه طفـل يحتـاج الى رعاية ويستريحون قليلا على مصطبة رشيدة وتنظر الى ابيها وقـد عجزت عن كبح دموعها فتبكى وجسدها يرتجف بالدموع .

ـ ايه اللى جرالك يابا .. يا حسرت قلبى يابا ماتغسلهاش مية النيل ..

وينظر اليها الأب ..

ـ تعيطى ليه يا رشيدة .. هو انا جرى لى ايه انا عاوزاسافر سيبونى اسافر .. حرام عليكم ..

ويأخذه عبد العزيز من تحت ابطه ويسنده عائدا الى الدار ويتجاوزان دكان على خليل وفجأة من حارة جانبية تبرز روايح ساحبة العايق الذى عميت عيناه ، تسرع به وهو يتعثر ويتخبط ويتحسس ماحوله بعصاه .. تصرخ روايح :

ـ حبيبك اهه .. الحاج كريم اهه يا عايق

وتدور يدا العايق فى الهواء بحثا عن يد الحاج كريم ويأخذ عبد العزيز يده الى يد الحاج كريم ، عيناه بعيدتان لا تنظران الى العايق تتجاوز انه الى بعيد والعايق رث الثياب يربط راسه بخرقة متسخة ويستر عيونه بفضلتها .. يصرخ ويجهش فى البكاء ..

ـ انا عميت يا حج كريم .. انا عميت يا حج كريم

وتولول روايح فى نفس الوقت

ـ طول عمركم حبايب .. كنتم منورين البلد

ويقبل العايق يد الحاج كريم والحاج كريم يتكلم بصـوت خافت

ـ متعيطش يا عايق .. عاوزين نسافر .. عاوزين نسافر يا عايق البس هدومك وتعالى

وتسحب روايح العايق وتمضى به ويأخذ عبد العزيز الحاج كريم ليعود الى الدار

كانوا يحلمون بموت روايح وبالريش ينبت فى وجهها جزاء ما سرقت من دجاج وها هى تسحب العايق الأعمى وتدور طائرة اللب صارخة فى الشوارع والحارات .

ترك عبد العزيز الحاج كريم يدخل الدار وانهار جالسا على المصطبة ليس فى كيانه ذرة واحدة قادرة على المقاومة ركن رأسه على الحائط واغمض عينيه لكنه فتحها مرة أخرى على صوت يناديه

ـ قوم كلم عمك

نظر الى الولد فى سكون الولد يبادله النظرات فى خوف ثم مضى وقام هو يجرجر اقدامه نحو مجلس الرجال

على كوم التراب أمام باب دار عمه جلس الرجال ، لا يتركون الكارثة تذهلهم فهم رجال يقظون غارقون فى التفكير ينكتون التراب امامهم ويرسمون عليه الأشكال ، افسحوا لهمكانا فجلس، الجاموسة غير بعيده راقدة تجتر حملت من الحقل على عربة يجرها بغلان فكت عجلتى العربة من جانب ودحرجت الجاموسة على الأرض وها هى الآن راقدة تجتر ..

هؤلاء رجال غير رجال أبيه ، صارمون يضحكون بقوة، يجلسون فى العصارى لكن ليس حول حديث طيب ودود بل حول المذياع يستمعون للنشرات ويعلقون ويتكلمون بحماس مليئون بالمرارة ومتعجلون وصارمون

على اطراف المكان ابصر عبد العزيز وجه الشركسى النجار اصفر صفرة الموتى وذابل العيون ناحل وجهه جلد على عظم يعانى من الكبد منذ سنين والآن مع كل نفس ربما تخرج روحه . . ورأى أحمد بدوى ، وجهه مبتسم ابتسامة تنطوى على القنوط والازدراء لكنها بسمة حنونه فيها روح الأيام الماضية طاف عبد العزيز بوجوههم وبادلوه نظرات مؤاسية . .

اقبل الرجل على الجالسين راكبا ثم نزل عن حماره وسلم وسلمو عليه

ـ أهلا . . ازيك يا معلم محمد

قام هادئا ونظر الى الجاموسة ثم طلب من الرجال أن يقيموها هجمت جموعهم عليها دسو العصى الطويلة تحت بطنها ورفعوها حتى قامت تحسس الرجل مكان الداء . . سهم قليلا ثم نفض يديه ببعضها واستدار للرجال

ـ مافيهاش رجا . . الفتيلة اللى رابطة لوح الكتف انقطعت لا كى ولا حزام . . ممكن تعيش كدة . . تقوم وترقد بالرجالةتحلب وتعشر بس ماتقفش . .

وتكلم العم بحزم

ـ ماعدتش تلزمنا

ورد الرجل

ـ عوضكم على الله

كان عبد العزيز يتفرج على مسرحية غريبة دس العم يده فى جيبه وأخرجها مطبقة . .

ـ حق الدخان يا معلم

ـ عافينى ياسيدى . .الحاجة اللى مافيهاش رجا . .مانخدش من وراها حاجة . .

اتجه الى حماره

ـ استنى ناكل لقمة

ـ بالهنا لكم

ثم ركب حماره ومشى كأنه الطيف وتكلم احمد بدوى

ـ الجاموسة دى تندبح وتتفرق علينا وكل واحد يدفع اللى ييجى عليه نجمد حق جاموسة سليمة .. يتفرق علينا حقها وهى سليمة ..

ورد العم بحزم

ـ استنى ياأحمد

وكأنما خجل احمد بدوى من رأيه

ـ الحاج كريم كان بيعمل كده .. كان بيدبح بايده ويفرق ويلم الفلوس ويشترى جموسه احسن من اللى وقعت

ورد العم متنهدا

ـ مفيش داعى

ـ نشوف الخراب ونتفرج

ـ ربنا كبير

والتفت الى الجزارين الجالسون ينتظرون

ـ صلى على النبى فى الجاموسة ياسعودى

وتململ الرجل وبادل زملاؤه النظر

ـ الحاج كريم خيره علينا

ـ أنا ماقلتلكش اتصل الحاج كريم

وتجاسر الرجل أكثر ومرت سحابات بوجوه بعيدة

ـ الجاموسة عشار .. العشر بيخسر اللحم

ـ حتخلط ؟ .. الجاموسة لحمها ذى الذهب الأبيض

واغمض عبد العزيز عينيه وسرح وافاق على يد عمه تضع فى يده النقود

ـ مبروك عليك فلوسك .. وانت يا سعداوى مبروك عليك جاموستك ..

نظر عبد العزيز الى الجاموسة لا تزال تجتر راقد لم تعد لهم كانت امه تهمس خائفة وهى تراها عائدة من الحقل شبعى فحلة مكتنزه حافلة الضرع

ـ بسم الله ماشاء الله

وكانت تهمس وهى تنظر اليها سارحة تخور ملهوفة على السروح

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم النبى يحرسك

وكانت تجلس تحتها القرفصاء والشلية على ركبتها واللبن يشخب من الضرع حتى تمتلىء الشلية واللبن مختوم بالرغوة الفائرة وعبد العزيز جالس فى المزود امامها يداعب رأسها واذنيها ما عادت لهم .. ولا لانسان غدا تعلق لحما فى خطاطيف الحديد

كان عبد العزيز سارحا يبتسم فى أسى يشغله أحيانا وجه الشركسى النجار كم كان ذى رواء تحبك عليه اللبدة البيضاء فى اناقة ، الآن هو نصف ميت .. لكنه ينحدر فى الشارع متسنداعلى عصاه حتى يلحق بمجتمع الناس على كوم التراب لا أحد يحس به يجلس فى منتهى المجلس نصف نائم لا يستطيع طرد ذبابات ملحاحة شرهة تنوش وجهه .. الناس ضائقون به ربما .. أو ربما هم ضائقون بعبد العزيز ذاته ..

الشمس اصفرت للمغيب وقد آن أوان الرواية المسلسلة فى المذياع وربما صاحب المقهى قد فرش دكتيه بالحصير ورش الأرض بالماء ونصب براد الشاى على الوابور وجهز القوالح للجوز ، لابد أن الشوق فى قلوبهم الآن للقيام هناك سيتكدسون فى تلك الغرفة والمذياع هائج بالصراخ وأوراق الكوتشينة تصفق على الطبالى المرصوصة على الأرض والنار تتوهج فى قمم الجوز والحديث الذى لا ينتهى لأنك لا تعرف كيف بدأ ليس حديثا ولكن سوق كلام وزياط وهيصة ..

ربما هم ضائقون به الآن ويجاملونه بالجلوس قليلا معه فى كارتته حسمها العم فى كلمات والآن هذا موعد مقهاه .. كان الناس فى الماضى يتحدثون بتؤدة ويحيون دونما جلبة اما هؤلاء فانهم ضاجون ضائقون .. السياسة الجمعيات التعاونية .. الاقطاع . . الظلم .. كينيدى . . خرشوف يجب أن يقوم عبدالعزيز ..

لكنه يتباطأ .. فان جلستهم تروقه .. وانه ليود ان يزول ذلك الحرج الذى يستشعرونه وينطلقون بمرارتهم وسخريتهم .. لكنهم متحرجون .. نهض عبد العزيز .. وتلفت حواليه وهو نصف قائم فوجد أحمد بدوى ينهض أيضا ..

بعد انتهاء البيوت يفرش الفضاء واسعا يصعد متدرجابالحقول البنية وخطوط الأشجار الذهبية حتى يلتحم بالسماء عند الأفق الشمس لينة الظلال تمتد طويلة متعثرة فى الحصباء ، تنهد أحمد بدوى .

ــ ليه ياسى عبد .. الدنيا بتغزل

القامة القصيرة الوجه الطفولى ذى العيون الضيقة انزاحت الطاقية عن بياض يكتسح سواد الشعر كل شيء يسقط

من حول هذا الرجل وهو لا زال يبتسم ، حتى ابنه الكبير أخذ امرأته وترك القرية الى القاهرة لا يرسل خطابا يتأمل الحياة حوله مذهولا لكنه يبتسم ابتسامته الطفولية دهشا ..

ــ هو ايه اللى جرى ؟ .. الله ! شىء عجيب

ولازال يرتاد مجالس هؤلاء الناس يجلس فى الذيل ؛ وحينما يدار الكلام ينصت دهشا مبتسما وحينما تبلغ دهشته منتهاها يتكلم ، يتكلم كأنه جالس فى الدوار فى ضوء الفانوس الكبير .. لكنهم يرفضون كلامه .. فيسكت مغلوبا .. يبتسم دائما .

تساءل عبد العزيز

ــ الشركسي النجار .. باين عليه تعبان خالص

ويسهم أحمد بدوى قليلا ثم يقول

ــ بعد موت الولية .. من نهارها ماقامتش له قامة

كان يوما غريبا ضحكت القرية فى أوله حتى التوت الأمعاء ، كل قادم من السوق كان يحكى كيف رأى الشحات الشركسى يقتاد اخته العانس كبيرة السن أمامه وكيف يلاحقها بالرفس واللكمات وكل قادم من السوق حكى عن ولولة البنية وشكوها المضحك ، وعن شتائم الشحات المخبولة وقسوته الحيوانية ، وكنت تسمع الحكاية على عشرات الأوجه .. لكنك فى النهاية تعلم ان أم الشحات رأت ان تبيع دجاجة رومية وتشترى بثمنها حبا تطحنه فقد اصبحت وليس فى الدار كسرة خبز ؛ لكن الدجاجة ملك زوجة الشحات أهديت اليها من اهلها فى احد المواسم يحكون ويبالغون فى الحكى عن ولولة مراة الشحات حينما افتقدت رعيتها فلم تجدها وعن ثورة الشحات وهرولته الى السوق باحثا عن الدجاجة والأخت وعودته بها على ذلك الطريق مضروبة مشئومة مهانة تحمل على راسها دجاجة ملعون تصيح ..

ضحكت القرية على هذه الحكاية في الصباح وفى العصرانطلق الصراخ معلنا عن موت امراة الشركسى النجار أقبلت تدفع الشحات عن ابنتها فرفسها فى بطنها تقيأت دما وقالت لناس وهى تلفظ نفسها الا يؤذوا الشحات قاتلها .

وفى المساء أقيمت المعزى وجلس الشحات بين المعزين جهما حاجبه ساقط على عينه يطمسها فكه هائل مندفع للأمام شفتاه رقيقتان مزمومتان وجه مبقع الجلد وعلى كتفه تجتمع عضلات عظمية تشبه الحدبة

ـ ياسى عبد انا مانيش فاهم حاجة .. كان متهيألى انى ناصح

جاء الشركسى النجار الى الطريق مشتاقا للوبد ولبست امراته طوق الحديد حتى يعيش الشحات ها هو جالس فى المعزى ينظر .

لم ياكل عبد العزيز شيئا طول النهار اكتشف ان بطنه خاويه لكن نفسه لا تطلب الزاد .. نودى عليه استأذن من رفيقه وكر عائدا ..

فى دار أخته كانت زوجة ابيه متربعة على المصطبة مرتدية ملابس سفرها السوداء الحريرية وطرحتها محبوكه حول وجهها وتسند ذقنها على يدها وابنتها واقفهبجوارها صامته كسيفه جلس على المصطبة دون كلام ..

ـ امك يا عبد العزيز شتمتنى وهزأتنى

وبكت أجهشت فى بكاء مر عرف انها تبكى أباد ظلت سنين طويلة جالسة فى ركن الدار ترقبه فىسكون عله مرة يكلمها أو يعرف الطريق الى غرفتها التى تفرش باعتناء يوما بعد يوم وتنام فيها وحيدة دون رجل .

ـ انا مسافرة يا عبد العزيز .. لى أهل .. الدار ماعادتش مطرحى

دموعها تغسل وجهها ذابل متغضن هرم لم يعد ثمة ما يدعو لغسيله بالصابون النفاش .. ابتسم عبد العزيز ابتسامة مرة فى داخله تدخلت اخته بنبرة هامسة

ـ تسافر يومين .. تروق شوية .. وتبقى تيجى

وعرف عبد العزيز انها لن تعود عيونها مهاجرة كالطيور الغريبة خرج هو واخته يودعانها ، وحينما ضمته الى صدرها فى حنان عرف ان هذا هو الوداع الأخير ثم لم يرها بعد ذلك أبدا ، ماتت عند اهلها ..

كان نهارا غريبا تفكر فيه عبد العزيز وهو جالس علىالسطوح يتأمل صفـــاء الليل النجوم تتلالا فى سكون ، نسمة شماليـة رقراقة ؛ حزم الحطب تتكـدس على السطح فى الدور .. قمم أشجار الصفصاف . وهامات الجميز القديمة .. الغرفة الوحيدة القديمة خزائن اللبن والمعاش مخازن الحبوب الطينيـة مئـــذنة المسجد الجامع القصيرة الغليظة القبيحـــة ، قبة زوجة جده فى مقبرة القرية البعيدة

كان نهارا غريبا ماتت الجاموسة ، الآن زريبتهم خالية ما عدا الحمارة السمراء الكبيرة لعلها الآن فى جوف العتمة مدلاة الراس تتنهد فى حزن ..

مدد رجليه واستراح فى كرسيه فرشوا للحاج كريم مرتبـة نام عليها ودثروه باللحاف انفاسه رتيبة تحدث صوتا وهم حوله صامتين

ام عبد العزيز متكومة على نفسها وغارقة فى النوم اذا لم تجد ما تشغل به يديها اغرقت فى النوم لم يراها ابدا سارحة

تفكر .. او جالسة تحادث الناس وتستمتع بالحديث لولا تحرجها لتركتهم ونزلت الى غرفتها ونامت ..

رشيدة والبنات جالسات ساكنات لكنهن يقظـــات الرؤوس كالبوم القابع على الأشجار فى العتمة .. ماذا يفعل عبـــد العزيز ثمة شيء يجب عمله ، هل يترك دراستـــه ويبحث عن وظيفـــة ثم يحملهم جميعا الى المدينة .. أيقوى على أن ينشيء دارا فىأرض جديدة ؟ .. هل يرحل وحده ويراسلهم بالنقود والرأى ؟ ..

مجلس تـكون فيه رشيدة والحاجة شوق لهو أبهج المجالس ابتسم عبد العزيز فى مرارة وهو يرى شبحها قادما .. الحـاجة شوق

ـ مسا الخير ياولاد

وردوا عليها هامسين انتبهت أم عبد العزيز تماما كأنمـا هى متوفرة للعراك وجلست الحاجة شوق علىالحصير ساكتة ، نظرت ناحية الحاج كريم مدثر باللحاف ساكن .. سلام على الايـــام الطيبات والكلمات الودودة والنظرات الطافحة بالشوق والخدود المزدهية ولت الأيام ..

ـ آدى حال الدنيا

... التىكانت يوما .. هىالآن مغرمة بضروبالعطارة وصنوف النباتات والأعشاب الغريبة والأشياء السحرية الصغيرة .. لكن لا شفاء لصداع راسها ولا لسوء مزاجها وكآبة نفسها تعلق سمكه ذهبية فى منديل رأسها وحجابا فى طرف غدائرها وتربط ورق نبات خاص على أصداغها .. اشياء تغليها وتشرب ماءها علـى الريق اشياء تدلك بها نفسها شبكة من الوصفات والتمائم والمعقدة حناء للمقاصيص البيضاء المتدلية على الأصداغ ، لا تريد أنتشيب ابدأ مدت يدها بشيء الى ام عبد العزيز

ــ خدى يا ست ام عبد العزيز .. تقليه وتدعكى به ايده اللى بتوجعه .

ــ طيب ياختى

اخذت منها اللفافة ووضعتها باهمال بجوارها باهمال وعدائية قامت لم يرد أن يستبقها ربما تكون أقل كآبة بين اشيائها واحفادها

ــ افوتكم بعافية

واللفافة ملقاة على الحصيرة ، كانت هذه الأشياء ذات جدوى ربما فى الزمن القديم .. ابتسم عبد العزيز فى داخله .

ذات ليلة جاء العراقى يعود الحاج كريم فى وعكة ألمت به .

ــ مالك يابا الحاج

ويشير الحاج كريم الى رأسه الموجوعة ويصيح العراقى

ــ راسك مفتوحة يابا الحاج

ثم يطلب مفتاحا خشبيا ومنديلا كبيرا وبخورا وشمعا وزيتا بتقافز ويجرى طقوسا وقراءات بلسانه المهشم تميت الجالسين من الضحك واخيرا اطلق البخور ودلك بالزيت المسخن على الشمع وعقد المنديل وادخله حول راس الحاج كريم ثم أولج المفتاح فى العصابة وبدأ يديره والعصابة تضيق على الراس حتى صرخ الرجل ألما فصرخ العراقى فرحة وانتصارا لاعادة غلق الراس ومسات الحاضرون ضحكا ..

الآن لا شىء من هذا يجدى ، المطلوب ادوية غالية ونظام تغذية وزيارات طبية متوالية .. ولا شىء فى الدار ، لا شىء يجدى وصفات شوق أو طب العراقى حتى حياة العراقى اصبحت دورا هزليا لا يثير احدا يطير على عجلته ذاهبا لعمله .. ويطير راجعا لا يلتفت ناحية الدوار ، الارائك عليها التراب لا احد يجلس هناك

كان نهارا غريبا يتأمل النجوم الحائرة الدب الكبير يدور حول النجمة اللامعة الوحيدة الصاعدة نحو الشمال كعيون ابيه هداة الليل ثم الفجر ثم نهار جديد بعنائه وشاكله ..

سمع خفق شبشب على السلم ، وبدت سميرة طويلة القامة مليئة تحمل ابنها على كتفها ويعلق بها بصر عبد العزيز ، ساهما شاردا ، ليس فى راسه فكرة واحدة ..

ـ مساء الخير

وتأتى الردود هامسة مترددة

ـ مساء النور ياختى أهلا وسهلا

ثم تبصر عبد العزيز وتهتف ..

ـ عبد العزيز

وتسرع ناحيته ثم تلقى بنفسها على ركبتيها امامه واضعه يديها على ركبتيه ..

ـ عبد العزيز وحشتنى اوى يا عبد العزيز .. يا سلام نفسى اشوفك بشكل

تتكلم وتضحك صوتها طلق رائق وسط السكون من حوله ، باهر كالنجمة الزاهية الوحيدة فى بحر الظلام ، شىء سقط فى روح عبد العزيز ثم بدأ ينتشر ويسرى فى كيانه دمعه رائقة لم يعرفها منذ وقت طويل بدأ تشمله وتهزه وضع يديه على يديها المستريحتان على ركبته ..

ـ أهلا سميرة .. اهلا

وهى تواصل اندفاعها المنفرد فى صمت الوجوه من حولها لكنها تلتفت فجاة وتكتشف وتحس . انها تصبح فى جبانة ساكنة

الشواهد تسكت مكسوفة وتدور تبحث عن شبشبها حولها تلبسه وتستدير نازلة ويتأمل عبد العزيز ظهرها وهى ماضية ويحس بأن سروره الذى غمر روحه يستلب منه ويفرب عنه وهى تمضى رويدا ، هتف متشبثا

ــ مستعجله ليه يا سميرة

ــ معلش

نهض من مكانه لم ينظر الى الجالسين متحلقين كآبى صامتين وانما كان كل احساسه بها وبها وحدها . .

ــ استنى جاى معاك أوصلك

ظلال الدور على ارض الشارع حالكه السواد وضوء القمر أخضر زاهى على الحيطان ، حطب العرائش رطب بالندى يتدلى اهدابا من السقوف المساء عذب وروح عبد العزيز مشوقه للانطلاق

ــ ازيك يا سميره . .

ــ حلوه ازيك انت

طويله تكاد كتفها تصل الى كتفه مشيا فى هذا الشارع فى البكور ليلحقا قطار الصباح الى المدرسة ، كبرت لكن قلبها لايزال ابتسامتها واسنانها اللامعة المصفوفة طلاقتها وصفاء روحها أزداد حنينا لأن تذوب الأثقال الجاثمة على صدره .

ــ زى ما انت شايفه ياسميره .

ازدحم صدره بالضحك . .

ــ اول امبارح كنت فايت . . شفتك فى الشارع عماله تجرى . . قلت يا ترى ايه . .

وضحكت من قلبها . .

ـ ـ والنبى شفتنى صحيح .. يادى الكسوف .. دا انا كنت حافيه وراسى عريانه ..

وضحك من كل قلبه ..

ـ آدينى شفتك .. كنت بتعملى ايه ..

ـ كنت ياخويا بجرى ورا المعزة .. جتها داهيه .. مفلبانى .. فى رجليها ستين عفريت ..

وتفرق فى الضحك ..

ـ بتاكل ياخويا حاجة الناس والناس فاضحانى .

ثم تهدأ قليلا وتعروها جدية طفلية ..

ـ والنبى يا عبد العزيز انا فى غلب .. معيز وخرفان وبهايم وعجول .. وانا طول النهار دايبه تحت رجليهم ..

وفجأه تفرق فى الضحك ويضحك عبد العزيز معها ويفرق دون ان يعرف لماذا ؟

ـ اسكت على اللى جرى أول امبارح .. دخلت الزريبه .. لقيت البقره راقده وممدده رجليها على الأخر وعينيها مغمضه .. قلت يا نصيبتى البقره ماتت ورحت راقعه بالصوت .. ساعت ما صوت راحت البقره ناطه وقايمه واقفه .. يا حوستى .. اتارى البقره كانت نايمه .. الناس اتلمت عليه .. اقولهم ايه ؟ بقيت فطسانة على روحى من الضحك .. والناس عمالين يضربوا كف على كف .. ويقولوا البت اتهبلت ولا ايه ..

ومات عبد العزيز ضحكا لم يضحك هكذا من زمان ، لو يعانقها ويضم ضحكها الى صدره ويدخله فى قلبه ..

ـ قولى لى يا سميرة .. لسه فاكره حاجه من العلوم بتاعت زمان ..

ـ والنبى يا خويا .. اسكت .. راسى انقلبت والواد ابنى آجى اقوله يا واد وورينى كتبك .. وان ما كنتش عارف حاجه افهمك .. يقوللى يا امه اسكتى .. حاجات زمان بتاعتكم ما تنفعش معانا ..

ـ بقى كبير يا سميرة .. سيبيه لوحده

ـ سايباه يا خويا

ـ ولابسه الطوق الحديد عشان يعيش .. بتصدقى فى الخرافات يا سميرة ..

ـ يا خويا الناس بتقول كده .. بخاف عليهم يا عبد العزيز .. والنبى عيالى حلوين اوى بس لما تقعد معاهم كده وتجاريهم فى الكلام ..

اوصلها عبد العزيز وكر راجعا فى الشارع الظلال اكثر حلكه وضوء القمر أكثر بهاءا صوت وقع اقدامه واضحا فوق قلب الصمت يمشى خفيفا ، يتامل وجه القمر يغرس عيونه فى صدره كانما يهم بان يرفع عقيرته مغنيا لم يرد ان يعود الى الدار لا يريد أن يدفن فرحته فى غرفة العذاب على السطوح .

انحرف فى زقاق جانبى طويل مظلم تماما لايرى طريقه ولكنه يسير ، حتى أحس بأن الزقاق انتهى ، مال ، عتبة الباب منخفضة جدا عن أرض الزقاق تحذر نازلا استند على سقف الباب بيده دخل وسط الدار ، مظلم تماما لايرى شيئا تخبط فى الظلام ، باب فيه شروخ تتقصد بضوء أبيض باهر .. دخل الى المقهى ، غرفة صغيرة وقده من ضوء الكولوب والصياح والزياط والهياج ، حزمة من الحياة الصخابة مدفونة تحت صمت القرية لكنها قوية انفسح له مكان بين رجلين دون أن تتردد الضجة المندفعة المذياع على آخره وصوت المطربة المسرسع يندفع فى خط مواز لهيصة الجالسين

الارائك بجوار الحيطان مزدحمة بالجالسين والأرض المفـــروشة بالحصر والزكائب لامكان فيها لقدم .

الطبالى وحولها لاعبى الكوتشينة ورشفات الشـــاى وكركرة الجوز ، الجو ساخن خانق .. ومن الكلوب ووش الوابور القهوجى واقف أمام المنصة يصب الشاى ويرص النار على الجوزة ومع كل كوبة يناولها لرجل يصحبها بشتمة بشعة عارية .

نحيل وسخ الثوب ذابل العينين لكن وجههالشاحب دافقبالحياة اسنانه سوداء ووابتســامته وقحه قويه ناول عبد العزيز كوبة الشاى دون تعليق .. ساخنه قويه زائدة السكر، رشــف عبد العزيز منها ، قبضت فمه ، لكن طعمها عبقرى مرارتها تذوب فى سكرها وتسرح فىكيانه كالسرور ذابت وحدته فى الضجه السائده عمه يصفق اوراق الكوتشينه فى الطبليه ويشتم رفيقه ويهدده يتكلمون فى كل شىء وفى نفس واحــد وبمرارة وقوة واســتياء وغضب ..

ـ ضير المحطه ياوله خلينا نسمع النشرة ، سد حنك المره اللى بتغنى دى ..

ويمد القهوجى يده الى الراديو ليدير مفتاحه ولكنه لا ينسى أن يــرد .

ـ النشرة .. سياسى اوى زى اللى جابك .. ملعون ابوك

ـ عاوزين نفهم يا بجم .. هنتنى طول عمرنا حمير

وفورا صوت المذيع ووالضجه كما هى كانما لا احد يســمع ولكنك بعد حين تسمع تعليقات من هنا ومن هناك على ما يقــول وتعرف انهم يتابعون .

« وصل السير ...

ـ جاى يعمل ايه ابن الجزمه .

ـ انا لو هناك كنت تفيت فى وشه ورجعته ..

ووجد عبد العزيز نفسه يتكلم .. هادئا ثم منفعلا صارخا .

المذيع يتكلم وهو ينفعل والضجه هادره والكل يتكلمون ويعلق واحد على كلامه ويرد والآخرون مشتبكون فى كلام او عراك او ضحك وشتائم .

انغمس فيهم فى قلبه مثل ما فى قلوبهم من المرارة والغضب والألم تندى جبينه بالعرق وهو لايكف عن الهدير بالكلام امتــدت يد بالجوزة اليه جذب منها نفسا عميقا كثيفة ثرية صعدت الى راسه بقوة داخ وسعل لكنه لم يتوقف عن الكلام وعاد اليها مرة ومــرة طعمها رائع كانما مائة سيجارة فى نفس واحد .. تدفق الدخــان من فمه ازرقا كثيفا وتدفق الكلام حادا صارخا .

فهـــرس

الاهــــداء ٤

الحضــــــرة ٥

الخبيـــز ٤٧

الســـفر ٨١

الخدمة ١١٣

الليلة الكبيرة ١٤٩

الـــوداع ١٧٥

الطـــريق ١٩٩

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	أبو المعاطى أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● أن تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م . شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● أنا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(أقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥

● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨
● تسلق الجدار الاملس	(قصص)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠
● رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح	٣٢
● أرض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب	٣٣
● الخوف	(رواية)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما اجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكناً	(قصص)	يوسف القعيد	٣٦
● حبال السام	(قصص)	فاروق خورشيد	٣٧
● الختان الصيفى	(قصص)	أحمد الشيخ	٣٨
● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصلان	٣٩
● مسألة لبنى	(مسرحية)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
● هـل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٣
● الطائر والنهر	(قصص)	عائد خصباك	٤٤
● زهر الليمون	(رواية)	علاء الديب	٤٥
● الطواحين	(قصص)	أمين ريان	٤٦
● رائحة البحر	(قصص)	سامى فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف الغمرى	٤٨
● اسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥١
● ايام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥٢

العدد القادم :

- هذا ما كان (قصص) محمد البساطى

فى أعدادنا القادمة : (قصص) محمد البساطى

- الغرف الأخرى (رواية) جبرا ابراهيم
- اغنية حب حزينة (قصص) طلعت فهمى
- انكسار الحروف (قصص) ربيع الصبروت
- الشىء (رواية) نهاد شريف
- اخبار الدراويش (رواية) عبد الوهاب الاسوانى
- نورسان أبيضان (قصص) نعيم عطيه
- فنجان قهوة قبل النوم (رواية) صبرى موسى
- ساعات الكبرياء (قصص) ادوار الخراط
- ورود سامة لصقر (رواية) أحمد زغلول الشيطى
- الغيوم ونبات الشجر (رواية) عبد العزيز مشرى
- الصخرة والطوف (مسرحيات) فؤاد التكّرلى

الاعداد الممتازة القادمة :

- المعذبون فى الأرض (رواية) طه حسين
- خيوط العنكبوت (رواية) ابراهيم عبد القادر المازنى
- ابراهيم الثانى (رواية) ابراهيم عبد القادر المازنى
- نائب عزرائيل (رواية) يوسف السباعى
- فساد الأمكنة (رواية) صبرى موسى
- قصص مختارة (قصص) يوسف ادريس
- الجبــل (رواية) فتحى غانم
- قصص مختارة (قصص) يوسف الشارونى
- اغنية الرياح الأربع (دراما شعرية) على محمود طه
- بحيرة المساء (قصص) ابراهيم اصلان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم ايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٢٠١

SBIN٩٧٧ - ٠١ - ١٨٠٩ - ٥

هـذه الروايـة ، من العلامـات الـرئيسيـة والأولى التى أعلنت ميـلاد جيـل (الستينات) ، فى الأدب المصرى خاصة ، والعربى بوجه عام وهى تبقى واحدة من أجمل إبداعات الرواية العربية دون استثناء .

هنا ينجت عبد الحكيم قاسم كتلة الواقع الاجتماعى والانسانى فى قرية مصرية لم نكن قد رأيناها فى أدبنا من قبل مجسمة كـل هذا التجسيم ، بكـل ما يمكن أن يسمى : أبعاد الحقيقة ، ولم نكن قد قرأناها من قبل أبداً مرسومة بكلمات العربية الطامحة إلى تحويل صـورة هذه الحقيقـة الشاملة إلى شعـر . « كتلة » الواقـع هنا